المُهَذَّبُ

مِنْ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ

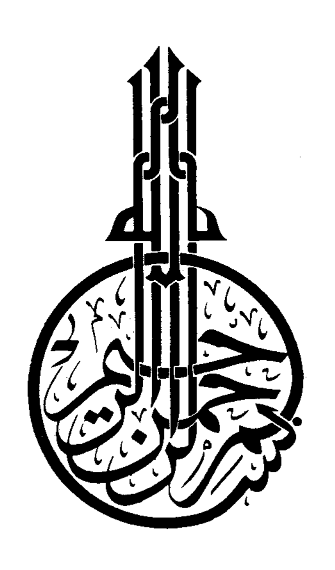
لِلإمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشّامي





المُهذَّب مِن
مَدارِج السَّالِكِين

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقدّمة التّهذيب

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهمَّ صلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

يعدُّ كتاب «مدارج السالكين» الذي ألفه الإمام ابن القيم، من الكتب المتقدِّمة التي تحدَّثت عن أعمال القلوب وتهذيب النفوس، وتأديبها بآداب المتقين الصادقين.

وللإمام قَدَمُه الثابتة في هذا الميدان، فقد كثرت كتابته فيه، وتنوَّعت عباراته، وتعددت أساليبه.

وهو يضع خلاصة ذلك كله في «مدارج السالكين» مستنيراً بهدي الله تعالى مما تضمنته سورة الفاتحة.

يقول في ذلك:

«فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ـ القرآن الكريم ـ ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن ـ بحمد الله ـ ننبه على هذا، بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن وعلى ما تضمنته هذه السورة من المطالب، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين..».

ولكن ابن القيم لم ينفرد في تأليف هذا الكتاب، فقد شاركه فيه الإمام

الشيخ أبو إسماعيل الهروي المتوفى قبله بما يزيد عن قرنين من الزمان.

فللإمام الهروي كتاب عنوانه «منازل السائرين» جعله ابن القيم محوراً لكتابه، واستغرق شرحه له قسماً كبيراً من «مدارج السالكين».

وهذا ما جعل الكتاب ـ على نَفَاسته ـ بعيداً عن أيدي عامة المبتدئين من طلاب العلم من أمثالي، لما تستلزمه طريقة الشرح من عدم انسياب العبارة، والوقوف مع «الألفاظ» التي سبَّبها التكلُّف اللفظي والمعنوي، أو مع «المصطلحات» كالفناء، والاتصال، وجمع الوجود، وجمع العين... التي لم يأتِ لها ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا يعرفها إلا النادر من الناس ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة.

وهذا الذي أقوله، ليس رأياً خاصاً بي، ناتجاً عن قصور في الفهم، أو عدم صبر على العلم.. ولكنه واقع يلمسه معظم الذين يقرؤون هذا الكتاب.. ولكنهم قد لا يُصرِّحون بمعاناتهم..

ويسجل لنا الأستاذ صلاح شادي تجربته في هذا الموضوع في كتابه «تأملات في كتاب مدارج السالكين» واصفاً شغفه بالكتاب وقد اندفع راغباً في قراءته، فيقول:

«فعالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه، فانصرفت عنه..».

وتركه مدة، ثم عاد إليه ليقول: «فبدأت قراءته.. ومع ذلك وجدت عسراً شديداً في فهم ما يرمي إليه الإمام الهروي، بل وحتى بعد التبسيط الذي ساقه ابن القيم..»[1].

فهذا القارئ الفاضل المثقف، أفصح عن معاناته عند قراءته الكتاب،

---

(١) تأملات في كتاب مدارج السالكين، ص٢، الناشر: شركة شعاع للنشر. الكويت.

وقد اضطر إلى قراءته عدة مرات كما يقول في تتمة مقدمته.

وأتساءل: وهل كل القراء يمتلكون صبر الأستاذ شادي؟

لهذا رأيت أن أقوم بتهذيب الكتاب، فأقتصر على كلام ابن القيم المتعلق بموضوع الكتاب، بحيث يصل القارئ إلى ما قصد إليه المؤلف من أقرب طريق.

وهكذا - وبحمد الله - ينضم هذا «المهذب» إلى سلسلة «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم» ليأخذ مكانه في عقدها، موفراً على القارئ الكريم الوقت والجهد، سالكاً به طريق السلاسة والوضوح الذي عرف عن الإمام ابن القيم.

وقد يكون من المستحسن أن يتعرف القارئ الكريم على طبيعة الجهد المبذول.. والغاية المرجوة من عملي في هذا الكتاب.. وهذا ما سأبينه في الفقرات التالية من هذه المقدمة، والله أسأل أن يجعل هذا العمل وكل أعمالي، خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ
١/ ٨/ ٢٠٠٢ م

وكتبه
صالح أحمد الشامي



كتاب «مدارج السالكين»

ألَّف الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب تحت عنوان: «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

ويقع الكتاب في ثلاثة مجلدات.

وقد بدأ بالحديث عن سورة الفاتحة كمدخل للبحث، واستمرَّ هذا الموضوع حتى الصفحة (١٢٢) من الجزء الأول، حيث بدأ الكلام عن المنازل التي هي موضوع الكتاب.

وطريقته في عرض المنازل:

أن يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما ييسره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع.

ثم ينتقل إلى ما قاله شيخ الإسلام الهروي في كتابه «منازل السائرين» فيتناوله بالشرح جملة جملة، وفي بعض الأحيان كلمة كلمة، حسب ما يقتضيه المقام، وفي بعض الأحيان قد يستكمل ما أراد قوله أثناء شرحه لكلام الهروي.

ونحن ـ في الحقيقة ـ عندما نقرأ في كتاب «المدارج» نجد أنفسنا أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد:

أما الأول: فهو ما كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين.

وأما الثاني: فهو شرح كتاب «منازل السائرين».

ونتج عن ذلك:

١ ـ التكرار، فالموضوع الواحد يعرض مرتين، وإن اختلف الأسلوب.

٢ ـ أصبح الكتاب في ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.

٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقة الشرح تارة، وبسبب الاستطرادات تارة أخرى.

أكتفي بهذا الوصف المجمل للكتاب.

الهروي وكتابه «منازل السائرين»:

أما الهروي: فهو شيخ الإسلام، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري، الحنبلي، الصوفي، المحدِّث، الأصولي.

ولد بمدينة «قندهار» سنة (٣٩٦هـ)، وتوفي بمدينة «هراة» سنة (٤٨١هـ).

قال في شذرات الذهب: «كان قذىً في أعين المبتدعة، وسيفاً على الجهمية، وقد امتحن مرات، وصنف عدة مصنفات، وكان شيخ خراسان في زمنه غير مدافع..».

وأما كتابه فهو «منازل السائرين إلى الحق المبين»، وهو الذي شرحه ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين».

وهو كتاب صغير، وضعه على طريقة المتون، بل هو كتيب من حيث حجمه وعدد صفحاته.

وقسمه إلى مئة منزلة، يتدرج بها السائر.. وكل منزلة قسمت بدورها إلى ثلاث درجات، فالأولى درجة العامة، وهي لعامة المسلمين، والثانية درجة الخاصة، وهي لخاصة المؤمنين، والثالثة درجة خاصة الخاصة وهي للواصلين.

وإذاً، فنحن في هذا الكتاب أمام شرح لثلاثمائة درجة، وبيان مواصفات وحدود كلٍّ منها.

وبسبب كثرة الدرجات، وقلة الكلمات الواصفة لكل منها، اضطر إلى كثير من التكلف اللفظي والمعنوي، والتبست عباراته على قارئيه، وشردت عنهم معاني ألفاظه.. فجانب الكتاب البساطة والوضوح اللازمين في مثل هذا الموضوع، مما دفع بعضهم إلى رميه بالتشبيه والتجسيم، وهو من ذلك بريء.

ابن القيم و«منازل السائرين»:

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الإمام ابن القيم كان معجباً بالشيخ «الهروي» من حيث كونه واحداً من فقهاء الحنابلة، ومن حيث سيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاده أهلَ البدعِ الذي لا يشق له فيه غبار، ومواقفه المشهورة في نصرة الله ورسولهﷺ.

وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «عمله خير من علمه»، وقد علَّق ابن القيم على قول ابن تيمية قائلاً: «وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله»[1]. وقال ابن القيم أيضاً: «وصاحب المنازل ـ رحمه الله ـ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية.. الذين سعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بَهْتِ الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث..»[2].

وقال: «وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبيِّن مرتبته من السنة، ومقداره

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٩٤، دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٦٤.

في العلم، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل»[1].

هذه صورة الشيخ القائمة في ذهن الإمام ابن القيم.

فلما رأى النقد الموجه إليه بسبب غموض عباراته، ووقوعه في بعض الأخطاء والأوهام التي روَّج لها المبتدعة ووجدوها منفذاً للنيل منه.. رأى من واجبه الذبَّ عن عرض هذا الشيخ صاحب المواقف في نصرة الله ورسوله.

ولا يكون ذلك إلا بشرح الكتاب وبيان محاسنه، وهو الجانب الذي لم يذكره أعداؤه، فبادر إلى ذلك مبيناً وجهة نظر الشيخ، شارحاً غامض كلامه، مبيناً مبهمه..

ذلك هو الدافع - فيما أرى والله أعلم - إلى شرح الكتاب.

ولكن ابن القيم لم يكن هدفه من ذلك تبرير الأخطاء، والإغضاء عن الأوهام، بل بيان الحق والصواب، ويحسن بنا أن ننقل بعضاً من عباراته في هذا الصدد.

فمن ذلك قوله: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحبّ إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله..»[2].

وقال: «هذا حاصل كلامه محرراً مقرراً، وهو من منكر كلامه»[3].

وقال: «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل..»[4].

وقال: «ولعمر الله، لقد كان في غنية عن هذا الباب، وعن هذه التسمية، ولقد أفسد الكتاب بذلك..»[5]. وهذا في الكتاب كثير..

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٨٧.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٧.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٦٢.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٩.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٤٠٠.

وللإمام ابن القيم موقف ثابت من تقسيم الشيخ كل منزلة إلى ثلاث درجات، الثالثة منها لخاصة الخاصة، وهي التي تؤدي عند الشيخ الهروي إلى منزلة الفناء، وابن القيم يختلف معه في هذه القضية، ولا يرى الفناء غاية المطاف.. بل وينتقد منزلة الفناء التي كانت سبباً في انحراف كثيرين.

ويقول ابن القيم في بيان ذلك: «والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغُ في إنكار الأسباب، ولا يرى وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصلين، وقد عرفت ما فيهما وأن الصواب خلافهما..»[1].

ويقول: «ولكنه ـ رحمه الله ـ كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئاً، ويراه الغاية التي يُشَمِّرُ إليها السالكون، والعَلَم الذي يؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُمَ موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه، علماً وحالاً وذوقاً، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية بادياً على صفحات كلامه، وِزانَ تعطيلِ الجهمية لما اقتضته أصولهم في نفي الصفات»[2].

إن مناقشة المؤلف للشيخ الهروي في درجة خاصة الخاصة في كل منزلة قد شغل مساحة لا بأس بها من الكتاب[3].

يضاف إلى ذلك مناقشاته له في بعض ما ذهب إليه، إذ قد يستغرق مناقشة جملة وتصويبها أو بيان خطئها والصواب في المسألة العدد من الصفحات[4].. تلك هي صورة العلاقة بين الإمام وبين كتاب «منازل السائرين».

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٥١٩.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ فقرة «هل للخاصة توبة خاصة بهم؟» في منزلة التوبة، ص٨٦.

(٤) ومن أمثلة ذلك مناقشة قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» حيث استغرقت أكثر من عشر صفحات من (٢/ ١٤) إلى (٢/ ٥٢).

وإذا كان كتاب «منازل السائرين» في وقتنا هذا ليس محل اهتمام القراء، ولا يهمهم أمرُ حلِّ معضلاته، أو تصحيح أوهامه، فلمَ يضيعون بذلك أوقاتهم؟.

ثم إن الكتاب الآن ليس متداولاً بين الأيدي، والدواعي التي دفعت الإمام ابن القيم لشرحه والدفاع عن مؤلفه، لم تعد موجودة.. لهذا كان العمل على تهذيب «المدارج» أمراً مفيداً.

فكرة تهذيب «المدارج»:

إن الأمور السابقة ـ يضاف إليها الاستطرادات المعهودة في أسلوب ابن القيم ـ تجعل القارئ مشتت الفكر بعض الأحيان، غير قادر على جمع أطراف الموضوع الواحد.

وهذا ما دفعني إلى التفكير في تهذيب هذا الكتاب بحيث يقتصر البحث فيه على:

١ ـ ما كتبه الإمام ابن القيم بشأن «المنازل» بعيداً عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه، بعيداً عن كل الاستطرادات الواردة فيه.

وبهذا تتحقق في الكتاب «طريقة المتقدمين» التي أثنى عليها الإمام ابن القيم عندما قال:

«فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم: كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام ببيان حقيقته وموجبه، وآفاته المانعة من حصوله..».

ولعل سبب عدم التزام الإمام بها، هو ارتباطه بشرح كتاب «المنازل»

الذي سلك فيه مؤلفه طريقة المتأخرين.

عملي في الكتاب:

الموضوع الرئيس في كتاب «مدارج السالكين» هو الكلام على «منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

فكان لا بدَّ من دراسة كل منزلة على انفراد، واستخلاص ما قاله ابن القيم فيها، وجمعه بعضه إلى بعض بحيث يكون متتابعاً يسير القارئ معه، دون أن تعترضه عوائق الاستطرادات أو الشرح والاختلاف.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ بعد صبر على العمل، إذ كان عليَّ ـ في كثير من الأحيان ـ أن أستخرج كلام ابن القيم من ثنايا شرحه للمنازل، لأضمه إلى كلامه الآخر الذي يبدأ به الموضوع عادة، بعد تنقيته من الاستطرادات..

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات »التي وردت في «المنازل» والتي ينتقدها ابن القيم أشد النقد، والتي «لا يعرفها إلا النادر من الناس، ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة»[1].

وقد عملت جهدي على أن تكون الموضوعات واضحة المعالم، مقسمة إلى فقرات، وقد أضع لكل فقرة عنواناً، عندما أجد ذلك مفيداً.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب.

وقد جمعت فيه كلام المؤلف عن هذه السورة الشريفة، وجعلته في سبعة فصول.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٤٣٦.

الباب الثاني: وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وفيه الموضوع الذي عنون المؤلف الكتاب به. وقد مهدت للمنازل بفصلين:

جمعت في الأول منهما كلام المؤلف عن المنازل وعددها وتقسيماتها.

وفي الثاني: جمعت كلام المؤلف فيما يكون قبل السير من الاستعداد وتهيئة الأسباب.

وتم بعد ذلك عرض المنازل واحدة بعد الأخرى مما اعتمده الإمام ابن القيم ورضيه، أما ما لم يعدّه الإمام منها كـ«الفناء» و«الهيمان» و«الحزن».. فلم أذكره.

الباب الثالث: وعنوانه: مختارات.

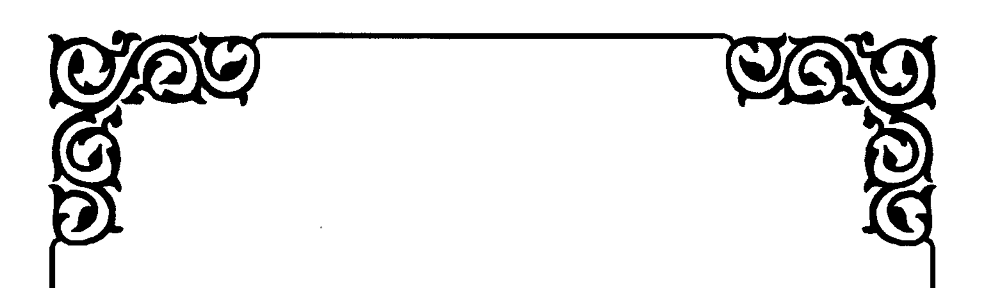
وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب، جاءت ضمن استطرادات المؤلف، فرأيت أن أضعها في هذا الباب إتماماً للفائدة.

هذا ما يسر الله تعالى عمله من أجل تقريب هذا الكتاب القيم. ولم يكن عملي فيه الاختصار، فليس ما أقدمه اختصاراً للأصل، ولكنه انتقاءٌ لمادةِ الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمعٌ لها، وترتيب.

وبهذا يكون القارئ أمام كتاب «مدارج السالكين» الذي وضعه ابن القيم ولم يشاركه فيه أحد.

والخيرَ أردت، فأرجو أن أكون ممن اجتهد فأصاب، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



المهذب من مدارج السالكين

للإمام ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشامي



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوانَ إلاَّ على الظَّالمينَ، وأَشهدُ أَنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، رب العالمين، وإلـهُ المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأَشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوثُ بالكتاب المبينِ، الفارقِ بين الهدى والضلالِ، والغيِّ والرشاد، والشكِّ واليقين.

أنزله لنقرأَهُ تَدَبُّراً، ونتأَملَهُ تَبَصُّراً، ونسعدَ بهِ تذكُّراً، ونحمله على أَحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره ونجتهد على إقامة أَوامره ونواهيه، ونجتني ثمارَ علومهِ النافعةِ الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَمِ من بين رياضهِ وأزهاره.

فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أَرادَ معرفتهُ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونورهُ المبينُ الذي أَشرقت له الظلماتُ، ورحمته المهداةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأَسباب، وبابه الأعظمُ الذي منه الدخول، فلا يغلقُ إذا غُلِّقت الأَبوابُ.

وهو الصِّراط المستقيمُ الذي لا تميلُ به الآراءُ، والذكرُ الحكيمُ الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، والنُّزُلُ الكريمُ الذي لا يشبعُ منه العلماءُ، لاتفنى عجائبُهُ، ولا تُقلعُ سحائبه، ولا تنقضي آياتُـهُ، ولا تختلف دلالاتُهُ، كلما ازدادت البصائرُ فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بَجَّست مَعينَهُ فَجَّر بها ينابيعَ الحِكمةِ تفجيراً.

فهو نورُ البصائر من عَماها، وشفاءُ الصدور من أدوائها وجَواها، وحياةُ القلوبِ، ولذَّةُ النُّفوس، ورياضُ القلوب، وحادي الأرواح، إلى

بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح! حيَّ على الفلاح. نادى به منادي الإيمان على رأسِ الصِّراطِ المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

سبحانَ الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاتها من كنوزِ الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟!.

أَفيظنُّ المعرضُ عن كتابِ ربِّه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أَو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأَنواع الخيال؟.

هيهاتَ واللهِ، لقد ظنَّ أكذبَ الظنِّ، ومَنَّتْهُ نفسه أَبين المحال، وإنَّما ضُمِنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّدَ التقوى وائتمَّ بالدليل، وسلَكَ الصِّراطَ المستقيم، واستمسكَ من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، والله سميعٌ عليم.

وبعدُ، فلما كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميلهِ لغيرهِ في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

فأقسمَ سبحانه أنَّ كلَّ واحدٍ خاسر إلاَّ من كمَّلَ قُوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقاً بالإنسان أنْ يُنفقَ ساعاتِ عمره ـ بل أَنفاسَهُ ـ فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلاَّ بالإقبال على القرآنِ وتفهُّمِه وتدبُّرِهِ، واستخراجِ كنوزه وإثارة دفائنِه، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمَّةِ عليه، فإنَّه الكفيلُ بمصالح العبادِ، في المعاشِ والمعادِ،

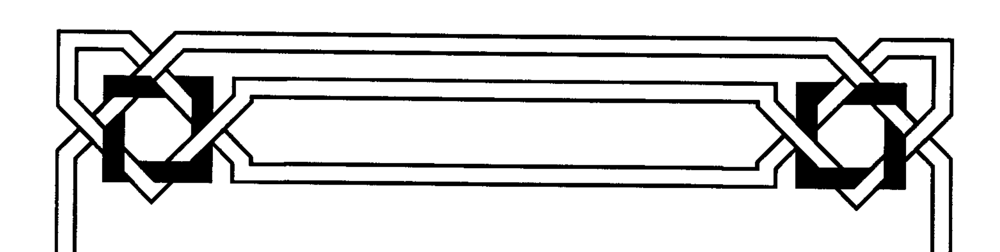
والموصلُ لهم إلى سبيل الرشادِ، فالحقيقةُ والطريقة، والأذواقُ والمواجيد الصحيحة، كلها لا تُقْتَبَسُ إلاّ من مشْكاتِه، ولا تُستثمرُ إلاّ مِنْ شجراته.

ونحن ـ بعون الله ـ ننبِّهُ على هذا بالكلام على فاتحةِ الكتابِ وأُمِّ القرآن، وعلى بعضِ ما تضمَّنتهُ هذه السورة من هذه المطالبِ، وما تضمَّنتهُ من منازل السائرينَ، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائِلها وغاياتِها، ومواهبها وكسبياتها، وبيانِ أنَّهُ لا يقومُ غيرُ هذهِ السورة مقامَها، ولا مسدَّها. ولذلك لم يُنزل اللهُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في القرآنِ مثلَها.

والله المستعان، وعليهُ التكلان. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله [العلي العظيم].

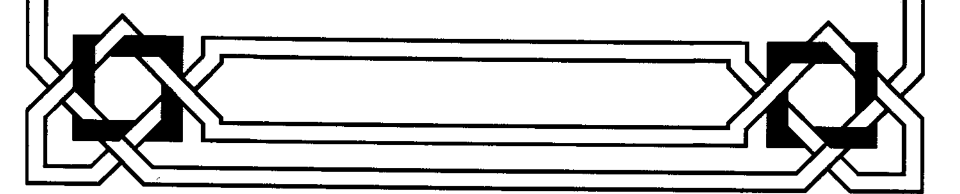
* * *





البَاب الأوَّل

الكلام على فاتحة الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

* * *

الفصل الأول

المطالب العالية في سورة الفاتحة

اعلمْ أنَّ هذه السورةَ اشتملتْ على أُمّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتضمَّنتهاأكملَ تضمنٍ.

١ ـ فاشتملت على التعريفِ بالمعبودِ ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجعُ الأسماءِ الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: «الله والربُّ والرحمنُ» وبُنيت السورة على الإلـٰهية، والربوبية، والرحمة.

فـ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلـٰهية.

و﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على الربوبية.

وطلبِ الهدايةِ إلى صراطِهِ المستقيم بصفة الرحمة.

والحمدُ يتضمن الأمورَ الثلاثة، فهو المحمودُ في إلـٰهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناءُ والمجد كمالان لحمده.

٢ ـ وتضمَّنتْ إثباتَ المعاد، وجزاء العبادِ بأعمالهم حَسَنِها وسيِّئِها، وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكمِ إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل، وكلّ هذا تحت قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

٣ـ وتضمنت إثباتَ النبوَّاتِ من جهات عديدة:

[منها] ـ كونه «رب العالمين»، فلا يليقُ به أنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ سدىً هَمَلاً، لا يعَرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قَدَرهُ حق قدره من نسبه إليه.

[ومنها] ـ من اسمهِ «الرحمن» الذي رحمته تمنعُ إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالِهِمْ، فمن أعطى اسم «الرَّحمنِ» حقَّهُ علم أنه متضمِّنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمُّنِهِ إنزالَ الغيثِ، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصلُ به حياةُ القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما يحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكنِ المحجوبون إنَّما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدركَ منه أُولو الألباب أمراً وراء ذلك.

[ومنها] ـ من ذِكْرِ «يوم الدين» فإنَّه اليومُ الذي يُدينُ اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبُهُمْ على الخيراتِ، ويعاقبُهُمْ على المعاصي والسيئاتِ، وما كان الله ليعذب أحداً قبلَ إقامةِ الحجَّةِ عليه، والحجةُ إنَّما قامت برسله وكتبه، وبهم اسْتُحِق الثوابُ والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

[ومنها] ـ من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فالهداية: هي البيانُ والدلالة، ثم التوفيقُ والإلهام، وهما بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيانِ والدلالة إلاَّ من جهةِ الرسل، فإذا حصلَ البيانُ والدلالة والتعريف ترتَّبَ عليه هدايةُ التوفيق.

ومِنْ ها هنا يُعْلَمُ اضطرارُ العبد إلى سؤالِ هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلانُ سؤالِ من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فِعلَه تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك، وما نعرفُ جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأَمرٌ يفوتُ الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كَمُلَتْ له هذه الأُمورُ كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبةٌ أُخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهدايةُ يوم القيامة إلى

طريق الجنة، وهو الصِّراطُ الموصلُ إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراطِ اللهِ المستقيم، الذي أَرسلَ به رسوله، وأَنزل به كتابه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قَدْرِ ثبوتِ قَدَمِ العبد على هذا الصراط الذي نصبَهُ اللهُ لعبادهِ في هذه الدار، يكون ثبوت قدَمِهِ على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم مَنْ يمُرُّ كالبرقِ، ومنهم من يمر كالطَّرْفِ، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حَبْواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكردَسُ في النار.

فلينظر العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْوَ القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

[ومنها] ـ ذكر المنعَم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة.. فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها ألبتة.

ففي ذكر المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة.

٤ ـ و[تضمنت] ذكرَ «الصراط المستقيم» مفرداً مُعَرَّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلكَ يُفيدُ تعيُّنه واختصاصه، وأَنَّهُ صراطٌ واحد.

وأَمَّا طرقُ أَهلِ الغضب والضلال فإنَّهُ سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّد لفظ «صراطه» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابنُ مسعود: «خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً، وقال: هذا سَبيلُ

اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطوطاً عن يَمينهِ وعنْ يسارهِ، وقال: هذه سُبلٌ، على كلِّ سبيلٍ شَيْطانٌ يَدْعو إليه، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

وهذا لأنَّ الطريقَ الموصلَ إلى الله واحدٌ.

وهو ما بعثَ به رسلَه وأنزلَ به كتبه، لا يصلُ إليهِ أَحدٌ إلاَّ من هذه الطريق، ولو أَتى الناسُ من كلِّ طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرقُ عليهم مسدودة، والأَبوابُ في وجوههم مغلقةٌ، إلاَّ مِنْ هذا الطريقِ الواحد، فإنَّه متصلٌ بالله، موصلٌ إلى الله.

ولما كان طالبُ الصراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريقٍ مُرافقُه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوسُ مجبولةٌ على وحشة التفرد، وعلى الأُنس بالرفيق، نبّه الله ـ سبحانه ـ على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، ولِيعلمَ أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلُّون قدْراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: «عليكَ بطريقِ الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياكَ وطريق الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، وكلما استوحشْتَ في تفرّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغضَّ الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٢)؛ وأخرجه ابن ماجه عن جابر (١١).

بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم .

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه : حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم .

فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسلٌ إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء .

* * *

الفصل الثاني
التوحيد في سورة الفاتحة

اشتملت هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

فالتوحيد نوعان:

- نوع في العلم والاعتقاد، ويسمى: التوحيد العلمي، لتعلقه بالأخبار والمعرفة.

- ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى التوحيد القصدي الإرادي؛ لتعلقه بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلـٰهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأمّا توحيدُ العلمِ: فمدارُهُ على إثباتِ صفاتِ الكمالِ، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيهِ عن العيوبِ والنقائص، وقد دلَّ على هذا شيئان: مُجْمَل، ومُفَصَّل.

أمّا المجمل: فإثباتُ الحمد له سبحانه.

وأمّا المفصل: فذكرُ صفة الإلـٰهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربعِ مدارُ الأسماءِ والصفاتِ.

فأمّا تَضَمُّن الحمد لذلك، فإنَّ الحمدَ يتضمنُ مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون

حامداً من جحدَ صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفاتُ كمال المحمود أكثر، كان حمدُهُ أكملَ، وكلما نقصَ من صفاتِ كمالِهِ، نقصَ من حمدِه بحسبها.

ولهذا كان الحمدُ كله لله حمداً لا يُحصيه سواه، لكمالِ صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلال التي لا يُحصيها سواهُ. ولهذا ذمَّ الله ـ تعالى ـ آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصافِ الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمعُ، ولا تبصرُ، ولا تتكلمُ، ولا تهدِي، ولا تنفعُ، ولا تَضرُّ.

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أنّ أسماءَ الرب تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالةً على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقمُ. واللهمَّ أعطني، فإنك أنت الضارُّ المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يخبرَ عنها بمصادرها ويوصف بها. لكنّ الله أخبرَ عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

فالإلحادُ: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحدِ معانيها وتعطيلها،

وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودَها ومذمومَها.

الأصلُ الثاني: أن الاسمَ من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دِلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدَها، وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدلُّ على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوتُ الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن ها هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أن الفعل الاختياري لازمٌ للحياة، وأن السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة ـ أثبتَ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزومَ ذلك، ولا عرفَ حقيقةَ الحياة ولوازمَها، وكذلك سائر صفاته.

إذا تقرر هذان الأصلان، فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدِّلالات الثلاثِ، فإنه دالٌّ على إلـٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلـٰهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفاتُ الإلـٰهية: هي صفاتُ الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائرَ الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال «الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعُلِمَ أن اسمَهُ «الله» مُستلزِمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلـٰهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال المُلك والحمد، وإلـٰهيته وربوبيته ورحمانيتُه وملكُه مستلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيلُ ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها، ما يدل على أنه محمود في إلـٰهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلـٰه محمود، ورب محمود، ورحمـٰن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

* * *

الفصل الثالث

اشتمال الفاتحة على شفاءين

تشتمل «الفاتحة» على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان

١ ـ فأمّا اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمّ اشتمال، فإنّ مدار اعتلالِ القلوب وأسقامها على أصلين: فسادِ العلم. وفسادِ القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها. فهدايةُ الصراطِ المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أَفْرَضَ دعاء على كلِّ عبد، وأوجبَهُ عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامَه.

والتحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً يتضمنُ الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإنَّ فسادَ القصدِ يتعلقُ بالغاياتِ والوسائل. فمن طلب غايةً مُنقطعةً مُضْمَحِلّةً فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نوعَي قصدِه فاسداً.

وهذا شأن كل من كان غاية طلبه غير الله وعبوديته من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءَها، والمقصود أنَّ قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب

الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعَهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهورُه وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حَقَّت الحقائق، وفاز المُحِقّون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هنالك من علم لا ينفع عالمَه، ويقين لا يُنجي مُسْتيقنه.

وكذلك من طلبَ الغايةَ العليا والمطلبَ الأعلى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنّها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا؛ وكلاهما فاسد القصد! ولا شفاء من هذا المرض إلاّ بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإنّ هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره؛ بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم؛ والاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله، ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا ركّبها الطبيبُ اللطيفُ، العالمُ بالمرض، واستعملها المريضُ، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إنّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء، والكِبْر.

فدواء الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ودواء الكِبْر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرض الكبر والعجب بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعَم عليهم ﴿ غَيْرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فسادِ القصد، الذين عرفوا الحقَّ وعدلوا عنه و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهلُ فسادِ العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُسْتَشْفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عَقَلَت عن الله تعالى كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

٢ ـ وأمَّا تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي «الصحيح» من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أنَّ ناساً من أصحاب النبي ﷺ مَرُّوا بحيٍّ من العَرَبِ، فلم يَقْرُوهُمْ، ولم يُضَيِّفوهم، فلُدغَ سَيِّدُ الحي، فأَتَوْهُمْ؛ فقالوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تَجْعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم على ذلك قَطيعاً من الغنم، فجَعَلَ رَجُلٌ مِنّا يَقْرَأُ عليهِ بفاتحةِ الكتاب، فقام كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بهِ قَلَبَة، فقلنا: لاَ تَعْجَلوا حتى نَأْتِيَ النَّبيَّ ﷺ، فأَتَيْناهُ، فذكرنا له ذلك، فقال: (وما يُدْرِيك أَنَّها رُقْيَة؟ كُلُوا، واضْرِبُوا لي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ)[١].

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء! هذا مع كون المحلّ غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم؛ فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)؛ ومسلم (٢٢٠١).

الفصل الرابع
العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة

[العبادة والاستعانة]:

وسرُّ الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدارُ العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزلَ الله مئةَ كتاب وأربعة كتب، جمعَ معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين؛ فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؛ ونصفهما لعبده وهو ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادةُ» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مذلَّلٌ، والتعبدُ: التذللُ والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً.

ومن ها هنا كان المنكرون محبةَ العباد لربهم منكرين حقيقةَ العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غايةُ مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بُغْيتهم ـ منكرين لكونه إلـٰهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم؛ فهذا غاية توحيدهم؛ وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ

﴿ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولهذا يُحتج عليهم به على توحيد إلـٰهيته، وأنه لا ينبغي أن يُعبد غيرُه، كما أنه لا خالق غيره ولا ربَّ سواه.

و«الاستعانةُ» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد على الله تعالى، فإن العبدَ قد يثق بالواحد من الناس؛ ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذان الأصلان ـ وهما التوكلُ والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع[1]، قرن بينهما فيها.

[تقديم العبادة على الاستعانة]:

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس، ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

---

(١) انظر: هود (١٢٣)، والممتحنة (٤)، والمزمل (٨ و٩)، والرعد (٣٠).

ولأن «العبـادة» لا تكون إلاّ من مُخْلِص، و«الاستعانـة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقَته التي تَصَدَّقَ بها عليك، وأداءُ حَقِّهِ أهمُّ من التعرض لصدقته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

[حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين]:

وأما تقديم المعبـود والمسـتعان على الفعلين، ففيه: أدبُهم مع الله تعالى بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمامُ وشدةُ العناية به، وفيه الإيذانُ بالاختصاص، المسمى بالحصْر، فهو في قوة: لا نعبد إلاّ إياك، ولا نستعين إلاّ بك، والحاكم في ذلك ذوقُ العربية والفقهُ فيها، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

[أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة]:

إذا عُرف هذا، فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

[**القسم الأول**]: أجلُّها وأفضلُها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانةَ على مرضاته، وهو الذي عَلّمه النبي ﷺ لِلحِبِّ معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: (يا مُعَاذُ،

واللهِ إنّي لأُحِبُّكَ، فلاَ تَنْسَ أنْ تَقُولَ دُبُر كُلِّ صَلاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ومقابل هؤلاء:

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادةَ ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعانَ به، فعلى حُظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويَمُدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس ـ لعنه الله ـ، ومع هذا، فقد سأله حاجةً فأعطاه إياها، ومتَّعه بها؛ ولكن لمّا لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادةً له في شقاوته، وبُعْده عن الله وطرده عنه.

فليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكُه وشقوتُه، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون مَنْعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يجيبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيّناً خِيرته، وعاقبته مُغَيّبَةٌ عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بُدّاً، فَعَلّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢).

بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وُكِّلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

القسم الثالث: من له عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مَقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لأنفسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، ولا خَذَلَ هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفرَ.

فهؤلاء لهم نصيبٌ منقوص من العبادة، لا استعانةَ معه، فهم مَوْكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريقُ الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره، نقض تكذيبُهُ توحيدَه.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكنَّ حظَّهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقلّ نصيبهم من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

وهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم

وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حقَّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً لأزاله.

فإن قلتَ: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلتُ: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به.

القسم الرابع: وهو من شهد تفردَ الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعانَ به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقُضِيَتْ له، وأُسْعِف بها ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه، ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفةً بالله تعالى ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه.

* * *

الفصل الخامس
التحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾

[المتابعة والإخلاص]:

إذا عُرِفَ هذا: فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود.

فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾.

والناس منقسون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها ـ أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبّهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلبَ المحمَدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عبادَهُ بالموتِ والحياة لأجله؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينةً لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: العملُ الحسنُ هو أخلصه وأصوبه. قالـوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقْبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يُقْبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السُّنة.

القسـم الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعـة، فليـس عمله موافقـاً للشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عزَّ وجلّ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يُحْمَدوا باتباع السنة والإخلاص.

القسم الثالث: من هو مخلص في أعمالـه، لكنها على غيـر متابعـة الأمر، كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، كمن يظن أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة.

القسـم الرابع: مَنْ أعمالُه على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال..

فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة، لكنها غير خالصة فلا تقبل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

[قواعد العبادة]:

وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحققُ بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقادُ ما أَخبرَ الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه

وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسوله ﷺ.

وقولُ اللسان: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيينُ بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والالتجاء إليه، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومُستحبُّها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرارٌ بها، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ متضمنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

[لزوم ﴿إياك نعبد﴾ إلى الموت]:

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦ ـ ٤٧]. واليقين ها هنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي «الصحيح» ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: (أمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جاءَهُ اليَقينُ مِنْ رَبِّه)[1]، أي: الموت وما فيه.

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٣).

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: «مَنْ كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله؟»(١) ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلقَ كلَّهم إلى السجود فيسجد المؤمنون، ويَبقى الكفارُ والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليفُ هناك، وصارت عبوديةُ أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصلُ إلى مَقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصلَ إلى مقام الكفر بالله تعالى، والانسلاخ من دينه، بل كُلَّما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ـ ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أُولي العزم أعظم من الواجب على مَنْ دونهم. والواجبُ على أُولي العلم أعظمُ من الواجب على مَنْ دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

[انقسام العبودية إلى عامة وخاصة]:

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبوديةُ أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

---

(١) انظر: البخاري (١٣٦٩)؛ ومسلم (٢٨٧١).

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلـٰهيته.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع.. لكن أولياءه خضعوا له وذلُّوا له طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداءه خضعوا له قهراً ورغماً.

* * *

الفصل السادس

مراتب «إياك نعبد» علماً وعملاً

[مراتب العبودية]:

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل.

فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما ـ العلم بالله. **والثانية** ـ العلم بدينه.

فأمّا العلم بـه سـبحانه، فخمسُ مراتب: العلمُ بذاتـه، وصفاتـه، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهُهُ عما لا يليق به.

والعلمُ بدينه مرتبتان: **إحداهما**: دينُه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانيةُ: دينُه الجزائي، المتضمِّن ثوابَه وعقابَه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العمليـة، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبةُ أصحاب اليمين: فأداءُ الواجِبات، وتركُ المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبـةُ المقربين: فالقيـامُ بالواجبـات والمندوبـات، وتـركُ المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورِّعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباحٌ متساوي الطرفين، بل كـلُّ أعمالهم راجحـةٌ، ومَنْ دونهم يَترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلاّ الله تعالى.

* * *

ورحى العبوديـة تدورُ على خمسَ عشـرةَ قاعدة، مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانُها: أن العبوديةَ منقسـمةٌ على القلب، واللســان، والجوارح. وعلى كل منها عبوديةٌ تخصه.

والأحكامُ التي للعبودية خمسةٌ: واجـبٌ، ومسـتحبٌّ، وحـرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

[عبودية القلب]:

فواجبُ القلب منه مُتَّفقٌ على وجوبه، ومُخْتَلَفٌ فيه:

فالمتفقُ على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدرٌ زائدٌ على الإخلاص، فإنَّ الإخلاصَ هو إفرادُ المعبود عن غيره.

ونيةُ العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييزُ العبادة عن العادة.

والثانيةُ: تمييزُ مراتب العبادات بعضها عَن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدقُ؛ والفرقُ بينَه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوباً وطلباً، فالإخلاصُ توحيدُ مطلوبه، والصدق توحيدُ طلبه.

فالإخلاص أنْ لا يكونَ المطلوبُ منقسماً، والصدقُ أن لا يكونَ

الطلبُ منقسماً. فالصدقُ بذلُ الجهد، والإخلاصُ إفرادُ المطلوب.

واتفقت الأمةُ على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيثُ الجملة.

وكذلك النصحُ في العبودية، ومدارُ الدين عليه، وهو بذلُ الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له، وأصلُ هذا واجبٌ، وكمالُهُ مرتبةُ المقرَّبين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان: واجب مستحق؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحبّ؛ وهو مرتبة المقرّبين.

وكذلك الصَّبرُ واجبٌ باتفاق الأُمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين، وله طرفان أيضاً واجبٌ مستحق، وكمال مستحب.

وأمّا المختَلَفُ فيه فكالرضا، فإنَّ في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية:

فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال: هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن، ولا في السنة، وإنما جاء في القرآن مدح أهله والثناء عليهم، لا الأمر به.

قالوا: وأمّا قولُكم: «لا خلاص عن التسخط إلاّ به» فليس بلازم. فإن مراتبَ الناس في المقدور ثلاثٌ: الرضا: وهو أعلاها، والسُّخط: وهو أسفلُها. والصبرُ عليه بدون الرضا به: وهو أوسطها. فالأولى للمقربين السابقين، والثانية للمقتصدين، والثالثة للظالمين، وكثيرٌ من الناس يصبرُ على المقدور فلا يتسخطه، وهو غيرُ راضٍ به، فالرضا أمر آخر.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربّاً وإلـهاً، والرضا بأمره الديني فمتَّفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلاّ بهذا الرضا: أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً.

والمقصود: أنْ يكون ملكُ الأعضاءِ وهو القلب قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأمّا المحرمات التي عليه فالكِبْر والرياء، والعُجْب، والحسد، والغفلة، والنفاق.

وهي نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشكِّ، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرِّياء، والعُجْب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أنْ تشيعَ الفاحشةُ فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدُّ تحريماً من الزِّنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاحَ للقلب ولا للجسد إلاّ باجتنابها، والتوبة منها، وإلاّ فهو قلب فاسدٌ، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها؛ فوظيفة ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وتَرَكَ القيامَ بها امتلأ بأضدادها ولا بُدَّ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكونُ صغائرَ في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً شهوةُ المحرماتِ وتمنِّيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أُثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها

استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم يُنزَل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ: (إذا تَواجَهَ المسْلِمَانِ بسَيْفَيْهما، فالقاتِلُ والمَقْتولُ في النَّار. قالوا: هذا القاتل يا رسول الله! فما بالُ المقتول؟ قال: إنَّه كان حَريصاً على قتلِ صاحِبِهِ)[1]، فنزَّلَه منزلة القاتل، لحرصه [على قتل صاحبه] في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مُستحَب القلب ومباحه.

[عبودية اللسان]:

وأما عبوديات اللسان الخمس:

فواجبُها: النطقُ بالشهادتين، وتلاوةُ ما يلزمه تلاوته من القرآن؛ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسولُه، كما أُمِر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأُمِر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأُمر بالتشهد، وأُمر بالتكبير.

ومن واجبه: ردُّ السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليمُ الجاهل، وإرشادُ الضال، وأداءُ الشهادة المتعيِّنة، وصدقُ الحديث.

وأما مستحبهُ: فتلاوةُ القرآن، ودوامُ ذكر الله، والمذاكرةُ في العلم النافع، وتوابعُ ذلك.

وأما محرَّمُه: فهو النطقُ بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لمَا بعث اللهُ به رسولَه، والدعاءُ إليها، وتحسينُها وتقويتُها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذبُ، وشهادةُ الزور، والقولُ على الله بلا علم؛ وهو أشدُّها تحريماً.

---

(١) رواه البخاري (٣١)؛ ومسلم (٢٨٨٨).

ومكروهه: التكلُّم بما تَرْكهُ خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلفُ هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين:

والتحقيق: أنَّ حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن لِلِّسانِ شأناً ليس لسائرِ الجوارح. و(إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان، تقول: اتقِ الله! فإنَّما نَحْنُ بك، فإن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا)[1]، وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم[2]. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أولاً، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح.

وهذا بخلاف سائر حركات الجوارح، فإنَّ صاحبَها قد ينتفعُ بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالُها فيما فيه منفعة له، ولا مضرةَ عليه فيه في الآخرة، وأما حركةُ اللسان بما لا ينتفع به فلا يكونُ إلاّ مضرة، فتأمله.

[عبوديات الجوارح]:

وأما العبوديات الخمس على الجوارح، فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً، إذ الحواس خمسٌ، وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوبُ الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله تعالى ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٩). ومعنى تكفر: أي تذل وتخضع.

(٢) جاء هذا في حديث معاذ عند الترمذي (٢٦١٩).

ويحرُمُ عليه استماعُ الكفر والبدع، إلاّ حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من ردّه، أو الشهادة على قائله.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماعُ المعازف، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه.

وأمّا السمعُ المستحَبُّ: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأمّا النظر الواجب: فالنظرُ في المصحف، وكتب العلم عند تَعَيُّن تعلم الواجب منها، والنظرُ إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يَستمتع بها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلاّ لحاجة، كنظر الخاطب، والمُسْتام[١]، والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحْرم.

والمستحب: النظرُ في كتب العلم والدين التي يزدادُ بها الرجلُ إيماناً وعلماً، والنظرُ في المصحف، ووجوه العلماء والصالحين والوالدين.

والمكروهُ فضول النظر الذي لا مصلحة فيه؛ فإن له فضولاً كما للسان فضولٌ، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

---

(١) المستام: من المساومة في البيع والشراء.

والمباح: النظر الذي لا مَضرّة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

وأمّا الذوقُ الواجبُ: فتناولُ الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت؛ فإن تركه حتى مات، مات عاصياً قاتلاً لنفسه.

ومن هذا تنـاول الدواء إذا تيقن النجاةَ به من الهلاك، على أصحِّ القولين.

والذوقُ الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأمّا المكروهُ: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفُجاءة؛ وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المتبارين في الولائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياءً منك لا بطيبة نفس.

والذوقُ المستحبُ: أكل ما يعينُك على طاعة الله عزَّ وجلّ، مما أذن الله فيه. والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينالَ منه غرضه. والأكلُ من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأمّا تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشَّم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تُعلِمُ به هذه العين هل هو سمٌّ قاتل أو لا مضرة فيه؟. ومن هذا شم المُقَوِّم، وربُّ الخِبْرة، عند الحكم في التقويم، والعيب، ونحو ذلك.

وأمّا الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب

المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشيةَ الافتتان بما وراءه.

وأمّا الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل.

والمكروه: كشَمِّ طيبِ الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا مَنْعَ فيه من الله ولا تَبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأمّا تعلُّق هذه الخمس بحاسة اللَّمس، فاللَّمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمَة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحبُّ: إذا كان فيه غضّ بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام لِلَّذة، وكذلك في الاعتكاف.

ومن هذا لمسُ بدنِ الميت ـ لغير غاسله ـ لأنَّ بَدَنَهُ قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له؛ ولهذا يُستحب ستره عن العيون، وتغسيلُه في قميصه في أحد القولين.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

* * *

الفصل السابع

مراتب الهداية في «اهدنا»

إن حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ : أن العبد يشهد من قوله: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى.

ثم يشهد من قوله: ﴿ نَعۡبُدُ ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية.

ويشهد من ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ جمع الإلـٰهية.

ويشهد من ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى ـ هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية ـ أن يُقْدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة ـ أن يجعله مريداً له.

الرابعة ـ أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة ـ أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة ـ أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادَّة له .

السابعة ـ أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة ، أخص من الأولى ، فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً ، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً .

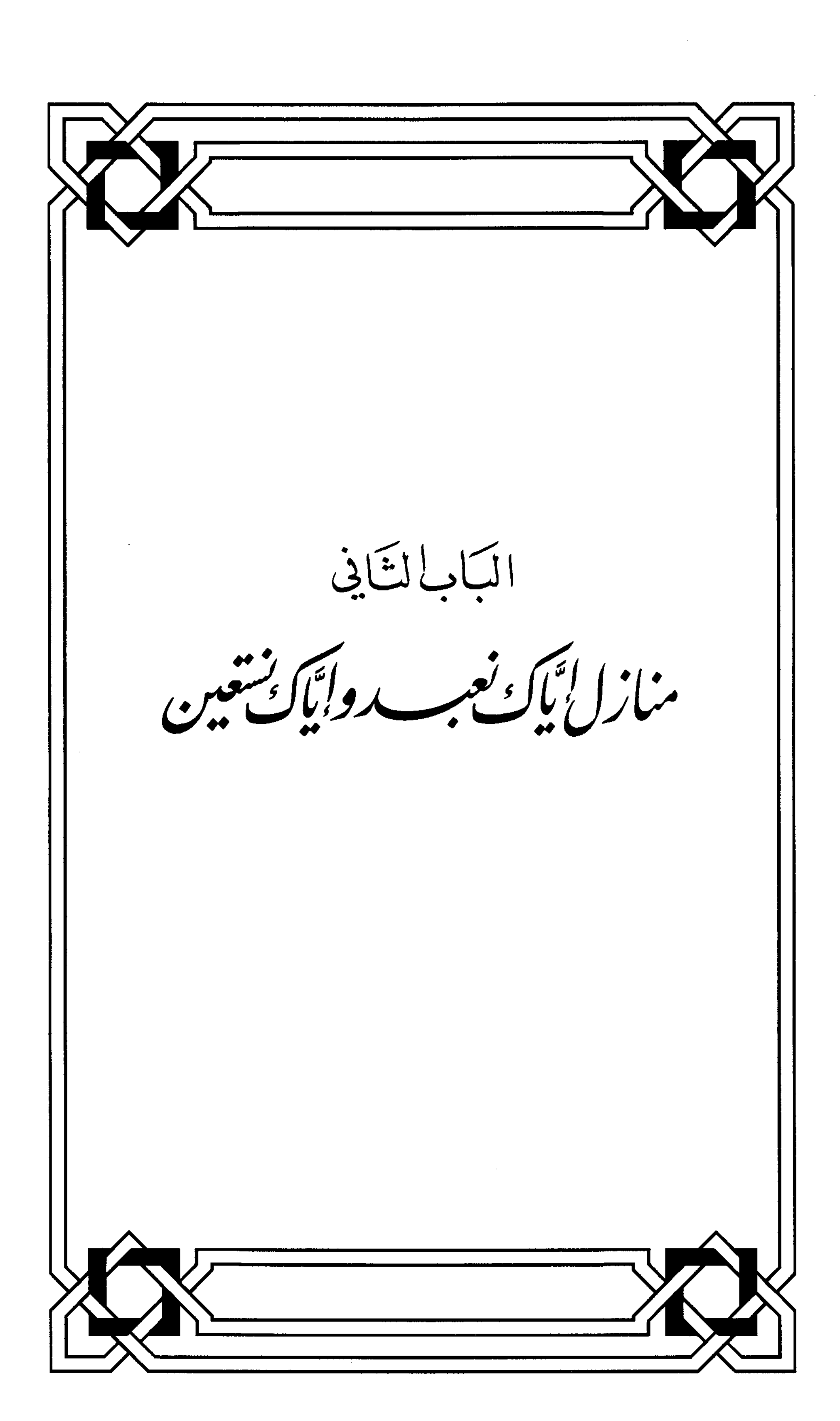
الثامنة ـ أن يُشهده المقصود في الطريق ، ويُنبهه عليه ، فيكون مطالعاً له في سيره ، ملتفتاً إليه غير محتجب بالوسيلة عنه .

التاسعة ـ أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة .

العاشرة ـ أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها ، وهما طريق أهل الغضب ، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً ، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً ، ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله وأتباعهم من الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين[١] .



(١) جاءت هذه الفقرة في: ٣/ ٥١٠ من طبعة دار الكتاب العربي، بتحقيق محمد حامد الفقي.



الباب الثاني

منازل إياك نعبد وإياك نستعين



تمهيد (١)
بين يدي المنازل

[ترتيب المنازل وعددها]:

قد أكثر الناس القول في صفة منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله تعالى.

فعدَّها بعضهم فجعلها ألفاً، ومنهم من جعلها مئة، ومنهم من زاد ونقص..

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في المقامات وترتيبها، كلٌّ يصف منازل سيره، وحال سلوكه، ولهم اختلاف في بعض منازل السير، أهل هي من قسم المقامات أم من قسم الأحوال؟.

والفرق بينهما: أن المقامات كَسْبِية، والأحوال وَهْبِية.

ومنهم من يقول: الأحوال هي نتائج المقامات، والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل من كان أعلى مقاماً كان أعظم حالاً.

والصحيحُ في هذا أنَّ الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازَلَتْه، وباشرها فهي أحوال، فإذا تمكنتْ منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات.

وهي لوامع ولوائح في أولها، وأحوال في أوسطِها، ومقامات في

نهاياتها، فالذي كان بارقاً هو بعينه الحال، والذي كان حالاً هو بعينه المقام، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه.

وقد ينسلخُ السالكُ من مقامه كما ينسلخُ من الثوب، وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود.

[أنواع المقامات]:

ومن المقامات: ما يكون جامعاً لمقامين. ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك. ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلاّ عند استجماع جميع المقامات فيه.

فـ«**التوبةُ**» جامعةٌ لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يُتَصَور وجودُها بدونهما.

و«**الرضا**» جامع لمقام الصبر ومقام المحبة، لا يتصور وجوده بدونهما.

و«**التوكل**» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا، لا يتصور وجودُه بدونها.

و«**الرجاءُ**» جامعٌ لمقام الخوف والإرادة.

و«**الخوف**» جامعٌ لمقام الرجاء والإرادة.

و«**الإنابةُ**» جامعةٌ لمقام المحبة والخشية، لا يكونُ العبدُ منيباً إلاّ باجتماعهما.

و«**الإخبات**» له جامعٌ لمقام المحبة والذل والخضوع، لا يكون أحدهما بدون الآخر إخباتاً.

و«**الزهدُ**» جامعٌ لمقام الرغبة والرهبة، لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهبُ مما يخاف ضررَه.

ومقامُ «**المحبة**» جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبةُ معنىً يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحقُّقها.

ومقامُ «**الخشية**» جامعٌ لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرفَ اللهَ وعرفَ حقَّه، اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته.

ومقام «**الهيبة**» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقامُ «**الشكر**» جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كانَ أرفعَها وأعلاها، وهو فوق «الرضا»، وهو يتضمنُ «الصبرَ» من غير عكس، ويتضمنُ «التوكلَ» و«الإنابة» و«الحبَّ» و«الإخبات» و«الخشوعَ» و«الخوف» و«الرجاءَ»، فجميعُ هذه المقامات مندرجةٌ فيه، لا يستحقُّ صاحبُه اسمَه على الإطلاق إلاّ باستجماع المقامات له.

ولهذا كان الإيمان نصفين: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر، والصبرُ داخلٌ في الشكر. فرجع الإيمانُ كله إلى الشكر، والشاكرون هم أقلُّ العباد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

ومقامُ «**الحياء**» جامعٌ لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقامُ «**الأنس**» جامعٌ لمقام الحب مع القرب، فلو كان المحبُّ بعيداً عن محبوبه لم يأنسْ به، ولو كان قريباً من رجل، ولم يحبه، لم يأنس به، حتى يجتمع له حبُّه مع القرب منه.

ومقامُ «**الصدق**» الجامع للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصحُّ له مقامُ الصدق.

ومقامُ «**المراقبة**» جامعٌ للمعرفة مع الخشية، فبحَسَبهما يَصِحّ له مقام المراقبة.

ومقام«**الطُّمأنينة**»جامعٌ للإنابة والتوكل، والتفويض والرضا والتسليم.

وكذلك «**الرغبة**» و«**الرهبةُ**» كل منهما ملتئمٌ من «الرجاء» و«الخوف».

والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكلٌّ مقام من هذه المقامات، فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون. فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه، وهكذا مراتبُ الإيمان جميعُها، وكلٌّ من النوعين لا يُحْصِي تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلاّ الله تعالى.

[تقسيمات أخرى]:

وتقسيمُهم ثلاثة أقسام: عام، وخاص، وخاص الخاص؛ إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق، وعلم القوم الذي شَمَّروا إليه، وسنذكر ما في ذلك إن شاء الله تعالى وأقسام الفناء، محموده ومذمومه، فاضله ومفضوله، فإن إشارة القوم إليه، ومدارهم عليه.

على أنَّ الترتيبَ الذي يشيرُ إليه مرتِّبٌ للمنازل لا يخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة، فإنَّ العبدَ إذا التزم عقدَ الإسلام، ودخلَ فيه كله، فقد التزمَ لوازمَه الظاهرةَ والباطنةَ، ومقاماته وأحواله، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلاّ بها، وكلما وفّى واجباً أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطعَ منزلةً استقبل أخرى، وقد يُعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد للسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور ـ من البصيرة، والتوبة، والمحاسبة ـ أعظم من حاجة صاحب البداية إليها؛ فليس في ذلك ترتيبٌ كلي لازم للسلوك.

[طريقة المتقدمين في ترتيب المنازل]:

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة

القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام، ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه. فكلامُ أئمة الطريق، هو على هذا المنهاج، لمن تأمله ـ كسهل بن عبد الله التُّسْتَري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد. . .

وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل: أبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله الذي كان يقال له: حكيم الأمة ـ وأضرابهم، فإنهم تكلَّموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مُفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجلّ من هذا، وهممهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليلٌ فيه البركة، وكلام المتأخرين كثيرٌ طويلٌ قليلُ البركة.

[طريقة المؤلف في ترتيب المنازل]:

فالأولى بنا أن نذكر منازلَ «العبودية» الواردة في القرآن والسنّة، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها، إذ [إن] معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩٧]، فبمعرفة حدودها درايةً، والقيام بها رعايةً، بها يستكملُ العبدُ الإيمانَ، ويكونُ من أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ونذكر لها ترتيباً غير مستَحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحِسِّي، ليكونَ ذلك أقربَ إلى تنزيل المعقول منزلةَ المشهود بالحس؛ فيكون التصديقُ أتمَّ، ومعرفتُه أكملَ، وضبطُه أسهل.

* * *

تمهيد (٢)
ما يكون قبل السير

اعلَمْ أنَّ العبدَ قبلَ وصول الداعي إليه في نوم الغفلـة، قلبُه نـائمٌ، وطَرْفه يقظان، فصاحَ به الناصحُ، وأسمعَه داعي النجاح، وأذن به مؤذِّنُ الرحمن: حَيَّ على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم.

[اليقظة]:

فأول منازل العبودية «اليقظة»، وهي انزعاجُ القلب لروعة الانتباه من رَقْدة الغافلين. ولله ما أنفعَ هذه الروعة! وما أعظمَ قدرَها وخطرها! وما أشدَّ إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحس ـ والله ـ بالفلاح، وإلاّ فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شَمَّر لله بِهِمّته إلى السفر إلى منازله الأولى. إذا نهض من ورطة الغفلة واستنار قلبه برؤية نور التنبيه، أوجبَ له ذلك ملاحظةَ نِعَم الله الباطنة والظاهرة، وكلما حَدّق قلبُه وطرفه فيها، شاهد عظمتَها وكثرتَها، فيئس من عدها، والوقوف على حدها، وفَرَّغ قلبه لمشاهدة مِنَّة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها، وهو القيام بشكرها.

فأوجبَ له شهودُ تلك المنة والتقصيرُ نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم، واللهج بذكره، وتذلله وخضوعه له، وإزرائه على نفسه، حيث عجز عن شكر نعمه.

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها،

وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه، فإذا طالع جنايتَه، شَمَّر لاستدراك الفارط، بالعلم والعمل، وتخلصَ مِنْ رِقِّ الجناية، بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهذا التمحيصُ يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإنْ محَّصته هذه الأربعة وخَلَّصته كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة.

وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصِه وتخليصِه، فلم تكن التوبةُ نصوحاً ـ وهي العامةُ الشاملةُ الصادقةُ ـ ولم يكن الاستغفارُ كاملاً تاماً ـ وهو المصحوبُ بمفارقة الذنب، والندم عليه ـ وهذا هو الاستغفار النافع، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب، مُحِّصَ في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها ـ صلاة أهل الإيمان الجنازةَ عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني ـ تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتّان، والعَصْرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث ـ ما يُهدي إخوانُه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمعَ الناسُ على وصول الصدقة والدعاء.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثة بالتمحيص؛ مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله عزَّ وجلّ.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثةُ بتمحيصه فلا بد له من دخول الكِيْر، رحمةً في حقه ليتخلص ويتمحص، فتكون النار طهرةً له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، فإذا خرج خبثه أُخرج من النار، وأُدخل الجنة.

[الفكرة]:

فإذا استيقظ، أوجبت له اليقظة: «الفكرة»: وهي تحديق القلب نحو المطلوب، الذي قد استعدَّ له مجملاً، ولمّا يهتدِ إلى تفصيله، وطريق الوصول إليه.

والفكرةُ فكرتان: فكرةٌ تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرةٌ تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلَّقُ بالعلم والمعرفة فكرةُ التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي.

والتي تتعلق بالطلب والإرادة هي الفكرةُ التي تميز بين النافع والضار، فهذه ستةُ أقسام لا سابعَ لها، هي مجالُ أفكار العقلاء.

[البصيرة]:

فإذا صحَّت فكرتُه أوجبت له «البصيرة» فهي نورٌ في القلب يُبصرُ به الـوعدَ والوعيدَ، والجنّةَ والنّار، وما أعد اللهُ في هذه لأوليائـه، وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناسَ وهم قد خرجوا من قبورهم مُهْطِعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله، وقد نُصِب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره، ووُضِع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نُصب الميزان، وتطايرت الصُّحف. واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العِطاش وقل الواردُ. ونُصِب الجسر للعبور، ولُزّ الناس إليه، والنارُ يَحْطِم بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعاف الناجحين.

فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك. ويقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة يريه الآخرةَ ودوامَها، والدنيا وسرعة انقضائها.

و«البصيرة» على ثلاث درجات، من استكملها فقد استكملَ البصيرة،

بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

● فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصفَ الله به نفسه، ووصفه به رسوله، بل تكون الشُّبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر.

وتفاوتُ الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

● والبصيرةُ في الأمر والنهي: وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوىً. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارضُ العلمَ بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

● والبصيرة في الوعد والوعيد: أن تشهد قيامَ الله تعالى على كل نفس بما كَسَبَتْ في الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلـٰهيته وربوبيته، وعدله وحكمته، فإنَّ الشكَّ في ذلك شكٌّ في إلـٰهيته وربوبيته، بل شكٌّ في وجوده؛ فإنه يستحيلُ عليه خلافُ ذلك، ولا يليقُ أنْ يُنسب إليه تعطيلُ الخليقة، وإرسالها هملاً، وتركها سدىً، تعالى الله عن هذا الحُسْبان علواً كبيراً.

فشهادةُ العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية؛ ولهذا كان الصحيح أنَّ المعادَ معلومٌ بالعقل، وإنما اهتُدِي إلى تفاصيله بالوحي.

* * *

وبالبصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تُنال بكسب ولا دراسة، إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرته.

وبالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرِّق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقال ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[١].

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة، وهي نوعان:

- فراسة علوية شريفة: مختصة بأهل الإيمان.

- وفراسة سُفلية دنيئة: مشتركة بين المؤمن والكافر، وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل، فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالاً للنفس، ولا زكاة، ولا إيماناً، ولا معرفة.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره، فهي حائمة حول كشف طريق الرسول ﷺ وتعرُّفها، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين.

فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

[العزم]:

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمع القصدَ والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعلمَ وتيقن أنَّه لا بد له منه، فأخذ في أهبة السفر وتعبئة الزاد ليوم المعاد، والتجرد عن عوائق السفر، وقطعَ العلائق التي تمنعه من الخروج.

فإذا استحكم قصده صار «عزماً» جازماً، مستلزماً للشروع في السفر،

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

مقروناً بالتوكل على الله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و«العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود.

والتحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل، ظُنَّ أنه هو. وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و«العزم» نوعان:

أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: عزم في حال السير معه. وهو أخص من هذا، وهو من المقامات، وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لهُ مما عليه، ليستصحبَ ما له ويؤدي ما عليه، وهو «المحاسبة»، وهي قبل «التوبة» في الرتبة، فإنه إذا عرف ما له وما عليه، أخذ في أداء ما عليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

[المحاسبة وبدء السفر]:

ذكرنا من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: «اليقظة» و«الفكرة» و«البصيرة» و«العزم».

وهذه المنازلُ الأربعةُ لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله تعالى. ولا يُتصور السفر إليه بدون نزولها البتة، وهي على ترتيب السير الحسي، فإن المقيمَ في وطنه، لا يتأتّى منه السفرُ، حتى يستيقظَ من غفلته عن السفر، ثم يتبصّر في أمر سفره وخَطَره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه. فإذا عزمَ عليه، وأجمعَ قصدَه انتقلَ إلى منزلة «المحاسبة» وهي

«التمييز» بين ما لَهُ وعليه؛ فيستصحبُ ما لَهُ، ويؤدي ما عليه، لأنه مسافرٌ سَفَرَ من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصحُّ له نزولُ منزلة «التوبة» لأنَّهُ إذا حاسبَ نفسه، عرفَ ما عليه من الحق، فخرجَ منه، وتنصَّلَ منه إلى صاحبه. وهي حقيقةُ «التوبة»، فكان تقديمُ «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً، وهو أنَّ «المحاسبة» عليها لا تكونُ إلاّ بعدَ تصحيح التوبة.

والتحقيقُ: أنَّ التوبةَ بين محاسبتين: محاسبةٌ قبلَها، تقتضي وجوبَها، ومحاسبةٌ بعدَها، تقتضي حفظها، فالتوبةُ محفوفةٌ بمحاسبتين، وقد دلَّ على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلحُ ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصودُ من هذا النظر ما يوجبُه ويقتضيه: مِنْ كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذابِ الله، ويُبيِّضُ وجهَه عند الله.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبوا أنفسَكم قبلَ أن تُحاسَبوا، وزِنوا أَنفسَكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»[١].

ومن المحاسبة: أن تقايس بين الحسنات والسيئات، فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة.

فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نوَّر الله به

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

قلوب أتباع الرسل، فبقدره ترى التفاوت وتتمكن من المحاسبة.

قال بعضُ العارفين: متى رضيتَ نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راضٍ به، ومن عرفَ أنَّ نفسه مأوى كل عيب وشر، وعملَه عُرضةٌ لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟.

ولله درُّ الشيخ أبي يزيد حيث يقول: من تحقق بالعبودية، نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضُّله.

* * *

إذا صحَّ مقام «المحاسبة» ونزل العبد في هذه المنزلة أشرف منها على مقام «التوبة».

* * *

(١)
منزلة التوبة

[التوبة أول المنازل وآخرها]:

ومنزلُ «التوبة» أولُ المنازل، وأوسطها، وآخرُها، فلا يفارقُه العبدُ السالك، ولا يزالُ فيه إلى الممات، وإن ارتحلَ إلى منزل آخر، ارتحلَ به، واستصحبَه معه، ونزلَ به. فالتوبة هي بدايةُ العبد ونهايتُه، وحاجتُه إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجتهُ إليها في البداية كذلك.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطبَ اللهُ بها أهلَ الإيمان وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه، بعدَ إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّقَ الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المسبَّب بسببه، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تُبْتُمْ، كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلاّ التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، قسَّمَ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البتة، وأوقعَ اسمَ «الظالم» على من لم يَتُبْ، ولا أظلمَ منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: (يا أَيُّها النَّاسُ، تُوبُوا إلى الله، فو اللهِ إنِّي لأَتُوبُ إليهِ في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبعين مَرَّة)[١].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

[التوبة وسورة الفاتحة]:

ولما كانت «التوبةُ» هي رجوعَ العبد إلى الله ومفارقتَه لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصلُ إلاّ بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايتُه إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورةُ الفاتحة أحسنَ انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحةَ حقَّها ـ علماً وشهوداً وحالاً ومعرفة ـ علمَ أنه لا تصحُّ له قراءتها على العبودية إلاّ بالتوبة النَّصوح، فإنَّ الهدايةَ التامة إلى الصراط المستقيم، لا تكونُ مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإنَّ الأولَ جهلٌ ينافي معرفةَ الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصدَه وإرادتَه، فلذلك لا تصحُّ التوبةُ إلاّ بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

[شروط التوبة]:

والمؤمنُ لا تتمُ له لذةٌ بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلاّ والحزن مخالط لقلبه، ولكن سُكرَ الشهوة يَحجبُه عن الشعور به، ومتى خَلا قلبُه من هذا الحزن، واشتدت غِبطتُه وسرورُه، فَلْيَتَّهِمْ إيمانَه، ولَيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنَه ارتكابُه للذنب، وغاظه وصعبَ عليه، ولا يحسُّ القلب بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به؛ فما لجُرح بميتٍ إيلامُ.

وهذه النكتةُ في الذنب قَلَّ مَنْ يهتدي إليها أو ينتبه لها، وهو موضعٌ مخوفٌ جداً، مترامٍ إلى هلاك إن لم يُتدارَكْ بثلاثة أشياء: خوفٌ من الموافاة عليه قبل التوبة، وندمٌ على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه.

فحقيقةُ التوبة هي:

ـ الندمُ على ما سلفَ منه في الماضي.

ـ والإقلاعُ عنه في الحال.

ـ والعزمُ على أن لا يعاودَه في المستقبل .

والثلاثةُ تجتمعُ في الوقت الذي تقعُ فيه التوبةُ ، فإنه في ذلك الوقت يندمُ ، ويقلعُ ، ويعزمُ ؛ فحينئذ يرجعُ إلى العبودية التي خُلق لها ، وهذا الرجوعُ هو حقيقةُ التوبة ، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأمّا الندمُ فإنه لا تتحققُ التوبةُ إلاّ به ، إذ مَنْ لم يندم على القبيح ، فذلك دليلٌ على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفي «المسند» : (النَّدمُ تَوْبَةٌ)[1] .

وأمّا الإقلاعُ فتستحيلُ التوبةُ مع مباشرة الذنب .

والإصرار على المعصية معصيةٌ أخرى ، والقعودُ عن تدارك الفَارطِ من المعصية إصرارٌ ورضا بها ، وطمأنينةٌ إليها ، وذلك علامة الهلاك .

وأشدُّ من هذا كلِّه المجاهرةُ بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة ، فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه ، فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية . فهو دائر بين الأمرين : بين قِلّةِ الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين .

فلذلك يشترط في صحة التوبة : تيقنه أن الله كانَ ناظراً ـ ولا يزال ـ إليه مطلعاً عليه ، يراهُ جَهْرةً عند مواقعة الذنب ، لأن التوبةَ لا تصحُّ إلاَّ من مسلم ، إلاّ أن يكونَ كافراً بنظر الله إليه جاحداً له ، فتوبتُه دخولُه في الإسلام ، وإقرارُه بصفات الرب جل جلاله .

[علامات التوبة المقبولة]:

والتوبة المقبولةُ الصحيحةُ لها علامات :

منها : أن يكونَ بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

ومنها: أنه لا يزالُ الخوفُ مصاحباً له لا يأمنُ مكرَ الله طرفةَ عين. فخوفُه مستمرٌّ إلى أن يسمعَ قولَ الرسل لقبض روحه: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزولُ الخوفُ.

ومنها: انخلاعُ قلبه وتَقَطُّعُه ندماً وخوفاً، وهذا على قَدَرِ عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويلُ ابنِ عيينةَ لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريبَ أن الخوفَ الشديدَ من العقوبة العظيمة يوجبُ انصداعَ القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقةُ التوبة، لأنه يتقطعُ قلبُه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرطَ حسرةً وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعاينَ ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلا بد من تَقَطُّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلب لا يشبهُها شيءٌ. ولا تكونُ لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ ولا رياضةٍ، ولا حبٍّ مجرَّدٍ، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كله، تكسرُ القلبَ بينَ يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخِذَ فأُحضرَ بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجدْ منه بدّاً ولا عنه غنىً، ولا منه مهرباً، وعلمَ أنَّ حياتَه وسعادتَه وفلاحَهُ ونجاحَه في رضاه عنه، وقد علمَ إحاطةَ سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمعُ من هذه الأحوال كسرةٌ وذلةٌ وخضوعٌ ما أنفعَها للعبد، وما أجزل عائدها عليه! وما أعظمَ جَبْره بها، وما أقربَه بها من سيده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذللِ، والإخباتِ، والانطراحِ بين يديه، والاستسلام له.

فلله ما أحلى قولـه في هذه الحال: أسـألك بعزك وذلي لـك إلاّ رَحِمْتَنِي، أسألكَ بقوتِكَ وضعفي، وبغناكَ عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئةُ بين يديك، عبيدكَ سواي كثيرٌ، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأ ولا مَنجى منك إلاّ إليك. أسألُكَ مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوكَ دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ من خضعت لك رقبته، ورَغِمَ لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه.

فهذا وأمثالُه من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فلْيتَّهم توبتَه ولْيرجعْ إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلهَا باللسان والدعوى! وما عالجَ الصادقُ بشيء أشقّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، فلا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله.

[التحذير من عزِّ الطاعة]:

والمقصود من التوبة تقوى الله، وهو خوفه وخشيتُه، والقيامُ بأمره، واجتنابُ نهيه، فيعملُ بطاعةِ الله على نورٍ من الله، يرجو ثوابَ الله، ويتركُ معصيةَ الله على نورٍ من الله تعالى، يخافُ عقابَ الله، لا يريدُ بذلكَ عِزَّ الطاعةِ. فإن للطاعةِ وللتوبةِ عزاً ظاهراً وباطناً، فلا يكونُ مقصودُهُ العزةَ، وإنْ علمَ أنها تحصُلُ لـه بالطاعةِ والتوبـةِ. فمن تابَ لأجلِ العـزةِ فتوبتُه مدخولةٌ.

وفي بعضِ الآثارِ: «أوْحى الله تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قُلْ لِفلان الزاهد: أمَّا زُهْدُكَ في الدنيا فقد تَعَجَّلت به الراحة، وأمّا انْقِطَاعُكَ إليّ فقد اكْتَسَبْتَ بهِ العزَّة، ولكنْ ما عَمِلْتَ فيما لي عليك؟ قال: يا رب، وما لك عليّ بعد هذا؟ قال: هَلْ وَاليْتَ فيّ ولياً، أَوْ عَادَيْتَ فيَّ عَدُوّاً».

يعني: أنَّ الراحةَ والعزَّ حظُّكَ، وقد نلتَهما بالزهدِ والعبادةِ، ولكن أين القيامُ بحقي، وهو الموالاةُ فيّ والمعاداةُ فيّ؟ فالشأنُ في التفريقِ في الأوامرِ بينَ حظِّكَ وحقِّ ربِّكَ علماً وحالاً.

وكثيرٌ من الصادقين قد يلتبسُ عليهم حالُ نفوسهم في ذلك، ولا يميزه إلاّ أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات، في كبائرَ مثلها أو أعظم منها أو دونَها، ولا يخطرُ بقلوبهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم اقتضاءً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابعُ ذلك ما هو أبغضُ إلى الله تعالى، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك، فإن تداركَ اللهُ أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعُه فيها، ليكسرَ بها نفسَه، ويُعرّفه بها قدرَه، ويُذلّه بها، ويخرجَ بها صَوْلَةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمةٌ في حقه، كما أنه إذا تداركَ أصحابَ الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقهم، وإلاّ فكلاهما على خطر.

[حكمة التخلية بين العبد والذنب]:

اعلم أنَّ صاحبَ البصيرة إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فله نظرٌ إلى أمور:

أحدها ـ أن ينظرَ إلى الوعد والوعيدِ، فيحدث له ذلك خوفاً وخشية، تحملُه على التوبة.

الثاني ـ أن ينظرَ إلى أمرِ اللهِ تعالى له ونهيهِ، فيحدث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثالث ـ أن ينظرَ إلى تمكينِ اللهِ له منها، وتَخْلِيته بينَه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاءَ لعصمَه منها، وحال بينها وبينه، فيُحدث له ذلكَ أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمتِه، ورحمتِه، ومغفرتِه وعفوِه، وحلمِه وكرمِه. وتوجبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصلُ بدون لوازمها البتة، ويعلمُ ارتباطَ الخلقِ والأمر، والجزاءِ والوعدِ

والوعيدِ بأسمائِه وصفاتِه، وأن ذلك موجبُ الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأنَّ كلَّ اسمٍ وصفةٍ مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلقٌ به لا بدَّ منه.

وهذا المشهدُ يُطْلِعُـه على ريـاض مُونقـة من المعارفِ والإيمانِ، وأسرارِ القدرِ والحكمةِ، يضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكلِم:

● **فمن بعضها**: أَنْ يعرفَ العبدُ عزتَه ـ سبحانه ـ في قضائه، وهو أنّـه سـبحانه العزيزُ الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمالِ عزتِه حكمَ على العبـد وقضَى عليه.

فإذا عرفَ العبدُ عِزَّ سيده ولاحَظَهُ بقلبه، وتمكَّن شهوده منه، كـان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له، لأنه يصيرُ مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفـةِ عزتهِ في قضائه أن يعرفَ أنه مدبَّرٌ مقهورٌ، نـاصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلاّ بعصمتِه، ولا توفيقَ له إلاّ بمعونتِه، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضةِ عزيزٍ حميد.

● **ومنها**: أن يعرفَ بِرَّه سبحانه في سَتره عليه حالَ ارتكابِ المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضَحَه بين خلقه فحَذِروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه «البَرُّ»، وهذا البرُّ من سيده به مع كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغلُ بمطالعةِ هذه المنة، ومشـاهدةِ هذا البـرِّ والإحسـان والكرمِ، فيذهلُ عن ذُلِّ الخطيئةِ، فيبقى مع الله سبحانه، وذلك أنفعُ له من الاشتغال بجنايته، وشهودِ ذلِّ معصيتِه.

● **ومنها**: شهودُ حِلم الله سبحانه وتعالى في إمهال مرتكب الخطيئة، ولو شاءَ لعاجَله بالعقوبة، ولكنّه الحليمُ الذي لا يَعْجَلُ، فيُحدِثُ له ذلك معرفةَ ربِّه سبحانه باسمه «الحليم»، ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبُّد بهذا الاسم.

● **ومنها**: أن يشهدَ فضلـهُ في مغفرته، فإنَّ المغفرةَ فضلٌ من الله

تعالى، وإلاَّ فلو أخذَكَ بمحض حقِّه كان عادلاً محموداً، وإنما عفوُه بفضلِه لا باستحقاقِك.

● **ومنها**: أن يُكَمِّلَ لعبده مراتبَ الذلِّ والخضوعِ والانكسارِ بين يديه، والافتقارِ إليه، فإنَّ النفسَ فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرتْ لقالت كقولِ فرعونَ، ولكنه قدَرَ فأظهرَ، وغَيْرُه عجزَ فأضمرَ، وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاةِ ذلُّ العبودية، وهو أربعُ مراتب:

المرتبةُ الأولى - مشتركةٌ بينَ الخلق، وهي ذلُّ الحاجةِ والفقرِ إلى الله تعالى، فأهلُ السمواتِ والأرض جميعاً محتاجون إليه، فقراءُ إليه، وهو وحدَه الغنيُّ عنهم، وكلُّ أهلِ السمواتِ والأرضِ يسألونَه، وهو لا يسألُ أحداً.

المرتبةُ الثانيةُ - ذلُّ الطاعةِ والعبوديةِ، وهو ذلُّ الاختيارِ، وهذا خاصٌّ بأهلِ طاعتِه. وهو سرُّ العبودية.

المرتبةُ الثالثةُ - ذلُّ المحبةِ، فإنَّ المحبَّ ذليلٌ بالذات، وعلى قدْرِ محبتِه له يكون ذلّه له، فالمحبةُ أُسِّسَت على الذلةِ للمحبوب.

المرتبةُ الرابعة - ذلُّ المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتبُ الأربعُ كانَ الذلُّ لله والخضوعُ له أكملَ وأتمَّ، إذ يذل له خوفاً وخشيةً، ومحبةً وإنابةً وطاعةً، وفقراً وفاقة.

● **ومنها**: أنَّ أسماءَه الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها؛ فاسمُ «السميع، البصير» يقتضي مسموعاً ومبصراً، واسمُ «الرازق» يقتضي مرزوقاً، واسمُ «الرحيم» يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماءُ «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفرُ له ويتوبُ عليه ويعفو عنه ويحلم. ويستحيلُ تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله

وسلامه عليه، حيث يقول: (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، ولَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[1].

● ومنها: السرُّ الأعظمُ، الذي لا تقتحمُه العبارةُ، ولا تجسرُ عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شَهِدته قلوبُ خَواصّ العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبةً له، وطمأنينةً به وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره، وشهوداً لبرِّه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعةً لسرِّ العبودية، وإشراقاً على حقيقة الإلـٰهية، وهو ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (للهُ أفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ ـ حينَ يَتُوبُ إليه ـ مِنْ أَحدِكُمْ، كانَ على راحِلَةٍ بأَرْضٍ فَلاةٍ فانْفَلَتتْ مِنْهُ، وعَلَيْها طَعامُهُ وشَرابُه فأَيِسَ مِنْها، فأتى شجَرَةً فاضْطجَعَ في ظِلِّها، قَدْ أَيِسَ مِنْ راحِلَتِهِ، فَبَيْنما هُوَ كَذَلِكَ إذا هُوَ بهَا قائمةً عِنْدَه، فأخَذَ بخِطامِهَا، ثُمَّ قال ـ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ـ: اللهُمَّ أنْتَ عَبْدي وأنا ربُّكَ، أخطأَ مِنْ شِدَّة الفَرَحِ). هذا لفظُ مسلم[2].

[التحذير من إغواء الشيطان]:

إن الآمر للإنسان بالمعصية، المزَيِّن له فعلَها، الحاضّ له عليها، هو شيطانُهُ الموكَّلُ به.

فيفيدُه النظرُ إليه وملاحظتُه اتخاذَه عدواً، وكمالَ الاحتراز منه، والتحفظَ واليقظةَ، والانتباه لما يريدُ منه عدوُّه وهو لا يشعرُ، فإنه يريدُ أن يظفرَ به في عَقَبة من سبع عقبات بعضها أصعبُ من بعض، لا ينزلُ منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلاّ إذا عجزَ عن الظفر به فيها:

العقبةُ الأولى: عقَبةُ الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله وبما

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٩)؛ ومسلم (٢٧٤٧).

أخبرتْ به رسلُه عنه، فإنه إنْ ظفرَ بـه في هذه العقبـةِ، بردَتْ نـارُ عداوتـه واستراحَ معه، فإن اقتحمَ هذه العقبةَ، ونجا منها ببصيرة الهداية وسلمَ معه نورُ الإيمان طلبَه على:

العقبة الثانية: وهي عقبةُ البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، وإمّا بالتعبد بما لم يأذن بـه الله من الأوضـاع والرسوم المحدَثة في الدين التي لا يقبلُ اللهُ منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفكَّ إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تَـزَوجتْ بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلاّ وأولادُ الزنـا يعيثون في بلاد الإسـلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

فإن قطعَ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السنة، واعتصمَ منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلفُ الأخيارُ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهاتَ أن تسمحَ الأعصارُ المتأخرةُ بواحد من هذا الضرب! فإن سَمَحَتْ به نصَبَ له أهلُ البدع الحبائل، وبَغَوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة، طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبةُ الكبائر ـ فإن ظفرَ به فيها زيَّنها له وحَسَّنها في عينه، وسوَّفَ به وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمانُ هو نفسُ التصديق، فلا تقدحُ فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلكَ بها الخلقَ، وهي قوله: (لا يضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة).

والظفرُ به في عقبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث اللهُ به رسولَه، وصاحبُها لا يتوبُ منها ولا يرجعُ عنها، بل يدعو الخلقَ إليها، ولتضمنها القولَ على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة.

فإنَّ البِدعَ تستدرجُ بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخَ صاحبُها من

الدين كما تنسلُّ الشعرةُ من العجين، فمفاسدُ البدع لا يقفُ عليها إلاّ أربابُ البصائر، والعميانُ ضالّون في ظلمة العمى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإنْ قطعَ هذه العقبةَ بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكالَ له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائرَ ما غشيتَ من اللَّمَم، أوَ ما علمت بأنها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزالُ يُهوّنُ عليه أمرَها، حتى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكبُ الكبيرة الخائفُ الوجلُ النادمُ أحسنَ حالاً منه.

فإن الإصرارَ على الذنب أقبحُ منه، ولا كبيرةَ مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقد قال ﷺ: (إيَّاكُمْ ومُحقِّراتِ الذُّنوبِ ـ ثم ضرب لذلك مثلاً بقومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأَرْضِ، فأَعْوَزهمُ الحَطَب، فجعلَ هذا يَجيءُ بِعُودٍ وهذا بعود، حتَّى جَمَعُوا حَطَباً كثيراً، فأوْقَدُوا ناراً، وأَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ. فكذلك فإن محقراتِ الذنوب تجتمع على العبد، وهو يستهينُ بشأنِها حتى تُهلِكَه)[1].

فإن نَجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأَتْبع السيئةَ الحسنةَ، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبةُ المباحات التي لا حرجَ على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجَه منها إلى ترك السنن، ثم من تركِ السنن إلى تركِ الواجبات، وأقلُّ ما ينال منه: تفويتُه الأرباحَ، والمكاسبَ العظيمة، والمنازلَ العالية، ولو عرفَ السعرَ لما فوّتَ على نفسه شيئاً من القربات ولكنه جاهلٌ بالسعر.

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ٣٣١.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، فبخلَ بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهبَ في غير ربح، طلبَه العدوُّ على:

العقبة السادسة: وهي عقبـةُ الأعمال المرجوحـة المفضولـة من الطاعات، فأَمَرَهُ بها، وحسَّنَها في عينه، وزينَها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضلُ منها وأعظمُ كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصلَ الثواب طمعَ تخسيره كمالَه وفضلَه، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحابُ هذه العقبة؟ فهم الأفرادُ في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأُولى.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله تعالى، ومنازلها في الفضل، ومعرفـة مقاديرها، والتمييز بيـن عاليها وسـافلها، ومفضـولها وفاضلها، ورئيسـها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإنَّ في الأعمـال والأقوال سـيداً ومسـوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: (سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللّهُمَّ أنْتَ رَبي، لا إلهَ إلاّ أنتَ...) الحديث[1].

العقبة السابعة: فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبُهُ العدوُّ عليها سوى واحدة لا بد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليـه بأنـواع الأذى باليد واللسـان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبتُهُ أجلبَ عليه العدوُّ بخيله ورَجِلِه، وظاهرَ عليه بجنده.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

وهذه العقبةُ لا حيلةَ له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمرهِ، جد العدوّ في إغراء السفهاء به.

* * *

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهن بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

[هل للخاصة توبة خاصة بهم؟][1]:

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ: «ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق، ثم رُؤية علَّة التوبة، ثم التُّوبة من رُؤْية تلك العِلَّة»[2].

التوبة مما دون الله: أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته، فيكون كله له وَبِهِ. وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالاً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً وانكساراً بين يديه، وافتقاراً إليه.

فإذا صح له ذلك بَقِيت عليه عندهم بقية أخرى: هي علة في توبته، وهي شعوره بها ورؤيته لها وعدم فنائه عنها، وذلك بالنسبة إلى مقامه حالة ذنبه، فيتوب من هذه الرؤية.

فها هنا ثلاثة أمور:

ـ توبته مما سوى الله.

ـ ورؤيته هذه التوبة وهي علتها.

---

(١) يقسم صاحب المنازل كل منزلة إلى ثلاث درجات: منزلة العامة، ومنزلة الخاصة، ومنزلة خاصة الخاصة التي توصل إلى منزلة (الفناء). وقد ذكرت هذه الفقرة في المنزلة الأولى كأنموذج لابن القيم في نقد هذا المسلك، تقاس عليه بقية المنازل.

(٢) هذا بيان لتوبة خاصة الخاصة بعد أن ذكر توبة العامة وتوبة الأوساط.

ـ وتوبته من رؤية تلك الرؤية .

وهذا عند القوم الغاية التي لا شيء بعدها، والنهاية التي لا تكون إلا لخاصة الخاصة، ولعمر الله إن رؤية العبد فعله، واحتجابه به عن ربه، ومشاهدته له علة في طريقه موجبة للتوبة .

وأما رؤيته له واقعاً بمنَّة الله وفضله وحوله وقوته وإعانته فهذا أكمل من غيبته عنه، وهو أكمل من المقام الذي يشيرون إليه، وأتم عبودية، وأَدْعَى للمحبة وشهود المِنَّة والفضل إذ يستحيل شهود المِنَّة على شيء لا شعور للشاهد به البتة .

والذي ساقهم إلى ذلك سلوك وادي الفناء في الشهود، فلا يشهَدُ مع الحق سبباً ولا وسيلة ولا رسماً البتة . ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام، وأن السالك ينتهي إليه ويجد له حلاوة ووجداً ولذة لا يجدها لغيره البتة، وإنما يطالب أربابه والمشمِّرون إليه بأمر وراءه، وهو أن هذا هو الكمال، وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها، ورأى تفاصيلها مشاهداً لها، صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته، فشهد عبوديته مع شهود معبوده، ولم يغب في شهود العبودية عن المعبود، ولا بشهود المعبود عن العبودية فكِلاهُما ناقص، والكَمال أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته، فيجتمع لك الشهودان، فإن غِبتَ بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة، وهل في الغيبة عن العبودية إلا هضم لها؟ .

والواجب أن يقع التحاكم في ذلك إلى الله ورسوله، وإلى حقائق الإيمان دون الذوق، فإننا لا ننكر ذوق هذه الحال وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها، فأين الإشارة في القرآن أو في السنة؟ أو في كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلى هذا الفناء وأنه هو الكمال، وأن رؤية العبد لفعله بالله وحوله وفضله وشهوده، كذلك علة توجب التوبة منها؟ وهذا القدر مما يصعب إنكاره على القوم جداً، ويرمون منكره بأنه محجوب من أهل الفَرْق،

وأنه لم يصل إلى هذا المقام، ولو وصل إليه لما أنكره، وليس في شيء من ذلك حجَّة لتصحيح قولهم، ولا جواب المطالبة، فقد سألكم هذا المحجوب عن مسألة شرعية، وما ذكرتموه ليس بجواب لها.

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال، ومقام أرفع منه، وليس في مجرد الفناء والاستغراق في شهود القيومية، وإسقاط الأسباب والعلل والحكَم والوسائط كثير علم ولا معرفة ولا عبودية، وهل المعرفة كل المعرفة والعبودية إلا شهود الأشياء على ما هي عليه؟ والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكير في الآيات، والنظر في أحوال المخلوقات، ونظر الإنسان في نفسه وتفاصيل أحواله، وأخص من ذلك نظره فيما قدمه لغده ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية، وتذكُّر ذلك والتفكير فيه، وحمد الله وشكره عليه، وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية وشهود الشهود.

ثم إن هذا غير ممكن البتة، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها، فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضاً علة توجب عليه توبته وهلم جرّاً، فلا ينتهي الأمر إلا بسُقوط التمييز جملة، والسُّكْر والطَّمْس المنافي للعبودية فضلاً عن أن يكون غاية للعبودية.

فتأمل الآن تفاصيل عبودية الصلاة كيف لا تتم إلا بشهود فِعلك الذي متى غبت عنه كان ذلك نقصاً في العبودية. فإذا قال المصلي: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] فعبودية هذا القول: أن يشهد وجهه وهو قصده وإرادته، وأن يشهد حنيفته وهي إقباله على الله. ثم إذا قال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فعبودية هذا القول أيضاً: أن يشهد الصلاة والنُّسك المضافين لله سبحانه، ولو غاب عنهما كان قد أضاف إلى الله بلسانه ما هو غائب عن استحضاره بقلبه، فكيف يكون هذا أكمل وأعلى من حال من استحضر فعله وعبوديته، وأضافهما إلى الله تعالى، وشهد مع ذلك كونهما

به؟ فأين هذا من حال المستغرق الفاني المُصْطَلِم الذي قد غاب بمعبوده عن حقه وعبادته وقد أُخذ منه وغيب عنه؟ .

نعم غاية هذا أن يكون معذوراً، أما أن يكون مقامه أعلى مقام وأجله فكلاّ، وكذلك إذا قال في قراءته: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فعبودية هذا القول: فهم معنى العبادة والاستعانة، واستحضارهما، وتخصيصهما بالله، ونفيهما عن غيره، فهذا أكمل من قول ذلك بمجرد اللسان.

وكذلك إذا قال في ركوعه: «اللهمَّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومُخِّي وعظمي، وما استقلَّت به قَدَمي»(١)، فكيف يؤدي عبودية هذه الكلمات غائبٌ عن فعله مستغرقٌ في فنائه؟ وهل يبقى غير أصوات جارية على لسانه؟ ولولا العذر لم تكن هذه عبودية.

نعم، رؤية هذه الأفعال والوقوف عندها والاحتجاب بها عن المنعم بها الموفق لها والمانِّ بها من أعظم العلل والقواطع، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالعارف غائب بمنة الله عليه في طاعته مع شهودها ورؤيتها، والجاهل غائب بها عن رؤية منة الله، والفاني غائب باستغراقه في الفناء وشهود القيومية عن شهودها وهو ناقص، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

[من أحكام التوبة]:

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة تشتد الحاجة إليها ولا يليق بالعبد جهلها:

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) دون الجملة الأخيرة.

١ ـ منها: المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها.

فمتى أخَّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقَلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبقَ عليه شيءٌ آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة.

ولا ينجي من هذا إلا توبة عامَّة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد. وفي «صحيح ابن حبان»: أنَّ النبي ﷺ قال: (الشِّرك في هذه الأُمَّة أخفى من دبيب النمل، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فكيف الخلاص منه يارسول الله؟ قال: أن تقول: اللهمَّ إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أَعْلَم، وأستغفرك لما لا أَعْلَم)[1].

فهذا طلب الاستغفار مما يعلم الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد.

٢ ـ وهل تصح التوبة من ذَنْب مع الإصرار على غيره؟.

فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد رضي الله عنه.

وسر المسألة: أن التوبة: هل تتبعَّض كالمعصية، فيكون تائباً من وجه دون وجه وكالإيمان والإسلام؟. والراجِح: تبعُّضها، فإنها كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصرَّ على آخر، لأن التوبة فرض من الذنبين، فقد أدى أحدَ الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك موجباً لبطلان ما فعل كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦).

والذي عندي في هذه المسألة أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه فتصحّ، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلاً، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفَضْل، وأصر على ربا النسيئة أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته.

٣ ـ **ومن أحكام «التوبة»** أنه: هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً، أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض الناس عدم معاودة الذنب، وقال: متى عاد إليه تبيَّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

٤ ـ **ومن أحكامها**: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية وعجز عنها، بحيث يتعذَّرُ وقوعُها منه؛ هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قُطعت يده، ومن وصل إلى حَدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

ففي هذا قولان للناس:

فقالت طائفة: لا تصح توبته، لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنهُ الفعل والترك، فالتوبة من الممكن لا من المستحيل، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران إلى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

والقول الثاني ـ وهو الصواب ـ: أن توبته صحيحة ممكنة بل واقعة، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه، والمقدور له منها الندم. وفي «المسند» مرفوعاً: (النَّدم توبة)[1]، فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه فهذه توبته، وكيف يصحّ أن تسلب التوبة عنه مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟! ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه، وحزنه، وخوفه، وعزمه الجازم ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إذا صحت نيته.

كقوله في الحديث الصحيح: (إذا مَرِض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً)[2].

وفي «الصحيح» أيضاً عنه: (إنَّ بالمدينة أقواماً ما سِرْتم مسيراً، ولا قَطَعْتُم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة؛ حَبَسهم العُذْر)[3]. وله نظائر في الحديث.

فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً ـ مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه ـ منزلة التارك المختار أولى.

٥ ـ ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ كَانَ لأَخِيه عنده مظلمةٌ من مَالٍ أو عِرْض، فليتحلَّله اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا دِرهم إلا الحسنات والسيئات)[4].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢).
(٢) رواه البخاري (٢٩٩٦).
(٣) رواه مسلم (١٩١١).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٩).

وإن كانت المظلمة بقدحه فيه بغيبة أو قذف، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه، أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله تعالى من غير إعلام مَنْ قذفه وإعتابه؟ على ثلاثة أقوال.

والمعروف في مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك: اشتراط الإعلام والتحلُّل، هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

والقول الآخر: إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عِرْضه وقَذْفه واغتيابِهِ، بل يكفي توبته بينه وبين الله تعالى، ويذكر المغتاب والمقذوفَ في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدِّل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقذفَه بذكر عِفَّته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه. وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتجَّ أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذًى وحَنقاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثه ضرراً في نفسه أوبدنه.

٦ ـ **ومن أحكام التوبة**: أن من تَعذَّر عليه أداء الحق الذي فَرَّط فيه ولم يمكنه تداركه ثم تاب، فكيف حكم توبته؟ وهذا يتصور في حق الله سبحانه وحقوق عباده.

فأما في حق الله: فكمن ترك الصلاة عَمْداً من غير عذر مع علمه بوجوبها وفرضها ثم تابَ وندم، فاختلف السلف في هذه المسألة.

فقالت طائفة: توبته بالندم، والاشتغال بأَداء الفرائض المستأنفة، وقضاء الفرائض المتروكة، وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم.

وقالت طائفة: توبته باستئناف العمل في المستقبل، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء ولا يُقبل منه فلا يَجب عليه، وهذا قول أهل الظاهر، وهو مروي عن جماعة من السلف.

وحجة المُوجبين للقضاء قول النبي ﷺ: (مَنْ نامَ عن صَلاةٍ أو نَسِيَها فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها)[1].

قالوا: فإذا وجب القضاء على النائم والناسي مع عدم تفريطهما، فوجوبه على العامِد والمفرِّط أوْلى.

قال أصحاب القول الآخر: العبادة إذا أُمر بها على صفة معينة، أو في وقت بعينه، لم يكن المأمور ممتثلاً للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به من وصفها والامتثال، فانتفاء وقتها كانتفاء وصفها وشرطها، فلا يتناولها الأمر بدونه.

قالوا: وإخراجُها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلاً.

وأما في حقوق العباد: فكمن غَصب أموالاً، ثم تاب وتعذَّر عليه ردُّها إلى أصحابها، أو إلى ورثتهم، لجهله بهم أو لانقراضهم، أو لغير ذلك فاختلف في توبة مثل هذا.

فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه فقد تعذَّرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا، ولم يغلق الله عنه ولا عن مُذنب باب التوبة. وتوبته: أن يتَصَدَّق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل ـ وتكون

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧)؛ ومسلم (٦٨٤).

أجورها لهم ـ وبين أن لا يجيزوا، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، فيكون ثواب تلك الصدقة له، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها، ولا يجمع لأربابها بين العِوَض والمعوض، فيغرمه إياها ويجعل أجرها لهم، وقد غرم من حسناته بقدرها.

وهذا مذهب جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

[حقيقة الاستغفار والتوبة]:

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فلا بدّ من أمر رابع وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذلك ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، هذهِ حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين.

وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله تعالى بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وتَرْك المحظور بها، فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب، وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي التائب تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذاً «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة»، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

فإذاً «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً.

ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته، كما تقدم. وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

وأما «الاستغفار» فهو نوعان: مُفرد ومَقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والمقرون: كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، وقول صالح لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

فالاستغفار المفْرَد كالتوبة، بل هو التوبة نفسها مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها السَّتر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المِغْفَر لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مِغفراً، ولا القَبع ونحوه مع ستره، فلا بد في لفظ «المغفر» من الوقاية.

وهذا الاستِغْفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإن الله لا يعذب مستغفراً.

وأما من أصر على الذنب وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب.

فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى؛ فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شَره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العَزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤدي به إلى هلاكه ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته التي توصله إلى مقصوده وفيها فلاحه.

فها هنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فَخُصَّتْ «التوبة» بالرُّجوع، و«الاستغفار» بالمُفَارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتباً بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب طلب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه؛ فكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم.

[التوبة النصوح]:

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

فجعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات ـ وهو حصول ما يحب العبد ـ منوطاً بحصول التوبة النصوح.

و«النصوح» على وزن «فَعُول» المعدول به عن «فاعل» قصداً للمبالغة، كالشَّكُور والصَّبُور، وأصل مادة «ن ص ح» لخلاص الشيء من

الغِش والشَّوائب الغَريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص؛ فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة تخليصها من كل غش ونقص وفساد وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغِش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها إلى شيء واحد.

فقال عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع».

وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه».

وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن».

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تَعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العَزْم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعِلَل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله تعالى وخشيته، والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته أو لحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عزَّ وجلَّ.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه. والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار

وتتضمنه وتَمْحُو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[الفرق بين السيئات والذنوب]:

وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلاً منهما منفرداً عن الآخر.

فالمقترنان كقوله تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والمفرد كَقَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

فها هنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر.

والمراد بالسَّيئات: الصغائر، ما تَعْمل فيه الكَفارة، من الخطأ وما جرى مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة.

والدليل على أن السَّيئات هي الصغائر والتكفير لها: قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: (الصَّلوات الخمس، والجُمعة إلى الجُمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفِّرات لمابينهن إذا اجتُنبت الكبائر)(١).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير»، ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ «المغفرة» تتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ «التكفير» يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر كما تقدم، فقوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [محمد: ٢] يتناول صغائرَها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يَتَناول أسوأ الأعمال كما قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر: ٣٥].

وإذا فهم هذا، فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والوصب والنصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح: (ما يُصيب المؤمن من هَمٍّ ولا غَمّ ولا أَذىً - حتى الشوكَّةَ يُشاكها - إلا كفَّر الله بها خَطاياه)[1]، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهَّرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة فورد القيامة طيباً طاهراً، فلم يحتج إلى النهر الرابع.

[توبة العبد بين توبتين من الله تعالى]:

وتوبة العبد إلى الله تعالى، محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١)؛ ومسلم (٢٥٧٣).

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علّته.

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوكِ صِراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونهايتها الرجوع إليه في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثَّواب.

[الذنوب: صغائرها وكبائرها]:

١ ـ و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة وإجماع السَّلف.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفِّرات لما بينهنَّ، إذا اجتُنبت الكبائِر)[١].

اختلفوا في فصلين: أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها أو حَدٌّ يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

٢ ـ **فأما «اللمم»**: فقد رُوي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيراً. قال البغوي رحمه الله: هذا قول أبي هريرة ومجاهِد والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دُونَ الشِّرك»، قال السدي: قال أبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله تعالى: «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوِدُه»، فذكرت ذلك لابن عباس رضي الله عنهما فقال: «لقد أعانك عليها مَلَكٌ كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دُونَ الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في «صحيح البخاري» من حديث طاوس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: (إن الله كَتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا ـ أدرك ذلك لا محالة ـ فزنا العين: النَّظر، وزنا اللِسان: النُّطق، والنفس تَمَنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدّق ذلك أو يكذِّبه)[1].

وقال سَعيد بن المسيب: هو ما ألَمَّ بالقلب، أي: خَطَر عليه.

والصحيح قَول الجمهور: إن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة والغمزة والقبلة، ونحو ذلك. هذا قَول جُمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي.

ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه أن يُلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب كبيرة مرة واحدة ـ ولم يُصِرّ عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره ـ باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة. وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وغور علومهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)؛ ومسلم (٢٦٥٧).

٣ ـ **وأما «الكبائر»**: فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي «الصحيحين»: عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: (الكبائر: الإشراك بالله، وعُقوق الوالدين، وقَتْل النفس، واليَمين الغَموس)[١].

و«فيهما»: عن عبد الرحمن بن أبي بكَرة، عن أبيه، عن النبي ﷺ: (ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر؟) ـ ثلاثاً ـ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) وجلس ـ وكان متكئاً ـ فقال: (ألا وَقَولُ الزور)، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكَت[٢].

وفي «الصحيح»: عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقك) قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: (أن تَقْتل ولدك مخافَة أن يَطْعم معك) قال: قلت: ثم أي؟ قال: (أن تُزاني بحليلةِ جارِك) فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨][٣].

وفي «الصحيحين»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (اجتنبوا السبْع الموبقات) قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: (الشرك بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولِّي يوم الزحف، وقَذْف المُحْصَنات الغافِلات المؤْمنات)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٥).
(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)؛ ومسلم (٨٧).
(٣) رواه البخاري (٤٤٧٧)؛ ومسلم (٨٦).
(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)؛ ومسلم (٨٩).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (مِنْ أَكْبر الكبائر: أن يَسُبَّ الرجلُ والديه) قالوا: وكيف يسبُّ الرجل والديه؟ قال: (يسبُّ الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويَسُبُّ أُمَّه فيسب أمه)[1].

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: «أَسَبْع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»، وقال: «كل شيء عُصي الله به فهو كبيرة، من عَمل شيئاً منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من هذه الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما نَهى الله عنه في سورة النساء من أوَّلها إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فهو كبيرة».

وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بِنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أَوْعد الله عليه حداً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة.

٤ ـ **وها هنا أمر ينبغي التفطن له**: وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها ـ من الحياء والخوف، والاستعظام لها ـ ما يُلْحِقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة ـ من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ـ ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضاً فإنه يُعْفَى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٣)؛ ومسلم (٩٠).

لغيره، ويسامَح بما لا يسامح به غيره.

والأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكّر به إذا وقع في الشدائد، قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وفرعون لمّا لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

[الذنوب التي يتاب منها]:

ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها. وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله تعالى، هي أجناس المحرمات:

الكُفْر، والشِّرك، والنِّفاق، والفُسُوق، والعِصْيان، والإِثْم، والعُدوان، والفَحشاء، والمُنْكر، والبَغْي، والقَوْل على الله بلا عِلْم، واتباعُ غَير سَبيله.

فهذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله تعالى، وإليها انتهاء العالمين بأسرهم إلا أتباع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وقد يكون في الرجل أكثرها أو أقلها أو واحدة منها، وقد يَعلم ذلك وقد لا يَعلم.

فالتوبة النَّصُوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت لتتبين حدودها وحقائقها، والله الموفق لما وراء ذلك ـ كما وفق له ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب، والعبد أحوج شيء إليه.

* * *

١ ـ **فأما «الكُفر» فنوعان**: كفر أَكبر، وكفر أَصْغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في قوله تعالى ـ وكان مما يتلى ثم نسخ لفظه ـ: (لا ترغبوا عن آبائكم؛ فإنه كُفْرٌ بِكم)[1].

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: (اثنتان في أُمتي، هما بهم كُفْر: الطَّعن في النسب، والنياحة)[2].

وفي الحديث الآخر: (من أتى كاهناً أو عَرَّافاً، فصدَّقه بما يقول، فقد كَفر بما أنزل الله على محمد [ﷺ])[3].

وقوله: (لا تَرْجِعوا بعدي كُفّاراً يَضْرِبُ بعضُكم رقابَ بَعْض)[4].

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تَكْذيب، وكفر استِكبار وإباء مع التصديق، وكفر إِعراض، وكفر شكّ، وكفر نِفاق.

أ ـ فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسول، وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أَيّد رُسُله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة.

قال الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإن سُمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح؛ إذ هو تكذيب باللسان.

ب ـ وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٨)؛ ومسلم (٦٢).
(٢) رواه مسلم (٦٧).
(٣) رواه أحمد: ٢/٤٠٨.
(٤) رواه البخاري (١٧٤٣)؛ ومسلم (٦٦).

الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم يَنْقَدْ له إباءً واستكباراً، وهو الغالب على كُفر أعداء الرسل، وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهو كُفر أبي طالب أيضاً، فإنه صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم ويشهد عليهم بالكفر.

ج ـ **وأما كفر الإعراض**: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عَبْد يَالِيل للنبي ﷺ: «والله أقولُ لكَ كلمة: إن كنت صادقاً فأنت أجلّ في عيني من أَن أردَّ عليك، وإن كنت كاذباً فأنت أَحْقَر من أن أكلمك».

د ـ **وأما كفر الشك**: فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شَكهُ إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدقه ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مستلزمة للصدق ولا سيما بمجموعها، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

هـ ـ **وأما كفر النفاق**: فأن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

* * *

٢ ـ **وأما الشرك**، فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نِدّاً يحبُّه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ

﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويُوالونها من دون الله، وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده.

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحَلْفِ بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ حلف بِغَير الله فقد أَشْرك)[1]، وقول الرجل للرجل: «ما شاء الله وشِئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» و«مالي إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب حال قائله ومقصده، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: (أجعلتني لله نِدّاً؟! قل: ما شاء الله وَحْده)[2] وهذا اللفظ أخفّ من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً لمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها.

وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده.

* * *

٣ ـ **وأما النفاق** فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبَّس به

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٥١)؛ والترمذي (١٥٣٥).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٧).

فيزعم أنه مصلح وهو مفسد. وهو نوعان: أكبر، وأصغر[1].

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطِن مُنْسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّى لِعباده أُمُورَهم ليكونوا منها ومن أهلها على حَذَر، وذكر طوائف العالم الثلاث في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعيشات وتتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات.

سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهمَّ أهلك المنافقين، فقال: «يا بنَ أخي، لو هَلَكَ المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قِلَّة السَّالِك».

تالله لقد قَطَّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، ولعلمهم بدقِّه

---

(١) لم يفصل المؤلف القول في النفاق الأصغر، وهو الذي يسميه العلماء: النفاق العملي، فالنفاق نوعان: اعتقادي وهو الذي تحدث عنه المؤلف، وعملي ومن أمثلته ما جاء في الحديث المتفق عليه: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) رواه البخاري (٣٣)؛ ومسلم (٥٩).

وجِلِّه وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بأنفسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة: «ياحذيفة، نشدتك بالله، هل سَمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا. ولا أزكي بعدك أحداً».

وقال ابن أبي مُليكة: «أدركتُ ثَلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل». ذكره البُخاري[1].

وذُكر عن الحسن رضي الله عنه: «ما أَمِنه إلا منافق، ولا خَافَه إلا مؤمن»[2].

ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه: «اللهمَّ إني أعوذ بك من خُشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يخشع البدن، والقلبُ غير خاشع بالله تعالى».

لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً، وخوفُهم من النفاق شديد، وهَمُّهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

* * *

٤ و٥ ـ **وأما الفسوق** فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كُفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام.

فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ

---

(١) رواه البخاري تعليقاً، كتاب الإيمان، باب ٣٦.

(٢) كالذي قبله.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرد ـ الذي هو فسوق كفر ـ كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧]، فهذا فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يُخرج عن الإسلام فكقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه، وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مَقْرون بالعصيان ومفرد:

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه، والعصيان: هو عِصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣].

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيراً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والمعصية أخص بمخالفة الأمر. ويطلق كلٌّ منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ﴾ [الكهف: ٥٠] فسمى مخالفته للأمر فسقاً. وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فسمى ارتكابه للنهي معصية. فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا: كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

و«التقوى» اتقاء مجموع الأمرين وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله ويترك معصية الله، على نور من الله يخاف عقاب الله.

وفِسْق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً وتقليداً للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غُلاة في التجهم. وأما غالية الجهمية: فكغُلاة الرافضة ليس للطائفتين في الإسلام نَصِيبٌ.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

وليس مقصودنا الكلام في أحكام هؤلاء، وإنما المقصود: تحقيق «التوبة» من هذه الأجناس. فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، وتلقي النفي والإثبات من مشكاة الوحي، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بمَحْض اتِّباع السنة، ولا يكتفي منهم بذلك أيضاً حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة.

* * *

٦ و٧ ـ **وأما «الإثم والعدوان»**: فهما قرينان؛ قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ**﴾ [المائدة: ٢] وكل منهما إذا أُفرد تضمَّن الآخر، فكل إثم عدوان، إذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فـ«الإثم» ما كان محرَّم الجنْس، كالكَذِب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة. فالعدوان: تعدِّي ما أُبيح

منه إلى القدر المحرم، والزيادة: كالاعتداء في أخذ الحقِّ ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله أو بَدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعدٍّ للعدل.

وهذا العُدوان نوعان: عدوان في حَق الله، وعدوان في حق العبد.

فالعدوان في حق الله: كما إذا تعدّى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرَّم عليه من سواهما، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]، وكذلك تعدي ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في غير موضع الحرث، أو في إحرام أحدهما أو صيامه الواجب.

وكذلك كل ما أبيح له مِنه قدر معين، فتعدّاه إلى أكثر منه، فهو من العدوان، كمن أبيح له إساغة الغُصة بجُرعة من خَمْر فتناول الكأس كلها، أو أبيح له نَظْرة الخِطْبة والسَّوم والشهادة والمعاملة والمداواة، فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور، ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها، بأن يشبع وإنما أبيح له سَدّ الرمق، و«الإثْم» و«العُدْوان» هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف[1]، مع أن «البَغْي» غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم[2].

وعلى هذا، فإذا قرن البغي بالعدوان كان «البغي» ظلمهم بمُحرَّم الجِنْس، كالسرقة والكذب والبَهْت والابتداء بالأذى. و«العدوان» تعدي

---

(١) المراد قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ... ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(٢) هذا هو النوع الثاني: العدوان في حق العباد.

الحق في استيفائه إلى أكثر منه، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله.

* * *

٨ و٩ ـ وأما **«الفحشاء والمنكر»** فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة، وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء؛ وهي ما ظهر قبحها لكل أحد.

واستفحشه كل ذي عقل سليم؛ ولهذا فسر بالزنا واللواط وسماها الله «فاحشة» لتناهي قبحهما، وكذلك القبيح من القول يُسمَّى فحشاً، وهو ما ظهر قبحه جداً من السَّبِّ القبيح والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً؛ أي: الفعل المنكر، وهو الذي تستنكره العقول والفِطَر، ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم، والمنظر القبيح إلى العين، والطعم المستكره إلى الذوق، والصوت المستنكر إلى الأذن، فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة، كما فَحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات. فالمنكَر لها ما لم تَعرِفه ولم تألفه، والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة.

ولذلك قالَ ابن عباس رضي الله عنهما: «الفاحِشَة: الزِّنا، والمنكَر: ما لم يُعرف في شَريعة ولا سُنَّة». فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حُسْنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول.

* * *

١٠ ـ وأما **«القول على الله بلا علم»**: فهو أشد هذه المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً، ولهذا ذُكِرَ في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريماً

عارضاً في وَقْتٍ دُونَ وَقْت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً، فإنه يتضمَّن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله مِنْه ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله تعالى بلا علم.

ولهذا اشتد نَكير السلف والأئمة لها وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذّروا فتنتَهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان[١].

[مشاهد الخلق في المعصية]:

الناس في البلوى التي تجري عليهم أحكامها بإرادتهم وشهواتهم متفاوتون ـ بحسب شهودهم لأسبابها وغايتها ـ أعظم تفاوت. وجماع ذلك ثمانية مشاهد:[٢]

المشهد الأول: المشهد الحيواني البهيمي، الذي شهود صاحبه

---

(١) لم يتكلم المصنف عن «البغي» و«اتباع غير سبيل المؤمنين» وكان قد ذكرهما في مقدمة الموضوع.

(٢) هذه المشاهد ليست متسلسلة، وإنما الناس في رؤيتهم لأنفسهم عند الوقوع في المعصية أقسام، كل فريق منهم ينضوي تحت مشهد من هذه المشاهد.

مقصور على شهوات لذته به فقط، وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات، وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع.

وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم في ذلك فرق، إلا بدقيق الحيلة في الوصول إليها، ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية.

المشهد الثاني: مشهد الجبر، وأن الفاعل فيه سواه، والمحرك له غيره، ولا ذنب له هو. فلا ينسب إلى نفسه فعلاً، ولا يرى لها إساءة.

فهم يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم البتة.

وهذا مشهد المشركين، وأعداء الرسل، وهم أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس.

المشهد الثالث: مشهد القدرية النفاة، الذين يشهدون أن هذه الذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا خلق أفعالهم.

وهذا مشهد القدرية المجوسية.

المشهد الرابع: مشهد أهل العلم والإيمان، وهو مشهد القدر والشرع، يشهد فيه المذنب فعله، وقضاء الله وقدره.

المشهد الخامس: مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف، حيث يرى المذنب أنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه فهو هالك.

المشهد السادس: مشهد التوحيد والأمر، فيشهد انفراد الرب بالخلق ونفوذ مشيئته، وتعلق الموجودات بأسرها به، وجريان حكمه على الخليقة، وانتهاءها إلى ما سبق لها في علمه، وجرى به قلمه.

ويشهد مع ذلك: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وارتباط الجزاء

بالأعمال واقتضاءها له، ارتباط المسببات بأسبابها التي جعلت أسباباً مقتضية لها شرعاً وقدراً وحكمة.

المشهد السابع: مشهد الأسماء والصفات، وهو أن يشهد ارتباط الخلق والأمر، والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته، وأن ذلك موجبها ومقتضاها، فأسماؤه الحسنى اقتضت ما اقتضته من التَّخْلية بين العبد وبين الذنب، فإنه الغفَّار التَّواب العفو الحليم، وهذه أسماءٌ تطلب آثارها وموجباتها ولا بدَّ، (فلو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)[1].

المشهد الثامن: مشهد الحكمة، وهو أن يشهد حكمة الله عزَّ وجلّ في قضائه، وتخليته بين العبد وبين الذنب، وإقداره عليه وتهيئة أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلى بينه وبينه لحكم عظيمة؛ لا يعلم مجموعها إلا الله تعالى؛ وهي حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها..

وهذا المشهد والذي قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها، وأرفعها قدراً.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢)
منزلة الإنابة

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة».

وقد أمر بها الله تعالى في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة؛ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ ﴾ [الزمر: ١٧].

و«الإنابة» إنابتان:

إنابة لرُبوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامّ في حق كل داع أصابه ضُرّ كما هو الواقع، وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلـٰهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبَّته، والخُضوع له، والإقْبال عليه، والإعراض عما سِواه، فلا يستحق اسم «المُنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع.

وتفسير السَّلف لهذه اللفظة يدور على ذلك . وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم ، فـ«المنيب» إلى الله المُسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلى محابِّه .

ومن علامات الإنابة : تَرك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم ، مع فتحك باب الرجاء لِنَفْسِك ، فترجو لنفسك الرَّحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن ارجُ لهم الرحمة واخشَ على نفسك النقمة ، فإن كنت لا بدّ مستهيناً بهم ماقتاً لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك .

قال بعض السلف : لن تَفْقَه كل الفقه حتى تمقت الخلق في ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً .

وهذا الكلام لا يعلم معناه إلا الفقيه في دين الله تعالى ، فإن من شهد حقيقة الخلق ، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بداً من مَقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره ، وكان على بصيرة من ذلك ، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانةً ، فهذا هو الفقيه .

ومن علاماتها : الإياس من العمل ، وهذا يفسر بشيئين :

أحدهما : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق ، والمحرك الأول ، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل ، فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك ، بقي بلا فعل ، فها هنا تنفع مشاهدة القدر والفناء عن رؤية الأعمال .

والثاني : أن تَيْئَس من النجاة بعملك ، وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعفوه وفضله ، كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال : (لن ينجي أحداً منكم عمله) قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : (ولا أنا ، إلا أن

يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل)[1]، فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

فإذا أيس من عمله بداية، وأيس من النجاة به نهاية، شهد اضطراره إلى الله، بل شهد به في كل ذرّة منه ضرورة تامة إليه، وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها، بل من جميع الجهات، وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ولا لها سبب، بل هو مضطر إليه بالذات، كما أن الله عزَّ وجلَّ غني بالذات، فإن الغِنَى وصف ذاتي للرب والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

وإذا تحقق له قوة ضرورية، وأيس من عمله والنجاة به، نظر إلى ألطاف الله، وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة مَنَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر، لا إله غيره، ولا رب سواه.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)؛ ومسلم (٢٨١٦).

(٣)
منزلة التذكر

[شرح منزلة التذكر]:

ثم ينزل القلب منزلة «التذكر» وهو قرين الإنابة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

وهو من خواص أولي الألباب.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

و«التذكّر» و«التفكّر» منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكّره على تذكّره، وبتذكُّره على تفكُّره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري رضي الله عنه: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

و«التذكر» ضد النسيان، وهو حُضور صورة المذكور العلمية في القَلْب، واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مُهلة وتدرُّج، كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه.

ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكْرى، كما قال في المتلوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣ ـ ٥٤].

وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

فـ«التبصرة» آلة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر، وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة، لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له.

فزال عنه الإعراض بالإنابة.

والعمى بالتبصرة.

والغفلة بالتذكرة.

لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها، فترتبت المنازل الثلاثة أَحْسن ترتيب، ثم إن كُلاًّ منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦ ـ ٣٧].

والناس ثلاثة:

[الأول]: رجل قَلْبه ميِّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حَي القلب مستعد تُلِيت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقِ السَّمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور إليه، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور.

والتذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر، فهو يظفر بها بالتفكر وتنصقل له وتنجلي بالتذكر، فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار، لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور، وكلما قوي الشعور بالمحبوب اشتد سفَرُ القلب إليه، وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به، والبصيرة فيه، والذكر له.

[حاجة العبد إلى العظة ليتذكر]:

إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة ـ وهي الترغيب والترهيب ـ إذا ضعف تذكره وإنابته، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

و«العظة» يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة ونفس الرغبة والرهبة.

فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي.

والمعرض الغافل: شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب.

والمعارض المنكر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حَقِّ هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدّته ورفقه، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادَل به، من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

[وينبغي أن لا ينظر إلى] عيب الواعظ، فإنه إذا اشتغل به حُرِم الانتفاع بموعظته، لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.

وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي، فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نَهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

[التذكر يحصل بتلاوة القرآن]:

إن التأمل في القرآن، وتحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، هو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن رضي الله عنه: نزل القرآن ليُتدبر ويُعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلّ في يده[1] مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتُحْضِره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتُبَصِّره مواقع العبر.

وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول إليه والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها.

وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.

وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما

---

(١) تتل: أي توضع. وتل: سقط، وتل فلاناً: صرعه.

يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتُمَيِّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقاً والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً، فيصير في شأنٍ والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعِلم بالله وما له من أوصاف الكمال، ومايُنَزَّهُ عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم وأدلة صحة نبوَّتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسُّفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه.

وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه.

وعلى تفاصيل الأمر والنهي والشرع والقَدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ

والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربِّه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعدَّاها فيقَع في العَنـاء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويـل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونَى في سيره: تقدَّم الركبُ وفاتك الدَّليل، فاللحاقَ اللحاقَ والرَّحيل الرَّحيل، وتَحْدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعْتَصِمْ بالله واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرناه من الحكم والفوائد.

[قصر الأمل باعث على التذكُّر]:

وقِصَر الأمل: هو العِلْم بقُرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأُمور للقلب فإنه يبعثه على معافصة[1] الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه ـ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـ شاهدٌ من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مُدْبِرَة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها،

(١) معافصة: مدافعة.

وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها وأنها قد ترحَّلَت مقبلة.

وقد جاء أشراطُها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

ومَرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه - وهم يعالجون خُصّاً لهم قد وَهَى، وهم يصلحونه، فقال: (ما هذا؟) قالوا: خصٌّ لنا قد وَهَى فنحن نعالجه، فقال: (ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا)(١).

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٣٦)؛ والترمذي (٢٣٥٣).

(٤)
منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل «الاعتصام».

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحَبل الله.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

و«الاعتصام» افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سميت القلاع: العَواصم لمنعها وحِمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن استمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضَّلالة، والاعتصام به يعصم من الهَلَكة، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعِصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

والاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام

بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه . ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى .

فقال ابن عباس : تمسَّكوا بدين الله .

وقال ابن مسعود: هو الجماعة . وقال : «عليكم بالجماعة؛ فإنها حَبْل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفُرقة» .

وقال مجاهد وعطاء : «بعَهْد الله» ، وقال قتادَة والسُّدِّي وكثير من أهل التفسير : «هو القرآن» .

قال ابن مَسْعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : (إن هذا القرآن هو حَبل الله ، وهو النُّور المبين ، والشِّفاء النافِع ، وعِصمة مَنْ تمسَّك به ، ونجاة من تَبعه) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في القرآن : (هو حَبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد ، ولا تختلف به الألسن ، ولا يشبع منه العلماء) .

وقال مقاتل : بأمر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى .

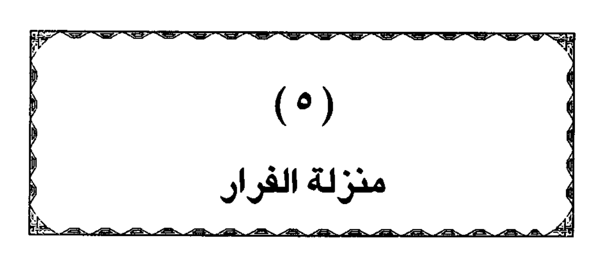
وفي «الموطأ» : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يَرضى لكم ثلاثاً ويَسْخط لكم ثَلاثاً ، يرضَى لَكُم : أن تَعْبُدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تناصحوا من وَلاه الله أَمْركم . ويسخط لكم : قيلَ وقالَ ، وإضاعةَ المال ، وكثرَة السؤال)[1] رواه مُسلم .

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥) .

وأما الاعتصام به، فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكَيْد عدوه الظاهر والباطن وشَرَّ نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتنعقد في حقه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قَدَرَه بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

* * *



(٥)
منزلة الفرار

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الفرار».

قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السُّعداء، وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله تعالى.

وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: فروا منه إليه واعملوا بطاعته.

وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله.

قال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

[ومنه] الفرار من الجهل إلى العلم، و«الجهل» نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة.

قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]، لما قال له قومه: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي: من المستهزئين.

وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرمت عليهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ: أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة.

وقال غيره: أجمع الصحابة على أن كل من عصى الله فهو جاهل.

وسمي عدم مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به فنُزِّل منزلة الجهل. وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله.

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين.

من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً.

والفرار من جهل العمل إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً.

[ومنه الفرار] من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.

و«الجد» ها هنا هو صدق العزم وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف وعسى، ولعل. فهو أضر شيء على العبد، وهو شجرة ثمرها الخُسران والندامات.

[ومنه] هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه.

يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقّع المرجو من لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا هَمَّ مع الله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

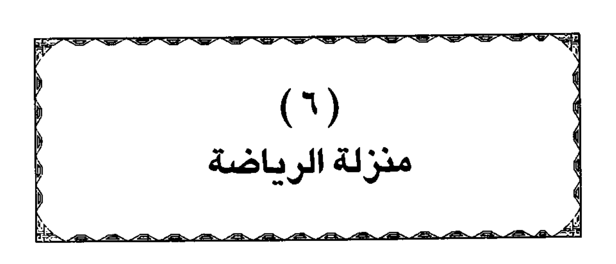
قال الربيع بن خُثَيْم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس.

وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة.

وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل، وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة، فإنه لا أشرحَ للصدر ولا أوسع له ـ بعد الإيمان ـ من ثقته ورجائه له، وحسن ظنه به.

* * *



(٦)
منزلة الرياضة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : منزلة «الرياضة» .
وهي تمرين النفس على الصدق والإخلاص .

وهذا يُراد به أمران :

[الأول] : تمرينها على قبول الصدق إذا عرضه عليها في أقواله وأفعاله وإرادته ، فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له .

والثاني : قبول الحق ممن عرضه عليه ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] فلا يكفي صدقك ، بل لا بدّ من صدقك وتصديقك للصادقين ، فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كِبْر أو حسد ، أو غير ذلك .

[ومن الرياضة] : تهذيب الأخلاق بالعلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع .

[ومنها] : تصفية الأعمال بالإخلاص ، بحيث يجردها عن أن يشوبها باعث لغير الله .

[ومنها] : توفير الحقوق في المعاملة ، بأن تعطي ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملاً موفوراً ، قد نَصَحْتَ فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضى ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة على النفس جداً، كان تكلفها رياضة، فإذا اعتادها صارت خلقاً.

* * *

(٧)
منزلة السماع

[حقيقة السماع والأمر به]:

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السَّماع».

وهو اسم مصدر كالنبات، وقد أمر الله به في كتابه وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم.

فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

وقال: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦].

وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أَصْل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره، ولكن الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط منهم من غلط.

وحقيقة **«السماع»**: تنبيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها: طلباً وهرباً، وحباً وبغضاً؛ فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

[أنواع المستمعين]:

وأصحاب السماع منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظه من مسموعه ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلـٰهي الصحيح: (فبي يسمع وبي يُبصر) وهذا أعلى سماعاً، وأصح من كل أحد.

[حكم السماع مرتبط بنوع المسموع]:

والكلام في «السماع» ـ مدحاً وذماً ـ يحتاج إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته.

فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مَسموع يحبه الله ويرضاه وأَمَر به عباده، وأَثنى على أهله ورضيَ عنهم به.

والثاني: مسموعُ يبغضه ويكرهه ونهى عنه، ومَدَح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه، فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة، فمن حرَّم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم وحرم ما أحل الله، ومن جَعله ديناً وقُربَةً يتقرَّب به إلى الله فقد كذب على الله وشرع ديناً لم يأذن به الله، وضاهى بذلك المشركين.

[السماع الذي مدحه الله تعالى]:

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوّة التي أنزلها على رسوله ﷺ.

فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك، بحاسة الأذن، وسماع فَهم وعقل، وسماع إجابة وقبول، والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة، بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصص هاهنا لإسماع الفَهم والعَقل، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة لا تخصيص فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: لو علم الله من هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا، لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سمع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ ﴾ [البقرة: ٢٩٥] فإن هذا سمع قبول وإجابة، مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه واستجابوا له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً وتدبراً وإجابة، وكل سماع في القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان، وسماع المراشد لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، لا سماع المغنين والمطربين، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء، فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب إلى جوار علاّم الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قبل فالق الإصباح: «حَيّ على الفلاح، حَيّ على الفلاح».

فلن يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة،

وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً عن ضلالة، وإرشاداً من غَي، وبصيرة من عمي، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة.

وهداية إلى نور وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثاً على تقى، وجلاء لبصيرة وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

[السماع الذي يبغضه الله تعالى]:

القسم الثاني من السماع: ما يبغضه الله ويكْرَهُهُ ويمدح المعرض عنه، وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه، كسماع الباطل كله إلا إذا تضمن ردَّه وإبطاله والاعتبار به، وقصد أن يُعلَمَ به حُسن ضده، فإن الضدّ يظهرُ حُسْنَه الضِدُّ.

وكسماع اللغو الذي مدح الله التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، قال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: هو الغناء.

وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الغناء يُنْبت النفاق في القَلْب كما يُنبت الماء البَقْل»[(١)]. وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه، فإنه ما اجتمع في قلب [عبد] قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه وتَبَرُّمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما

---

(١) قال في كشف الخفا: قال النووي: لايصح.

يقرؤه، فلا تتحرك له ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إلـه إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات وتهدأ الحركات وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب وطيب السهر وتمني طول الليل، فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخِيَّة النفاق وأساسه.

[أدلة الذين أباحوا الغناء]:

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم، وأنه مباح بكونه مستلذاً طيباً تلذه النفوس وتَسْتروح إليه، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فَيهون عليه بالحُداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه وزيادة في خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وبأن الله وصف نعيم الجنة. فقال فيه: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] وأن ذلك هو السماع الطيب، فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟.

وبأن الله تعالى (ما أذن لشيء كَأَذنِهِ ـ أي كاستماعه ـ لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن)[١]، وبأن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استمع النبي ﷺ إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت، وقال: (لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود)[٢]، فقال له أبو موسى: «لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحبيراً» أي: زينته لك وحسنته. وقوله ﷺ: (زيِّنوا القرآن بأصواتكم)[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٣)؛ ومسلم (٧٩٢).
(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨)؛ ومسلم (٧٩٣).
(٣) رواه أبو داود (١٤٦٨).

وبقوله ﷺ: (ليس منّا مَنْ لَم يَتَغَنَّ بالقُرآن)[1]، والصحيح: أنه من التغني وهو تحسين الصوت، وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع.

وبأن النبي ﷺ أقر عائشة رضي الله عنها على غناء القَينتين يَوْم العيد، وقال لأبي بكر: (دَعْهما فإن لِكلِّ قوم عيداً، وهذا عيدُنا أهل الإسلام)[2].

وبأنه ﷺ أَذن في العُرس في الغناء وسماه: لَهْواً[3].

وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء[4] وأَذِن فيه. وكان يسمع إنشاد الصحابة، وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:

نحـن الـذيـن بـايعُـوا محمـدا على الجهـاد مـا بَقينـا أبـدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة.

وسمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه ببردة[5].

واستنشد من شِعر أمية بن أبي الصلت مئة قافية[6].

وصَدَّق لبيداً في قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ[7].

ودعا لحسان: (أن يؤيِّده الله برُوح القُدس ما دام ينافح عنه) وكان يعجبه شعره.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧).
(٢) رواه البخاري (٩٤٩)؛ ومسلم (٨٩٢).
(٣) رواه البخاري (٥١٦٢).
(٤) رواه البخاري(٦١٤٩)؛ ومسلم (٢٣٢٣).
(٥) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤٦.
(٦) رواه مسلم (٢٢٥٥).
(٧) رواه البخاري (٣٨٤١)؛ ومسلم (٢٢٥٦).

وقال له: (اهْجُهم وروح القُدس معك)[1].

وبأن ابن عُمر رضي الله عنهما رخص فيه وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة.

وبأن كذا وكذا ولياً لله حضروه وسمعوه، فمن حرمه فقد قَدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام.

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطُّيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه، فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام، وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقوِّيها ويهيِّجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت كالتذاذ العَين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة.

[الجواب على الأدلة السابقة]:

فالجواب: أن هذه حَيْدة عن المقصود وروغان عن محل النزاع، وتعلق بما لا تعلق به، فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه، فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام والواجب والمكروه والمستحب والمباح، فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ومواقع الاستدلال؟.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣)؛ ومسلم (٢٤٨٥).

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد[1]، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جملتها، إلا لذيذة تلذ للسمع؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة، أو تحريم؟.

وأعجب من هذا الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة في النعمة، والله خالقها ومعطي حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها والالتذاذ بها على الإطلاق؟.

وهل في ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات؟.

وأعجب من هذا: الاستدلالُ على الإباحة بسماع أهل الجنة، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن في الجنة خمراً، فإن قال: قد قام الدليل على تحريم هذا ولم يقم على تحريم السماع.

قيل: هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة، فعلم أن استدلالك بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل لا يرضى به محصل.

وأما قولك: «لم يقم دليل على تحريم السماع».

فيقال لك: أي السماعات تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات: منها المحرم والمكروه والمباح والواجب

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً (٥٥٩٠)، ووصله أبو داود (٤٠٣٩).

والمستحب، فَعيِّن نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً. فإن قلت: سماع القصائد. قيل لك: أي القصائد تعني؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه وهجي به أعداؤه؟.

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها، وهي التي سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها، وحرض حساناً عليها، وهي التي غَرَّت أصحاب السماع الشيطاني، فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد فنعم إذن، والسنة كلام، والبدعة كلام، والتسبيح كلام، والغيبة كلام، والدعاء كلام، والقذف كلام، ولكن هل سمع رسول الله وأصحابه رضي الله عنهم سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثر من مَفْسدة مذكورة في غير هذا الموضع.

ونظير هذا ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن وأَذَنِهِ له وإِذْنِهِ فيه، ومحبة الله له. فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم، بالغناء المقرون بالمعازف، وذكر القَدِّ والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والشعر الأسود، ومحاسن الشباب، وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصدّ، والتجني والهجران، وما جرى هذا المجرى مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر.

وأعجب من هذا: استدلالهم على إباحة السماع ـ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ـ بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات من أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم، فأين هذا من هذا؟!.

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان»، وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية، ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة في إنشادهما ولا استماعهما، أفيدل هذا على إباحة ما يعلمونه ويعملونه من

السماع المشتمل على ما لا يخفى؟ فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟!.

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟ فكم في هذا التعلق ببيوت العنكبوت؟!.

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطُّيور اللذيذة، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيدان، وأصوات أشباه النساء من المردان، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القُمْري والبلبل والهزاز ونحوها؟!.

* * *

(٨)

منزلة الخوف

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الخوف». وهي من أجلّ منازلها وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم؛ فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وفي «المُسند والترمذي»: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت «يارسول الله، قول الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: (لا، يا بنة الصديق، ولكنه الرجل يَصُوم ويُصَلِّي ويتصدق، ويخاف أن لا يُقبل منه)[١].

قال الحسن رضي الله عنه: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥).

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخَشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي ﷺ: (إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية)[١].

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان:

إحداهما: حركته للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية.

وأما «الرهبة»: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وأما «الوجل»: فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «الهيبة» فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)؛ ومسلم (١٤٠١).

المعرفة والمحبة، والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية؛ كما قال النبي ﷺ: (إنِّي لأَعْلَمُكُم بالله، وأشدُّكم لهُ خَشيةً)[1]. وفي رواية: (خوفاً).

وقال: (لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَم لضَحِكْتُم قَليلاً، ولَبَكَيْتُم كَثيراً، ولمَا تلَذَّذْتم بالنِّساءِ عَلى الفُرُش، ولَخَرَجْتُم إلى الصُّعُداتِ تجأَرُون إلى اللهِ تَعالَى)[2].

فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك.

وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم.

ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحِمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراجٌ في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عزَّ وجلَّ، فإنك إذا خِفْته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان ـ رحمه الله ـ: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد الدنيا عنه.

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢)؛ وابن ماجه (٤١٩٠).

الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلُّوا الطريق.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بمكان صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، ولقي فيها آدم ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول العبادة لَقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بَلعام بن باعُورا لقي ما لقي، وكان يعرف الاسم الأعظم، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم، فلا شخص أصلح من النبي ﷺ، ولم ينتفع بلقائِه أعداؤه والمنافقون.

والخوف ليس مقصوداً لذاته بل هو مقصود لغيره قصدَ الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عزَّ وجلَّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

والخوف مسبوق بالشعور والعِلْم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به.

وله متعلقان: أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه. والثاني: السبب والطريق المفضي إليه، فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف: يكون خوفه، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه.

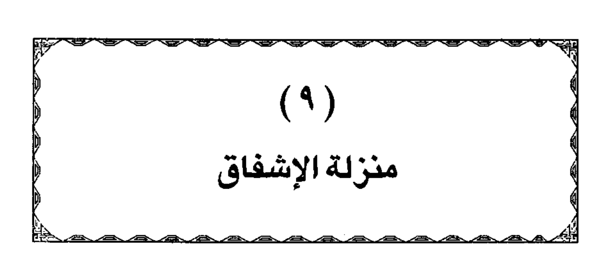
فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا: لم يخف من ذلك السبب، ومن اعتقد أنه يفضي إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف، فإذا عرف قدر المخوف وتيقن إفضاء السبب إليه: حصل له الخوف.

والقلب في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره. قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن كان الغالب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه.

* * *



(٩)
منزلة الإشفاق

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : منزلة «الإشفاق» .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٥ـ٢٧] .

«الإشفاق» : رقّة الخوف ، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه ، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة ، فإنها ألطف الرحمة وأرقها .

[ويظهر هذا في] الإشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع ، فيكون من الأعمال التي قال الله تعالى فيها : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ؛ وهي الأعمال التي كانت لغير الله ، وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ .

ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل ، إما بتركه وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه به ، فيذهب ضائعاً ، ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم يوماً :

«فيمن تـرون هذه الآيـة نزلت؟ فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقـال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: يا بن أخي قل ولا تَحْقِرَنَّ نفسك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً لعمل. قال عُمَر: أيّ عمل؟ قال ابن عبـاس: لعمل، قـال عمر: لرجل غني يَعْمل بطاعة الله، فبعث الله إليـه الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله»[1].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٨).

(١٠)
منزلة الخشوع

[التعريف بالخشوع]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الخشوع».

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أَرْبع سنين»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتَبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نُزول القرآن»(٢).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض والذُّل والسُّكُون، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨]، أي: سكنت وذلَّت وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢٧).

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة.

و«الخشوع»: قيام القلب بين يدي الرب تعالى بالخضوع والذلة، والجمعية عليه.

وقيل: «الخُشوع» الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع. فمن علاماته: أن العَبد إذا خولِف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: «الخُشوع» خمود نِيران الشَّهوة، وسكون دُخان الصدر، وإشراق نُور التعظيم في القلب.

وقال الجُنيد ـ رحمه الله ـ: «الخشوع» تذلُّل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوعَ» محلّه القلب، وثمرته على الجوارح، فهي تظهره.

وقال النبي ﷺ: (التقوى ها هنا ـ وأشار إلى صدره ـ ثلاث مرات)[1].

وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع ها هنا، وأشار إلى صدره، لا ها هنا، وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهو حُذيفة، يقول: «أعوذ بالله من خُشُوع النّفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى البدن خاشعاً والقلب غير خاشع».

ورأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً طَأْطَأَ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفَع رقبتك، ليس الخُشوع في الرِّقاب، إنما الخشوع في القُلوب».

ورأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «شباباً يمشون ويتماوَتُون في مشيتهم،

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٣)؛ ومسلم (٢٥٦٣).

فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أَسْرع، وإذا قال أَسْمع، وإذا ضرَب أوجع، وإذا أَطْعم أشبع، وكان هو الناسِك حقاً».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

وقال حذيفة رضي الله عنه: «أوّل ما تَفقدون من دِينكم الخشوع، وآخر ما تَفْقدون من دينكم الصلاة، وربَّ مُصلٍّ لا خَير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً».

وقال سهل رحمه الله: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

[الخشوع في الصلاة]:

فإن قيل: فما تقولون في صلاة من عَدِمَ الخشوع في صلاته هل يعتد له بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب فلا يعتد له إلا بما عَقَل فيه وخشع فيه لربه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عَقلت منها».

وفي «السنن والمسند» مرفوعاً: (إن العبد لَيُصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها ـ حتى بَلَغ عشْرها)[1].

وقد علق الله فلاح المصلِّين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فيها فليس من أهل الفلاح، ولو اعْتُدَّ له بها ثواباً لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء فإن غلب عليها

---

(١) رواه أبو داود (٧٩٦).

الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها.

وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها.

فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في «إحيائِهِ»[1]، لا في «وسيطه» و«بسيطه».

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ولم يسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبّها وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه، وغايته: أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها، ولبها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد الميت، فإذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد يعتقه تقرباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة، فكيف يعتد بالعبد الميت!.

ولهذا قال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شَلاَّءَ أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل، أَوْ مريضة أو زمنة أو قبيحة حتى يهدي جارية ميتة بلا روح، فهكذا الصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.

يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولى أن لا يعتدَّ بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته ـ بالغفلة والوسواس ـ فأنَّى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون.

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعاً إلى النبي ﷺ: (إن الله لا يَستجيب الدُّعاء من قَلْبٍ غَافِلٍ)[1]، فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خالص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص، فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد، والغافل لا قصد له فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥] وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع.

والصواب: أنه يعمّ النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة. ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب على الله تعالى في الصلاة أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظن به أن يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شَدَّةٍ من القراءة واجبة، أو ترك تسبيحة، أو قول: «سمع الله لمن حمده»، أو قول: «ربنا ولك الحمد»، أو ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بالصلاة عليه. ثم

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٤).

يصححها مع فَوْت لُبِّهَا ومقصودها الأعظم وروحها وسرها.

فهذا ما احتجت به هذه الطائفة، وهي حجج ـ كما تراها ـ قوة وظهوراً.

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في «الصحيح» أنه قال: (إذا أَذَّن المؤذِّن أَدْبَر الشيطان وله ضُراط حتى لا يَسْمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فَيُذَكِّره ما لم يكن يذكر، ويقول: أُذْكُر كذا، أُذكر كذا ـ لما لم يكن يذكر ـ حتى يَظَلَّ الرجل، لا يَدْري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالِس)[1].

قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدرِ كم صلى بأن يسجد سجدتي السهو ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة ـ كما زعمتم ـ لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيماً للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة.

ولهذا سماها النبي ﷺ: (المرغمتين) وأمر من سها بهما، ولم يُفَصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب، وقال: (لكل سهو سجدتان)[2] ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة، وأما حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب، فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨)؛ ومسلم (٣٨٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧١).

ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى فيُناكحون ويرثون ويورثون، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر بل إلى الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي، مع أنها لا تسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب، فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس، وغفلة القلب عن كمال حضوره، أولى بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً، فإن للصلاة ثواباً عاجلاً في القلب من قوة إيمانه، واستنارته وانشراحه وانفساحه، ووجود حلاوة العبادة، والفرح والسرور، واللذة التي تحصل لمن اجتمع قلبه وهمُّهُ على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قَرَّبه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه، والله أعلى وأجل.

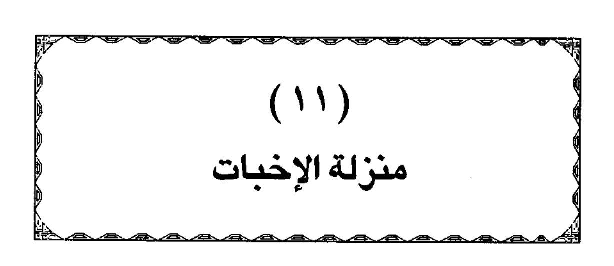
وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلى في الآخرة، ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كلامنا في هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة لتحصل هذه الثمرات والفوائد فذاك إليه إن شاء أن يحصلها، وإن شاء أن يفوتها على نفسه، وإن أردتم بوجوب الإعادة أنَّا نلزمه بها ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة؛ فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين. والله أعلم.

* * *



(١١)
منزلة الإخبات

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الإخبات».

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤]، ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٥].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

و«الخبت» في أَصْلِ اللُّغة: المكان المنخفض من الأَرض، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظَ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأَخفش: الخاشعون.

وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله تعالى، ولذلك عُدِّي بإلى تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله تعالى.

ولما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد ـ الذي

هو نوع شك ـ والرجوع ـ الذي هو نوع غفلة وإعراض ـ والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدى أنفاسه، لا ينتهي سيره إليه مادام نفسه يصحبه ـ شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله، فيرويه مورده، ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفره، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر، فإذا ورد ذلك الماء: زال عنه التردد وخاطِرُ الرجوع، كذلك السالك إذا ورد مورد «الإخبات» تخلص من التردد والرجوع، ونزل أول منازل الطمأنينة لسفره، وجَدَّ في السير.



(١٢)
منزلة الزهد

[التعريف بالزهد]:

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الزهد».

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ـ١٧].

وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

والقرآن مملوء من التزهيد في الدّنيا، والإخبار بخسّتِها وقلّتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها. فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدّنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه، ونطق عن حاله وشاهده. فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: الزُّهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضَرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد والورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدّنيا: قصر الأمل ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

وقال الجنيد: سمعت سَرياً يقول: إنّ الله تعالى سلب الدّنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم.

وقيل: الزّهد في قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ [الحديد: ٢٣]، فالزاهد لا يفرح من الدّنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملْك، والحُبُّ يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدّنيا بِعَين الزوال، فتصغر في عينيك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدّنيا قِصَر الأمل.

وعنه روايةٌ ثانية: أنه عَدَم فَرحه بإقبالها وحزنه على إدْبارها، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار: هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يَحْزن إذا نقصت.

وقال عبد الله بن المبارك: هو الثقة بالله مع حب الفقر. وهذا قول شقيق ويوسف بن أسباط.

وقال أبو سليمان الداراني: تَرْك ما يُشْغل عن الله. وهو قول الشبلي.

وسأل رُويم الجنيد عن الزّهد؟ فقال: استصغار الدّنيا، ومحو آثارها من القلب.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزاهدين، وأقعد معهم؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حدٍّ لو قطع الله الرِّزق عنك ثلاثة أيام لم تَضْعُف نفسك. فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جَهْل، ثم لا آمن [عليك] أن تفتضح.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: تَرْك الحرام، وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: تَرك ما يشغل عن الله، وهو زُهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ رضي الله عنهم، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام، وهو يدلُّ على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد له الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء: «أحدُها الزّهد».

[حقيقة الزهد ومتعلقاته]:

والذي أجمع عليه العارفون: أنّ الزّهد سَفر القلب من وطن الدّنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنّف المتقدمون كتب الزهد؛ كالزهد لعبدالله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوَكيع، ولهنادبن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها؛ وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والنساء والملك ما لهما، وكان نبيُّنا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ من الزّهاد، مع ما كان لهم من الأموال. وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما من الزّهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من أئمة الزهاد مع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد وسفيان من أئمة الزّهاد، وكان له رأس مال، يقول: لولا هو لتمندل[1] بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزّهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزّهد في الدّنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة ـ إذا أصبت بها ـ أرغب منك فيها لو لم تصبك.

فهذا من أجمع كلام في الزّهد وأحسنه.

[طريق الزّهد]:

[ويبدأ] من الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام.

وهو ترك ما يشتبه على العبد: هل هو حلال، أو حرام؟

كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: (الحَلال بيِّن، والحرامُ بيِّن، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام، ومن وقع في الشبهات وقع في

---

(١) يقال: تمندل بالمنديل، إذا تمسح به، والمراد: أنهم استهانوا بهم.

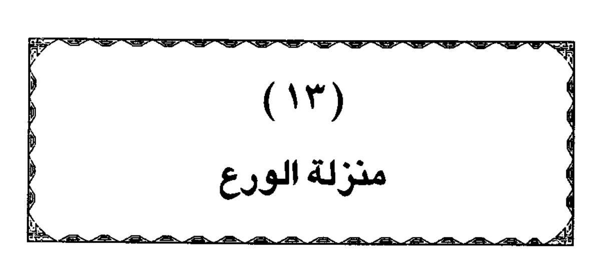
الحرام، كالراعي يَرعى حَول الحِمَى يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لِكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنّ حِمَى الله محارمُه، ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صَلُحَت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب)[١].

فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام.

[ثم الزهد] بما يفضل عن قدر الحاجة مما يمسك النفس من القوت والشراب، واللباس، والمسكن، والمنكح إذا احتاج إليه.

* * *

(١) رواه البخاري (٥٢)؛ ومسلم (١٥٩٩).



(١٣)
منزلة الورع

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الورع».

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

قال الله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤].

قال قتادة ومجاهد: نفسك فَطَهر من الذنب. فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي، والضحاك، والشعبي، والزُّهري، والمحققين من أهل التفسير.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غَيلان بن سَلمة الثَّقفي.

وإني ـ بحمد الله ـ لا ثَوْبَ غادرٍ لبستُ ولا مِنْ غَدْرَةٍ أتَقَنَّع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب، وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أُمر القائم بين يدي الله عزَّ وجلَّ بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء

دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة؛ ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله ويؤثر كل منهما في الآخر، ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر. وليسا عليهما.

وقد جَمع النبي ﷺ الورع كله قي كلمة واحد فقال: (مِنْ حُسْن إسْلام المَرْء تركُه ما لا يعنيه)[1]؛ فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات.

وفي الترمذي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ: (يا أبا هريرة كن ورعاً، تكُن أَعْبد الناس)[2].

قال الشبلي ـ رحمه الله ـ: الورع أن يتورع عن كل ما سوى الله.

وقال إسحاق بن خَلف: الورع من المَنْطق أشد منه في الذهب والفضة، والزّهد في الرياسة: أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يُبذلان في طَلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزّهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع على وجهين: ورع في الظاهر أن لا

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)؛ وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٦).

يتحرك إلا لله، وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس مع كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.

وسأل الحَسن غلاماً فقال له: ما مِلاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطَّمع. فعجب الحسن منه.

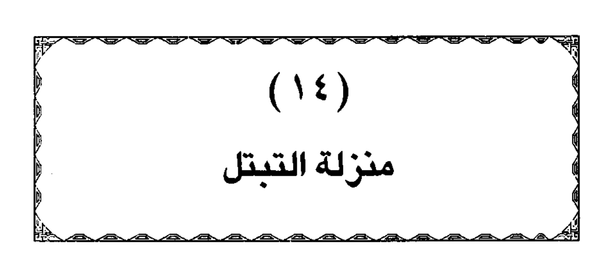
وقال الحسن رضي الله عنه: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: جُلساء الله غداً أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

* * *



(١٤)
منزلة التبتل

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «التبتل».

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

و«التبتل»: الانقطاع، وهو تفعُّل من البتل وهو القطع. وسميت مريم عليها السلام «البَتُول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نُظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً، وقطعت منهن.

ومصدر «تبتَّل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعّل ـ لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة، فأتى بالفعل الدال على أحدهما، والمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بَتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل أنت إليه تبتلاً، فَفُهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

والتبتل: الانقطاع إلى الله تعالى عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، بخلاف العبد، فإنه يخدم سيده بمقتضى عبوديته، لا للأجرة، فهو لا ينصرف عن بابه إلا إذا كان آبقاً. والآبق قد خرج من شرف العبودية، ولم يحصل له إطلاق الحرية، وغاية شرف النفس: دخولها تحت رق العبودية طوعاً واختياراً ومحبة، لا كرهاً وقهراً.

و«التبتل» يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً، لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، خوفاً منه، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله تعالى.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال، وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإنابة وتوكلاً.

و«التبتل»: انقطاع عن الخلق، ثم الانقطاع عن النفس.

والذي يحسم مادة المبالاة بالناس: شهود الحقيقة، وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله وفي قبضته وتحت قهر سلطانه، لا يتحرك منها شيء إلا بحوله وقوته، ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته، فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود؟

وأما الانقطاع عن النفس فيكون بأمرين:

أولهما: مجانبة الهوى ومخالفته ونهي النفس عنه، لأن اتباعه يصد عن التبتل.

وثانيهما: ـ وهو بعد مخالفة الهوى ـ تنسم روح الأنس بالله، والرَّوح للرُّوح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه، فحينئذ تنسَّم روح الأنس بالله ووجد رائحته، إذ النفس لا بدّ لها من التعلق. فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله، وهَبَّت عليها نسماته فريَّحتها وأحيتها.

* * *

(١٥)
منزلة الرجاء

[التعريف بالرجاء]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الرجاء».

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحُبّ، والخَوف، والرَّجاء.

وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ قبل موته بثلاث ـ: (لا يموتَنَّ أَحدُكُم إلا وهو يُحْسِنُ الظنَّ بِربِّه)[١].

وفي «الصحيح»: عنه ﷺ: (يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا عِنْدَ ظنِّ عبدِي بي فليَظُنَّ بي ما شَاء)[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)؛ ومسلم (٢٦٧٥) دون ذكر (فليظن بي ما شاء).

«الرجـاء»: حادٍ يَحْدو القلـوب إلى الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثِّقَة بِجُود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني»: أنَّ «التمنّي» يكون مع الكَسَل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، و«الرجاء»: يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها. والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل.

قال شَاه الكَرْماني: علامة صحة الرجاء: حُسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان مَحْمُودان ونوع غُرور مذْموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راجٍ لثوابه. ورجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله تعالى فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجل مُتمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف، ونظر إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره، يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء»: هو النظر إلى سَعة رحمة الله.

وقال أبو علي الروذباري ـ رحمه الله ـ: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتَمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصِم: ما علامةُ الرَّجاء في العَبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدّنيا، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا أي الرجاءين أَكْمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه، أو رجاء المذنب المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟.

فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه.

وطائفة رجحت رجاء المذنب، لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بِذلَّة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟! وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!.

[الرجاء أجلُّ منازل السائرين]:

والرجاء من أجلّ منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلـٰهي عن النبي ﷺ ـ فيما يروي عن ربّه عزَّ وجلَّ ـ: (يا بنَ آدمِ، إنك ما دَعَوْتني وَرَجوتني غفرتُ لكَ على ما كانَ منك ولا أبالي)[1].

وقد روى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٤).

عن النبيِّ ﷺ قال: (يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عِنْد ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذَكرني في نفسه ذكرتُهُ في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُهُ في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شِبْراً اقتربتُ إليه ذِراعاً، وإن أتاني يَمشي أتيته هرولة)[1].

[فوائد الرجاء]:

وللرجاء فوائد كثيرة:

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجَى ويؤمل ويسأل، وفي الحديث: (مَنْ لم يَسْألِ الله يَغْضبْ عليه)[2]، والسائل راجٍ وطالب، فمن لم يرجُ الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله ويطيب له المسير، ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان ذلك أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفته بالله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها، فإن الرجاء تعلق بأسماء الإحسان وتعبد بها، ودعاء بها وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)؛ ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٧٠).

يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي. فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، والدعاء بها.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راجٍ خائفٌ، وكل خائفٍ راجٍ، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

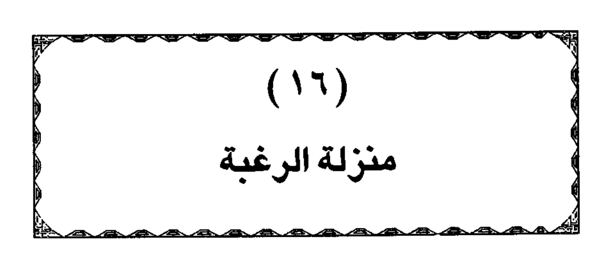
والتحقيق: أنه ملازم له فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقّع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فني عن ذلك وغاب عنه. فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها مَنْ حسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

* * *



(١٦)
منزلة الرغبة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الرغبة».

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء»: أن الرَّجَاء طَمع، والرَّغبة طَلَب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

والمقصود: أن الراجي طالب، والخائف هارب.

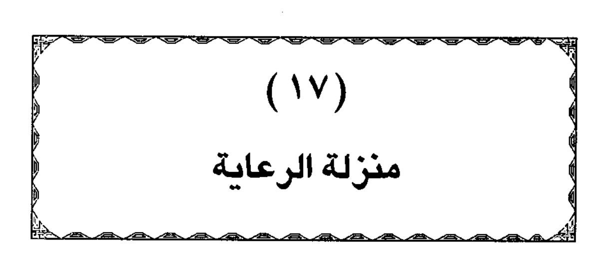
فـ«الرغبة»: طلب مغيب، هو على شك من حصوله، فإن المؤمن يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها، فـ«الرجاء»: طمع، و«الرغبة»: طلب، فإذا قوي الطمع صار طلباً.

والرغبة تتولد من العلم، فتبعث على الاجتهاد وتصون السالك عن الكسل.

[وما تزال هذه الرغبة] حتى تصل به إلى «الإحسان»؛ وهو (أن تعبد الله كأنك تراه).

فالراغب لا يبالي ما أصابه، فرغبته لا تدع من مجهوده مقدوراً له إلا بَذَلَه، ولا تدع لهمته وعزيمته فترة ولا خموداً.

* * *



(١٧)
منزلة الرعاية

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الرعاية».

وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفرق، فالرعاية صيانة وحفظ.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة:

«رواية»: وهي مجرد النقل وحمل المروي.

و«دراية»: وهي فهمه وتعقل معناه.

و«رعاية»: وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنَّقَلة همتهم الرواية، والعلماء همتهم الدراية، والعارفون همتهم الرعاية، وقد ذمّ الله تعالى من لم يرعَ ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بـ﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور ـ على قول الكُوفيين ـ وإما بمقدَّر محذوف مفسَّر بهذا المذكور ـ على قول البَصْريين ـ أي: وابتدعوا رهبانية، وليس منصوباً بوقوع الجَعْل

عليه، فالوقف التام عند قوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ ثم يبتدئ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: لم نُشَرِّعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم.

وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أي: لم يكتبها عليهم إلا ابتغاء رِضْوان الله، وهذا فاسِد، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة، وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه، فيتحد السبب والغاية نحو: قمت إكراماً له، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل المعلل ها هنا هو «الكتابة»، و«ابتغاء رضوان الله» فعلهم، لا فعل الله تعالى. فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول «كَتبناها» أي: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضاً، إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فيكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها فيكون بدل بعض من كل، ولا أحدُهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل بعض.

فالصواب: أنه منصوبٌ نَصْب الاستثناء المنقطع، أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قول «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه طلب رضوانه تعالى. ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه.

حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر، كما قاله أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع ـ أو كالإجماع ـ في أحد النُّسُكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً. وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقَصْد: أن الله سبحانه ذَمَّ من لم يَرْعَ قُرْبةً ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يَرْعَ قربة شرعها الله لعباده، وأذن بها وحثَّ عليها؟!

فأما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيرها، والقيام بها من غير نظر إليها، وإجراؤها على مجرى العلم، لا على التزين بها من غير نظر إليها.

فالتوفير: سلامة من طَرَفَي التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها.

وأما تحقيرها: فاستصغارها في عينه واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر وأنه لم يُوفِّه حقه، ولا يرضى لربه بعمله، ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضى الله عنك: سخطك على نفسك، وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعاته، وقد كان رسولُ الله ﷺ إذا سَلَّم من الصَّلاة استغفر ثلاثاً[(١)]. وأمر الله عباده بالاستغفار عُقيب الحج[(٢)]. ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل بالأسحار[(٣)].

فمن شَهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه، لم يجد بداً من استغفار ربه منه، واحتقاره إياه واستصغاره.

---

(١) رواه مسلم (٥٩١)؛ وأبو داود (١٥١٣).

(٢) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

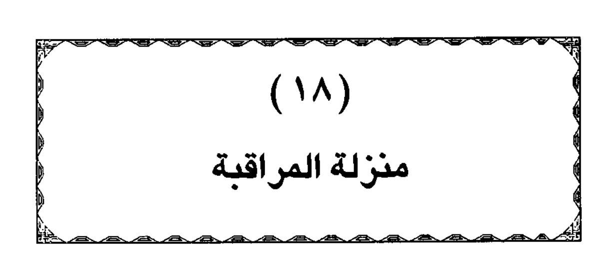
(٣) قال الله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وأما «القيام بها» فهو توفية حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة.

ومعنى «من غير نَظَرٍ إليها» أي: من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها فيسقط من عين الله وتحبط أعماله.

و«إجراؤها على مجرى العلم» هو أن يكون العمل على مقتضى العلم، المأخوذ من مشكاة النبوة، إخلاصاً لله، وإرادة لوجهه، وطلباً لمرضاته، لا على وجه التزين به عند الناس.

* * *



(١٨)
منزلة المراقبة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «المراقبة».

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: (أن تَعبُد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تَراهُ فإنه يَراك)[١].

«المراقبة»: دوام علم العبد وتيقّنه باطلاع الحق سبحانه على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي «المراقبة»، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين.

والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ وكيف بحال العارفين؟.

---

(١) رواه مسلم (٨).

قال الجريري ـ رحمه الله ـ: أَمرُنا هذا مبني على فَصْلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، ويكون العلم على ظاهرك قائماً.

وقيل: من راقَب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يَهِشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيباً.

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لَحْظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقيل: الرجاء يحركك إلى الطاعة، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خَطرة وخُطوة.

وقال إبراهيم الخواص ـ رحمه الله ـ: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عزَّ وجلَّ.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عُثمان النيسابوري ـ رحمهما الله ـ: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ولنفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظه في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و«المراقبة»: هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله أعلم.

* * *

(١٩)
منزلة تعظيم حرمات الله تعالى

[بيان معنى تعظيم الحرمات]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «تعظيم حرمات الله عزَّ وجلَّ».

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠]، قال جماعةٌ من المفسِّرين ـ رضي الله عنهم ـ: حرمات الله: ها هنا معاصيه، وما نهى عنه، وتعظيمها: ترك ملابستها.

قال اللَّيث ـ رحمه الله ـ: حُرمات الله: ما لا يحل انتهاكُها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي.

وقال الزجّاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وقال قوم: الحرمات ها هنا المناسك ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرمات» تعمّ هذا كله، وهي جمع «حرمة»؛ وهي ما يجب احترامه وحفظه: من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة.

[هل من التعظيم أن تكون العبادة لا خوفاً من العقوبة؟]:

هذا الموضع يكثر في كلام القوم، والناس بين معظِّم له ولأصحابه، معتقد أن هذا أرفع درجات العبودية:

أن لا يعبُد الله، ويقوم بأمره ونهيه، خوفاً من عقابه، ولا طمعاً في ثوابه.

فإن هذا واقف مع غرضه وحظ نفسه، وأن المحبة تأبى ذلك، فإن المحب لاحَظَّ له مع محبوبه، فوقوفه مع حظه علة في محبته، وأن طمعه في الثواب: تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجرة. ففي هذا آفتان: تطلعه إلى الأجرة، وإحسان ظنه بعمله، إذ تطلعه إلى استحقاق الأجر به، وخوفه من العقاب: خصومة للنفس، فإنه لا يزال يخاصمها إذا خالفت، ويقول: أما تخافين النار، وعذابها، وما أعدَّ الله لأهلها؟! فلا تزال الخصومة بذلك بينه وبين نفسه.

ولا يخلصه من هذه المخاصمة، وذلك الاستشراف إلا تجريد القيام بالأمر والنهي من كل علة، بل يقوم به تعظيماً للآمر الناهي، وأنه أهل أن يعبد، وتُعَظَّم حرماته. ولو لم يخلق جنة ولا ناراً، فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لِذاته، فالنفوس العلية الزكية تعبده لأنه أهل أن يعبد، ويُجَلَّ ويُحَبَّ ويُعَظَّم فهو لذاته مستحق للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد كأجير السوء إن أُعطي أجره عمل، وإلا لم يعمل، فهذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والإرادة.

قالوا: والعمال شاخصون إلى منزلتين: منزلة الأجرة، ومنزلة القرب من المطاع. قال تعالى في حق نبيه داود عليه السلام: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [صٓ: ٢٥]، فالزلْفى منزلة القرب، وحسنُ المآب: حسنُ الثواب والجزاء. قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فـ﴿الحسنى﴾: الجزاء. و﴿الزيادة﴾: منزلة القرب. ولهذا فسرت بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ.

قالوا: فالعارفون عملهم على المنزلة والدرجة، والعمال عملهم على الثواب والأجرة وشتان ما بينهما.

وطائفة ثانية تجعل هذا الكلام من شَطحات القوم ورعوناتهم، وتحتج بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين، ودعائهم وسؤالهم، والثناء عليهم

بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عَبَدَهم المشركون: إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ـ كما تقدم ـ وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠]، أي: رَغَباً فيما عندنا ورهباً من عذابنا، والضمير في قوله: ﴿إنهم﴾؛ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب»: رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين.

وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم. وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦]، وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار؛ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦]، فجعلوا أعظم وسائلهم إليه وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وأمر النبي ﷺ أمته: أن يسألوا له في وقت الإجابة ـ عقيب الأذان ـ أعلى منزلة في الجنة، وأخبر أن من سألها له «حلَّت عليه شفاعَتَه»[(١)].

وقال له سُليم الأنصاري: أما إني أَسْأَل الله الجنة، وأعوذ به من النار، ولا أُحسن دَنْدنتك ولا دندنة معاذ، فقال: (أنا ومعاذ حَوْلها نُدَنْدِن)[(٢)].

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤاله الجنة

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤).
(٢) رواه أبو داود (٧٩٢)؛ وابن ماجه (٩١٠).

ورجائها، والاستعاذة من النار والخوف منها.

قالوا: وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: (اسْتَعيذوا بالله من النار)[1]، وقال لمن سأله مرافقته في الجنة: (أَعِنِّي على نَفْسِك بكَثْرة السُّجود)[2].

قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود للشارع من أمته ليكونوا دائماً على ذكر منهما فلا ينسونهما؛ ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة، والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار: هو محض الإيمان.

قالوا: وقد حضّ النبيّ ﷺ عليها أصحابه وأمته، فوصفها وجَلاَّها لهم ليخطبوها، وقال: (أَلا مُشَمِّر للجنة؟ فإنها ـ وربِّ الكعبة ـ نورٌ يتلألأ، وريحانةٌ تهتزّ، وزوجة حَسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مَشيد، ونهر مُطَّرِد ـ الحديث ـ فقال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله نحن المشَمِّرون لها. فقال: قولوا: إنْ شاء الله)[3].

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله: من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة، تحريضاً على عمله لأجلها، وأن تكون هي الباعثة على العمل: لطال ذلك جداً، وذلك في جميع الأعمال.

قالوا: فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولاً؟ ورسول الله ﷺ يحرِّض عليه، ويقول: من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية....

قالوا: وأيضاً فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يحب أن يُسأل، ومن لم يسأله يغضب عليه، وأعظم ما سئل «الجنة»، وأعظم ما استعيذ به منه «النار».

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٤).
(٢) رواه مسلم (٤٨٩).
(٣) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢).

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب، مرضيٌّ له، وطلبها عبودية للرب، والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

قالوا: وإذا خلا العامل من ملاحظة الجنة والنار، وطلب الجنة ورجائها فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهَى باعثه، وكلما كان أشد طلباً للجنة، وعملاً لها؛ كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع لما وصف الجنة للعباد، وزيّنها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه، أخبرهم به مجملاً، كل هذا تشويقاً لهم إليها، وحَثّاً لهم على السعي لها سعيها.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وهذا حثّ على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

والتحقيق: أن يقال: الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور، وأكثر الناس يغلطون في مسَمّى الجنة. وإنّ «الجنة»: اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الرب، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه ورضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً. فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأتى به مُنكَّراً في سياق الإثبات، أي: أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

وفي الحديث الصحيح ـ حديث الرؤية ـ: (فو الله ما أعطاهم الله شيئاً

أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه)[1].

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة، فإن المرء مع من أحب، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهداً وغائباً.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يُداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟!.

وهذا ـ والله ـ هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمَّه العارفون، وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يعبد الله طلباً لجنته، ولا خوفاً من ناره؟

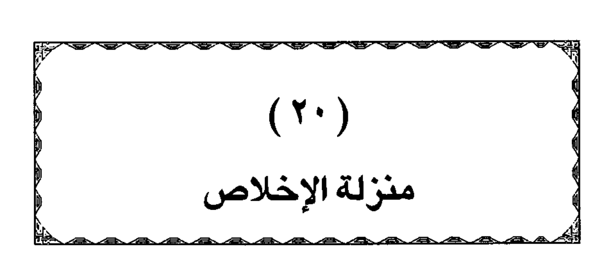
وكذلك «النار» أعاذنا الله منها: فإن ما لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبعد عنه أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ومنها سَرَتْ إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصدّيقين، والشهداء والصالحين: هو الجنة، ومهربهم من النار. والله المستعان، وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٨١).



(٢٠)
منزلة الإخلاص

ومن منازل﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الإخلاص».

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيّنة: ٥].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: هو أخلَصُهُ وأصْوبُهُ. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه لله تعالى: إخلاص القصد والعمل له. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته.

وفي «الصحيح»: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: (ثـلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قَلْبُ مسـلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصَحـة ولاة الأمر، ولُزوم جَماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط من

وَرائِهم)[1]، أي: لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غِلَّه وتُنقيه منه وتخرجه منه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودَغَلاً، ودواء هذا الغل، واستفراغ أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و«سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يُقاتل رِياء، ويقاتل شَجاعة، ويقاتل حمية: فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (مَن قاتَل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله)[2]».

وأَخبر عن أول ثلاثة تُسَعَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فُلان قارئ، وفلان شجاع، وفلان متَصدِّق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله[3].

وقد تنوعت عباراتهم في «الإخلاص» و«الصدق» والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي عن ملاحظة الخلق حتى عن نفسك.

«الصدق» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ١٨٣؛ والدارمي (٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (١٢٣)؛ ومسلم (١٩٠٤).

(٣) رواه مسلم (١٩٠٥).

وقيل: الإخلاص نِسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل ـ رحمه الله ـ: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس: شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد ـ رضي الله عنه ـ: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عمل شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال يوسف بن الحسين: أعزّ شيء في الدّنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرياء.

والإخلاص: أن لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب مِنْ ذَمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم، وقضائهم حوائجه، أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائناً ما كان.

ويعرض للعامل في عمله ثلاثُ آفات: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لِمنَّة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عملَه مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره، وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه.

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسان إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة، إذ الأجرة إنما يستحقها الحر، أو عبد الغير. فأما عبد نفسه فلا.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه: أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ. سئل النبيُّ ﷺ عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: (هو اختِلاسٌ يختلِسه الشيطان من صَلاةِ العَبد)[1]. فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفه ولحظه. فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جلَّ جلاله من حقوق العبودية،

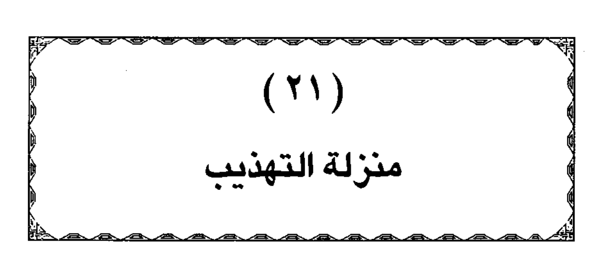
---

(١) رواه البخاري (٧٥١).

وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقها، وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى عن نفسه لله تعالى طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لهما، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضى بعمله، والرضى عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

* * *



(٢١)
منزلة التهذيب

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «التهذيب والتصفية».

وهو سبك العبودية في كير الامتحان، طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والغش.

وهو صعب على المبتدئ، فهو كالمحنة له.

ويكون بتخليص العبودية، وتصفيتها من مخالطة الجهال، وشوب العادة، ووقوف همّة الطالب عندها.

أما مخالطة الجهال: فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردها العبد غير موردها، ووضعها في غير موضعها، وفعلها في غير مُسْتَحَقِّهَا، وفعل أفعالاً يعتقد أنها صلاحٌ، وهي إفسادٌ لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن في موضع الحركة، أو يُقْدِم في موضع إحجام، أو يُحْجِم في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حق الخدمة، كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس.

فالخدمة ما لم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تُبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرُّب، ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها، فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة

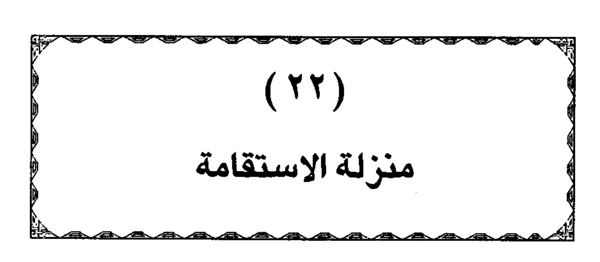
والقربة، ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له، ومعرفة بالنفس وما منها.

وأما شَوْب العادة: وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم - مثلاً - وتمرن عليه، فألِفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أتم اقتضاء، فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية؛ وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

وأما وُقوف همته عند الخدمة، وذلك علامة ضعفها وقصورها، فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمته، بل همته أعلى من ذلك. إذ هي طالبة لرضى مخدومه، فهو دائماً مستصغر خدمته له، ليس واقفاً عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع، فإنها عين الحرمان. فالمحب لا يقنع بشيء دون محبوبه، فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها سقوط فيها وحرمان.

* * *



(٢٢)
منزلة الاستقامة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الاستقامة».

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

فبيّن أن الاستقامة بعدم الطُّغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة ـ أبو بكر رضي الله عنه ـ عن الاستقامة؟ فقال: «أن لا تشرك بالله شيئاً» يريد الاستقامة على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على

الأمر والنهي، ولا تَروغُ رَوَغان الثعالب».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: استقاموا: أخلَصوا العلم لله.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا: أدُّوا الفرائض.

وقال الحسن: استقاموا على أَمرِ الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته.

وقال مُجاهد: استقاموا على شهادة أن لا إلـه إلا الله حتى لحقوا بالله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: استقاموا على محبَّته وعُبوديته فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يَسْرة.

وفي «صحيح مسلم»: عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: (قُلْ آمنتُ بالله. ثم استَقِم)[1]».

وعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: (استَقِيموا، ولن تُحصُوا، واعلَموا أن خَيْر أعمالِكم الصَّلاة، ولا يحافِظُ على الوُضُوء إلا مُؤْمِن)[2].

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السَّدَاد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نَزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (سدِّدوا وقارِبوا، واعلَموا أنه لن يَنْجو أحدٌ منكم بعَمَلِهِ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْل)[3].

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٧)؛ والدارمي (٦٦١).

(٣) رواه البخاري (٣٩)؛ ومسلم (٢٨١٦).

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة: كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

* * *

(٢٣)
منزلة التوكل

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «التوكل».

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال عن أوليائه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾[النمل ٧٩].

وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]. والقرآن مملوء من ذلك.

وفي «الصحيحين»: في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: (هم الذين لا يَسْتَرقُون، ولا يتطيَّرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون)[١].

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، قالها إبراهيم عليه السلام، حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٠)؛ ومسلم (٢٢٠).

﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣][١].

وفي «الصحيحين» : أن رسول الله ﷺ كان يقول : (اللهمَّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ . وعليكَ توكَّلت ، وإليك أنبت . . .)[٢].

وفي «الترمذي» عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً : (لو أَنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّلِهِ لرزَقكُم كما يرزُق الطَّير ، تَغْدو خماصاً وتَرُوح بِطاناً)[٣].

[مكانة التوكّل وأنواع المتوكّلين]:

«التوكل» نصف الدين ، والنصف الثاني «الإنابة» ، فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة .

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين ، لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار ، والفجّار ، والطير والوحش والبهائم ، فأهل السماوات والأرض ـ المكلفون وغيرهم ـ في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم ، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم ، فيتوكلون عليه في الإيمان ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابِّه وتنفيذ أوامره .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله ، فارغاً من الناس .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه ، من رزق أو عافية ، أو نصر على عدو ، أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك .

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).
(٢) رواه البخاري (٧٣٨٣)؛ ومسلم (٢٧١٧).
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٥).

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالُونَها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكُّلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالِف والمهالِك، مُعْتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل: التوكُّل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعدُ في التوكّل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكلٍ على الله في حصول الملك، ومن متوكّل في حصول رغيف.

ومَنْ صدق توكّله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العافية المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إنْ لم يستعن به على طاعة. والله أعلم.

[معنى التوكل وما قيل فيه]:

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته. وما قيل فيه.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: التوكُّل عمل القلب، ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم، فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد.

قال بشـر الحافي ـ رحمـه الله ـ: يقول أحدهم: تـوكلت على الله، يكذب على الله، ولو توكل على الله، رضي بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً.

ومنهم من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه، والسكون إليه.

قال ذو النون: هو ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنّما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال.

وقيل: التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات.

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ: خلع الأرباب وقطع الأسباب. يريد قطعها من تعلق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم من جعله مُرَكَّباً من أمرين أو أمور.

قال أبو تراب النَّخْشَبي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر.

فجعله مركباً من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته بكفايته، وشكره إذا أعطى، وصبره إذا منع.

ومنهم: من جعل التوكل بداية، والتسليم وساطة، والتفويض نهاية.

قال أبو علي الدَّقاق ـ رحمه الله ـ: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمِه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، فالتوكل بداية، والتسليم

وساطة، والتفويض نهاية، فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين.

[حقيقة التوكُّل]:

وحقيقة الأمر أن التوكّل حال مركبة من مجموع أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

١ ـ **فأول ذلك**: معرفة بالرب وصفاته، من قُدرته، وكِفايته، وقَيُّومِيَّته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا رضي الله عنه: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصوّر من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جلَّ جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

٢ ـ **الدرجة الثانية**:[1] إثبات في الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكّله مَدْخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي، أي: إثبات الأسباب يقدح في التوكّل، وأن نفيها تمام التوكّل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه

---

(١) هكذا سماها المصنف درجات، وإنما هي مكونات تدخل في بيان حقيقة التوكل.

بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكّل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

٣ـ الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ها هنا ظن من ظن أن التوكّل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

٤ ـ الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه؛ بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسببها.

٥ ـ الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عزَّ وجلَّ.

فعلى قدر حُسْن ظنك به ورجائك له؛ يكون توكلك عليه، ولذلك فَسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله؛ فقال: التوكل حسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حُسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه.

٦ ـ الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته. وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني الاستسلام

لتدبير الرب لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده.

٧ ـ **الدرجة السابعة**: التفويض. وهو روح التوكّل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبيره له خير من تدبيره لنفسه.

٨ ـ فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلى **درجة «الرضى»**. وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها، فإنما فسره بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ـ رضي الله عنه ـ يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضى بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

فباستكمال هذه الدرجات الثماني[1] يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه فيه، وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

[تعلق التوكُّل بالأسماء الحسنى]:

و«التوكل» من أعمِّ المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى. فإن له تعلقاً خاصاً بعامَّة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات. فله تعلق باسم «الغفار،

(١) الدرجة الثامنة: هي درجة الرضى التي ذكرها أخيراً.

والتـواب، والعفـو، والـرؤوف، والـرحيـم»، وتعلـق بـاسـم «الفتـاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن»، وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسَّره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد: أنه بحسب معرفة العبد يصلح له مقام التوكل، فكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى.

[التوكل والأسباب]:

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل حال النبيّ ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته، وهذا معنى قول أبي سعيد: هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

[ومع هذا فقد أعرض بعضهم] عن الاشتغال بالسبب ليصح لهم التوكل بامتحان النفس.

وهذا مذهب قوم من العباد والسالكين، وكثير منهم كان يدخل البادية بـلا زاد، ويرى حمل الـزاد قدحاً في التوكل، ولهم في ذلك حكايـات مشهورة، وهؤلاء في خفارة صدقهم، وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين، ومع هذا فلا يمكن لبشرٍ البتة ترك الأسباب جملة.

وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تحكى عن القوم فهي جزئيـة حصلت لهم أحياناً، ليست طريقاً مأموراً بسُلوكها، ولا مَقْدورة، وصارت فتنة لطائفتين:

طائفة ظنتها طريقاً ومقاماً، فعملوا عليها؛ فمنهم من انقطع، ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها، بل انقلب على عقبيه.

وطائفة قَدحوا في أرْبابها، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل، مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحد قط فعل ذلك، ولا أخل بشيء من الأسباب.

وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين دِرعَين يَوم أحد[1]، ولم يحضر الصف قط عريانَ، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدله على طريق الهجرة[2]. وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين.

وكان يدَّخر لأهله قوتَ سنة[3] وهو سيد المتوكلين. وكان إذا سافر في جِهاد أو حج أو عمرة حمل معه الزاد والمزاد، وجميع أصحابه، وهم أهل التوكل حقاً.

وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غبارهم. فأحوال القوم مِحكُّ الأحوال وميزانها؛ بها يعلم صحيحها من سقيمها، وكانت هممهم في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح القلوب والبلاد؛ فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدًى وإيماناً، وفتحوا به بلاد الكفر وجعلوها ديار إيمان.

وكانت هممهم أعلى وأجلّ من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي، فيجعله نُصب عَيْنيه، ويَحمل عليه قِوى تَوكُّله.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٩٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦).

(٣) رواه البخاري (٢٩٠٤)؛ ومسلم (١٧٥٧).

[التوكل والتفويض]:

التفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلى مالكه.

ولـم يجئ التفويض في القرآن إلا فيما حكـاه عن مؤمـن آل فرعـون من قولـه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٤٤]، وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتخذه وكيلاً، فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه جَسارة على الباري، لأن التوكل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل، وذلك عين الجسارة.

وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلاً هو محض العبودية، وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله در سيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري، إذ يقول: العلم كله بابٌ من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله بابٌ من التوكل.

فالذي نذهب إليه أن التوكل أوسع من التفويض، وأعلى وأرفع.

[التوكل والثقة بالله تعالى]:

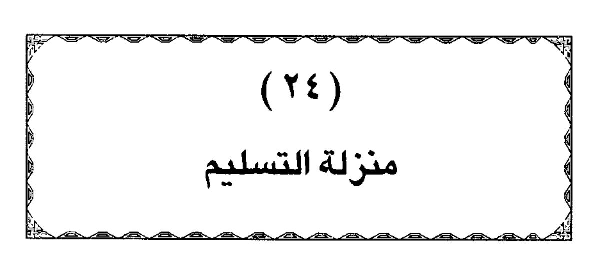
ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الثقة بالله تعالى».

قال تعالى لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]، فإن فعلها هذا عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف.

وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر «التوكل» بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسره بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

* * *



(٢٤)
منزلة التسليم

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «التسليم».

وهي نوعان: تسليم لحُكْمِهِ الديني الأَمْريّ، وتَسليم لحُكْمِهِ الكَونيّ القَدريّ.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسَعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومَضَلَّة أفهام. حَيَّر الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرضى بالقضاء، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية، وبينا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه، ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أُمر بدفعها فلا يجوز له التسليم إليها، بل العبودية مدافعتها بأحكام أخر، أحب إلى الله منها.

اعلم أن «التسليم» هو الخلاص من شبهةٍ تعارض الخبر، أو شهوةٍ تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراضٍ يعارض القدر والشرع، وصاحب هذا التخلُّص هو صاحب القلب الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله تعالى به نفسه من صفاته وأفعاله، أو ما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك، فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوة تعارض أمر الله عزَّ وجلَّ. فالتسليم للأمر: بالتخلص منها.

أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب. فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضى وقدر، فالتسليم التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا تبيّن أنه من أجلِّ مقامات الإيمان، وأعلى طرق الخاصة، وأن «التسليم» هو محض الصِّدِّيقية، التي هي بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس تسليماً أكملهم صديقية.



(٢٥)
منزلة الصبر

[الصبر في القرآن والسنة]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الصبر».

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول ـ الأمر به: نحو قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الثاني ـ النهي عن ضده: كقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الثالث ـ الثناء على أهله: كقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الرابع ـ إيجابه سبحانه محبتّه لهم: كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس ـ إيجاب معيَّته لهم: وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم، ليست معية عامة، وهي معية العلم، والإحاطة.

كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

السادس ـ إخباره بأن الصبر خير لأصحابه: كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

السابع ـ إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم: كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن ـ إيجابه الجزاء لهم بغير حساب: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع ـ إطلاق البُشرى لأهل الصبر: كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر ـ ضمان النصر والمدد لهم: كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

الحادي عشر ـ الإخبار بأن أهل الصبر هم أهل العزائم: كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر ـ الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ إلا أهل الصبر: كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

الثالث عشر ـ الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر: كقوله تعالى لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

الرابع عشر ـ الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من

المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ـ٢٤].

الخامس عشر ـ أنه يُورث صاحبَه درجة الإمامة: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر ـ اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خَيْرُ عيش أدركناه بالصبر».

وأخبر النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح: (أنه ضياء)[1]، وقال: (مَنْ يَتَصَبَّر يُصَبِّره الله)[2].

وفي الصحيح عنه: (عجباً لأمر المؤمن! إنَّ أَمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاء شكَر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر، فكان خيراً له)[3].

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصْرَع فسألته أن يدعو لها: (إن شئتِ صَبرت، ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك، فقالت: إني أتكشف فادْعُ الله: أن لا أتكشف، فدَعا لها)[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).
(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)؛ ومسلم (١٠٥٣).
(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٤) رواه البخاري (٥٦٥٢)؛ ومسلم (٢٥٧٦).

وأمر الأنصار بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض[1].

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر[2]، وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر «أنه إنما يكون عند الصَّدمة الأولى»[3].

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب[4]. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفّر أجره، والجزع والتسخّط والتشكّي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر.

[معنى الصبر وما قيل فيه]:

و«الصبر» في اللغة: الحَبْس والكَفّ. ومنه: قُتل فلان صبراً، إذا أُمسك وحُبس للقتل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]. أي: احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخّط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

قال الجنيد: المسير من الدُّنيا إلى الآخرة سَهْل هيِّن على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.

وقال ذو النون [المصري]: الصبر التباعد من المخالفات.

وقيل: الصبر الوقوف مع البلاء بحُسْن الأدب.

وقيل: هو الفناء في البلوى، بلا ظُهور ولا شكوى.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٩٢)؛ ومسلم (١٨٤٥).
(٢) رواه البخاري (٣٠٢٦)؛ ومسلم (١٧٤١).
(٣) رواه البخاري (١٢٥٢)؛ ومسلم (٩٢٦).
(٤) رواه البخاري (١٢٨٤)؛ ومسلم (٩٢٣).

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومُصطبر، ومُتصبِّر، وصَبُور، وصَبَّار.

فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: متكلف الصبر حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره.

والصبَّار: الشديد الصبر، فهذا في القدر والكَمِّ. والذي قبله في الوصف والكيف.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مطية لا تكبو.

قال أبو علي الدقاق: فاز الصابرون بعِزِّ الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته، فإن الله مع الصابرين.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. فـ«الصبر» دون «المصابرة»، و«المصابرة» دون «المرابطة»، و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطاً لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبيّ ﷺ: (ألا أُخبركم بما يَمحُو الله به الخطايا، ويَرْفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطَى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرّباط، فذلكم الرّباط)[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٥١).

فـ«الصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوك، و«المرابطة»: الثبات وإعداد العدة، وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذلك المرابطة أيضاً: لزوم ثَغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخَربه أو يُشَعثه.

[أنواع الصبر من حيث ارتباطه بالمعصية]:

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكَسْب، والثالث: صبر على ما لا كَسْب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس؛ ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي المواقعة؛ فإنه كان شاباً، وداعيةُ الشباب إليها قوية، وعَزَباً ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته، وغريباً، والغريب لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيِّدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحِرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!.

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة: أحب إلى الشارع من مصلحة

ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

[أنواع الصبر من حيث ارتباطه بالله تعالى]:

وهو ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المُصَبِّر، وأن صَبْر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استَقَلَّت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي: قد جعل نفسه وَقْفاً على أوامره ومحابّه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين.

والصواب: أن الصبر لله فوق الصَّبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل، فإن الصبر لله متعلق بإلـٰهيته، والصبر به متعلق بربوبيته، وما تعلق بإلـٰهيته أَكْمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها، والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصَّبر به مُشْترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به.

وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين، أصحاب مشهد

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولأن الصبر له صبر فيما هو حق له ومحبوب له مَرضيٌّ له ؛ والصبر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا؟!

ولذلك كان صبر نُوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله .

وكذلك كان صَبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف .

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله ، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره ، والله المستعان وعليه التُّكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

[الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر] :

والشكوى إلى الله عزَّ وجلَّ لا تنافي الصبر ، فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعد بالصبر الجميل ، والنبيّ إذا وعد لا يخلف ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وإنما ينافي الصبر شكوى الله ، لا الشكوى إلى الله ، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقةً وضرورة ، فقال : يا هذا ، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشده :

وإذا عَـرَتْـك بَلِيَّـةٌ فـاصبِـر لهـا ... صَبْـرَ الكـريـم فـإنـه بـك أعلـمُ
وإذا شكـوت إلـى ابـن آدم إنمـا ... تَشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرْحمُ

[الصبر والمحبة]:

الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها. وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه هي النكتة التي كان لأجلها من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها، فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن ها هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادّعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكاره بالصبر: لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ ثم أثنى عليه. فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان ـ كما تقدم ـ فجعله قريب التوكل واليقين والإيمان والأعمال والتقوى.

* * *

(٢٦)
منزلة الرضى

[حكم الرضى]:

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الرضى».

وقد أجمع العلماء على أنه مُستحب، مؤكد استحبابه. واختلفوا في وجوبه على قولين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يحكيها على قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلى القول باستحبابه.

قال: ولم يجئ الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروى من الأثر: من لم يَصْبِر على بَلائي، ولم يَرْضَ بقَضائي، فليتَّخذْ رباً سِواي؛ فهذا أثر إسرائيلي، ليس يصح عن النبيّ ﷺ.

[مدار مقامات الدين على الرضى]:

وقال النبيّ ﷺ: (ذاقَ طَعْم الإيمان من رَضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ رَسُولاً)[1].

وقال: (من قال حين يسمع النداء: رَضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ رسولاً؛ غُفرت له ذنوبه)[2].

---

(١) رواه مسلم (٣٤).
(٢) رواه مسلم (٣٨٦).

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمَّنا الرضى بربوبيته سبحانه وإلـٰهيته، والرضى برسوله، والانقياد له، والرضى بدينه، والتسليم له.

ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصِّدّيق حقاً، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أن الرضى كان على لسانه لا على حاله.

فالرضى بإلـٰهيته: يتضمن الرضى بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعلَ الراضي بمحبوبه كل الرضى، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يأمره به، والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضى بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الـرضى بدينه فإذا قـال، أو حكم، أو أمـر، أو نهى رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسَلَّم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه وهواها، وقول مُقلّده وشيخه وطائفته.

وها هنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرُّد، فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله تعالى ورسوله، وروح الأنس به، والرضى به رباً، وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب، وذاق حلاوته، وتَنسَّم روحه؛ قال: اللهم زدني اغتراباً، ووحشة من العالم، وأنساً بك، وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذلَّ عين العزِّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزِبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم، فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق، ولم يَبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان. وغايته: مودَّةَ بينهم في الحياة الدُّنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وَحَقَّت الحقائق، وبُعثِر ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور، وبُلِيَت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر، تبين له حينئذ مواقع الربح من الخسران، وما الذي يَخِفُّ أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان.

[الرضى والموالاة]:

الرضى بالله ربّاً: أن لا يتخذ رَبّاً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلـهاً» يعني: فكيف أَطلبُ رباً غيره، وهو ربّ كل شيء؟!

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ، وهو من الموالاة التي

تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، أي: أفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصَّلاً، مبيّناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها.

فكثير من الناس يرضى بالله رباً، ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً، بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك.

بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان وتمام موالاته، فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويُخاصم إليه، ويَرْضى بحُكْمه. وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه رباً، ولا إلـٰهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضى بالله رباً: أن يَسخط عبادة ما دونه، وهذا هو الرضى بالله إلـٰهاً، وهو من تمام الرضى بالله رباً، فمن أعطى الرضى به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً، لأن الرضى بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلـٰهية.

[هل الرضى كسب أم موهبة؟]:

قال القشيري ـ صاحب الرسالة ـ: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضى» مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال، وليست مكتسبة، فأوله مَقام، ونهايتُهُ حَال.

والتحقيق في المسألة: أن «الرضى» كَسبي باعتبار سَببه، مَوْهبي باعتبار حقيقتِهِ، فيمكن أن يقال: بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنَى منها ثمرة الرضى، فإن الرضى آخر التوكل.

فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضى ولابدّ.

ولكن لعزَّته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها، لم يوجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم، لكن نَدَبهم إليه وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجِنان وما فيها.

فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضى العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضىً قبله، أوجب له أن يرضى عنه، ورضًى بعده، هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضى: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولابدّ.

قيل ليحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قَبِلت، وإن منعتني رَضيت، وإن تركتني عَبدت، وإن دعوتني أَجبت.

[الإحساس بالألم لا ينافي الرضى]:

وليس من شرط «الرضى» ألاّ يُحس بالألم والمكارِه، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخَّطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى، كرضى المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضى طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة إلى أجل غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همة عالية ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

ويسهّل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه، ورحمة ربه وشفقته عليه، وبره به، فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه، وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه، فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيده عنه، ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضى والمحبة تُسَيِّر العبد وهو مستلق على فراشِهِ، فيصبح أمام الركب بمراحل.

[ثمرة الرضى]:

إن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيبَ النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهْلِع من أمور

الدُّنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته.

ولهذا سمى بعض العارفين الرضى: حُسْن الخلق مع الله، فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خُلقه، فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر! ولا يقول: هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد، ولا يقول: الفَقْر بلاء، والعيال هَمٌّ وغم، ولا يسمي شيئاً قضاه الله وقَدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى. فإن هذا كله ينافي رضاه.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحتُ وما لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغِنَى مَطيّتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

وقال ابن أبي الحواري: إن فلاناً قال: وددت أن الليل أطول مما هو، فقال: قد أحسن وقد أساء، أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة. وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله، وأحب ما لم يحبه الله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أُبالي على أي حال أصبحت وأَمْسيت من شدة أو رخاء».

وقال يوماً لامرأته عاتكة، أخت سعيد بن زيد ـ وقد غضب عليها ـ: «والله لأسوءَنَّكِ. فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام، بعد إذ هداني الله؟ قال: لا، قالت: فأي شيء تسوؤني به إذاً؟!».

تريد أنها راضية بمواقع القدر، لا يسوؤُها منه شيء إلا صَرْفُها عن الإسلام، ولا سبيل له إليه.

وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارْضَ عنا، فقالت: أما تستحي أن تسأله الرضى عنك. وأنت غير راضٍ عنه؟ فقال: أستغفر الله، ثم قال لها جعفر بن سليمان: متى يكون العبد راضياً عن الله؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

فالإيمان بالقدر، والرضى به يذهب عن العبد الهمّ والغمّ والحزن.

[أقوال في الرضى]:

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضى: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهَيجَان الحبّ في حَشو البلاء.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له.

وقال الفُضَيل بن عياض لِبشْر الحافي: الرِّضى أفضل من الزهد في الدُّنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ: «أسأَلُك الرِّضى بعد القضاء»، فقال: لأن الرضى قبل القضاء عَزْم على الرِّضى، والرِّضى بعد القضاء هو الرضى.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أمّا بَعد، فإنَّ الخَير كُلَّه في الرِّضى؛ فإن استطعت أن تَرضى وإلا فاصْبِر».

قد اجتمع وهيب بن الورد، وسُفيان الثوري، ويوسف بن أسباط، فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم، فأما اليوم فوددت أني ميت. فقال له يوسف: ولِمَ؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة. فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء. فقال الثوري: ولم تكره الموت؟ فقال: لعلي

أصادف يوماً أتوبُ فيه وأَعمل صالحاً. فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختـار شيئاً، أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله. فقبَّل الثوري بين عينيه. وقال: رُوحانية وربِّ الكعبة.

* * *

(٢٧)
منزلة الشكر

[الحثّ على الشكر]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الشكر».

وهي من أعلى المنازل. وهي فوق منزلة «الرضى» فإنه يتضمن الرضى وزيادة؛ فالرِّضى مُندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ـ كما تقدم ـ والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواصَّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته.

واشتق لهم اسماً من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو «الشَّكُور» وهو موصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية رضى الرب من عبده، وأهله هُم القليل من عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وسمى نفسه «شاكراً، شكوراً». وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر مشكوراً، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

ورضى الرب عن عبده به، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه، كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وفي «الصحيح» عن النبيّ ﷺ: «أنه قامَ حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: (أَفَلا أكونُ عَبْداً شكوراً؟!)[١]».

وقال لمُعاذ: (والله يا مُعاذ، إني لأُحِبُّك، فلا تنسَ أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أَعِنّي على ذِكْرك، وشكرك، وحُسْنِ عِبادتك)[٢].

[حقيقة الشكر]:

وحقيقة الشكر في العبودية، وهي ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

و«الشكر» مبني على خمسة قواعد: خُضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافُهُ بنعمته، وثَناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يَكْره.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)؛ ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢).

فهذه الخمس: هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عُدم منها واحدة اختلّ من قواعد الشكر قاعدة. وكل من تكلم في الشكر وحَدِّه، فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

قلت: يحتمل كلامه أمرين:

أحدهما: أن يفنى برؤية المنعم عن رؤية نعمه.

والثاني: أن لا تحجبه رؤية نعمِهِ ومشاهدتها عن رؤية المنعم به، وهذا أكمل، والأول أقوى عندهم.

والكمال: أن تشهد النعمة والمنعم، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه، ويعترف له بها، ويثني عليه بها، ويحبه عليها، لا أن يفنى عنها، ويغيب عن شهودها.

والشكر معه المزيد أبداً، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتى لم تر حالك في مزيد، فاستقبل الشكر.

[الثناء على المنعم شكر]:

الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها، وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا، قال مقاتل؛ يعني: اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة من جبر اليتم، والهدى بعد الضلالة[١]، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر مرفوعاً: (من صُنِع إليه معروف فليَجْزِ به، فإن لم يجد ما يَجْزِي به فليُثْنِ عليه، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإنْ كَتَمه فقد كَفَره، ومن تَحلَّى بما لم يُعطَ كان كلابس ثَوْبي زور)[٢].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها، فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: (من لم يَشْكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شُكْر، وتركه كُفر، والجماعة رحمة، والفُرقة عذاب)[٣].

---

(١) جاء في هامش نسخة الأستاذ بشير محمد عيون: على هامش المخطوط: لا يفهم عن المصطفى ﷺ، ضلالة غير المحبة، فقوله تعالى في حقه: ﴿ضالاً﴾ أي: محباً فهدى، فصيّرك محبوباً بالهداية لك إلى كنز المحبة الأزلية الذاتية لها. ومنه قوله تعالى عن نبيه يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام وعلى سائر الأنبياء والمرسلين إخباراً عما قاله بنوه في حقه: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ أي: في محبتك ليوسف. فافهم، والله أعلم.

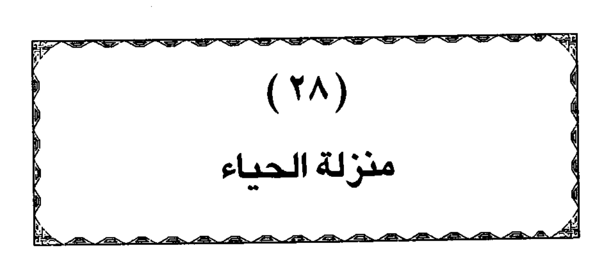
(٢) رواه أبو داود (٤٨١٣)؛ وفي الأدب المفرد للبخاري (٢١٥).

(٣) رواه أحمد: ٤/ ٣٧٥.

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي بَلِّغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارُها من شكرها.

* * *



(٢٨)
منزلة الحياء

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الحياء».

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ: «مَرَّ برجل ـ وهو يعظ أخاه في الحياء ـ فقال: (دَعْه، فإنَّ الحياء من الإيمان)[١]».

و«فيهما» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الحياءُ لا يأْتي إلا بِخير)[٢].

و«فيهما»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: (الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعون شُعبة ـ أو بضع وستُّون شعبة ـ فأفضلها: قول لا إلـه إلا الله، وأدناها إماطَة الأذى عن الطريق، والحياءُ شُعبة من الإيمان)[٣].

«وفيهما»: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه قال: (كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدْرها، فإذا رأى شيئاً يَكْرَهُهُ عرفناه في وجهه)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤)؛ ومسلم (٣٦).
(٢) رواه البخاري (٦١١٧)؛ ومسلم (٣٧).
(٣) رواه البخاري (٩)؛ ومسلم (٩٣٥).
(٤) رواه البخاري (٣٥٦٢)؛ ومسلم (٢٣٢٠).

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: (إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تَسْتَحْيِ فاصْنَع ما شِئت)[1]. وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه أمر تهديد. ومعناه الخَبَر، أي: من لم يَسْتَحْيِ صَنع ما شاء.

والثاني: أنه أَمر إباحة، أي: انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يُسْتَحْيَى منه فافعله. والأول أصح. وهو قول الأكثرين.

وفي «الترمذي» مرفوعاً: (اسْتَحْيُوا من الله حقَّ الحياء)، قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله، قال: (ليس ذلكم، ولكن مَن استحيَى من الله حق الحياء فليحفظ الرَّأْس وما وَعى، وليحفظ البَطْن وما حَوى، وليذكُرِ الموتَ والبِلى، ومن أراد الآخرة تركَ زينة الدُّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحْيى من الله حق الحياء)[2].

* * *

و«الحياء» من الحياة، ومنه «الحَيا» للمطر، لكن هو مَقْصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيَى كان الحياء أتم.

قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التَّقْصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

ومن كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يُسْتَحْيَى منه، وعمارة القلب: بالهيبة والحياء، فإذا ذَهبا من القلب لم يبق فيه خير.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٠).

وقال ذُو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك، والحب ينطق والحياء يسكت. والخوف يُقلق.

وقال السري: إن الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع مكثاً، وإلا رحلا.

وفي أَثر إلٰهي: «يقول الله عزَّ وجلَّ: ابن آدم. إنك ما استحييت مني أنسيت الناسَ عيوبَك، وأنسيتُ بِقاع الأرض ذُنوبَكَ، ومَحَوْتُ من أُمِّ الكتاب زَلاّتك، وإلا نَاقَشْتُكَ الحِساب يومَ القيامة».

وفي أثر آخر: «أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك. فإن اتعظت، وإلا فاستحيِ مني أن تَعظ الناس».

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: خمس من علامات الشّقْوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدُّنيا، وطول الأمل.

* * *

وقد قُسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جِناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استِصْغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم ـ عليه السلام ـ لما فَرَّ هارباً في الجنة، قال الله تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا ربِّ، بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سُبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبيّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطَوَّلوا عنده، فقام واستحيى أن يقول لهم: انْصرفوا[1].

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن يسأل رسول الله ﷺ عن المَذي لِمكان ابنته منه[2].

وحياء استحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عزَّ وجلَّ حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها. وفي أثر إسرائيلي: «إن موسى عليه السلام قال: يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك إياها يا رب، فقال الله تعالى: سَلْني حتى مِلْح عجينتك، وعَلَف شاتك».

وقد يكون لهذا النوع من الحياء سببان: أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه. والثاني: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه حتى إنه إذا خطر على قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشَّرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان، فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة، وهذا له سببان:

أحدهما: هذا. والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ

---

(١) البخاري (٥١٦٨)؛ ومسلم (١٤٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩)؛ ومسلم (٣٠٣).

السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء التكرم؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وبيعها بالدون، فيجد نفسه مستَحْيياً من نفسه، حتى كأنّ له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيى من نفسه، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

* * *

(٢٩)
منزلة الصدق

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الصدق».

وهي منزلة القَدَم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين، به تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سَيْف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه، ولا واجَهَ باطلاً إلا أرداه وصرعه، مَنْ صال به لم ترد صولته، ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمته.

فهو روح الأعمال ومَحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي منه دخل الواصلون إلى حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنان تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل وَمَعِين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصّ المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، فهم الرَّفيقُ الأعلى ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، ولا يزال الله يُمدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً

منه وتوفيقاً، ولهم مزية المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى عَنْ أَهْلِ الْبِرِّ وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان، والإسلام والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق، فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسهُ الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

[أنواع الصدق]:

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فالذي جاء بالصدق هو من شأنُهُ الصدقُ في قوله وعمله وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروة سَنَام الصدّيقية، حتى سُمّي «الصِّدِّيق» على الإطلاق، و«الصدّيق» أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

[حقيقة الصدق]:

وقد أمر الله سبحانه رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَه ومَخْرَجه على الصِّدق، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَمَ صدق، ومَقْعَدَ صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مَدْخل الصدق، ومَخْرَج الصدق، ولسان الصدق، وقَدَم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء؛ هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأعمال والأقوال، وجزاء ذلك في الدّنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته، متصلاً بالظَّفَر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مَخْرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له سَاق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو أصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله؛ فاتصل به التأييد والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدُّنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبَوار.

وقد فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجَلّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي بالله ولله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب والله المستعان.

وأما لسانَ الصدق: فهو الثناء الحَسَن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب. كما قال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، والمراد باللسان ها هنا: الثَّناء الحسن، فلما كان باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصدق، جزاء وفاقاً، وعبر به عنه.

فإن اللسـان يراد به ثلاثـة معان: هذا، واللُّغة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، ويراد به الجارحة نفسها، كقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق ففسـر بالجنة، وفسـر بمحمد، وفسـر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه، ويقدمون عليه يوم القيامة، وهم قَدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غيـر باطل، ودائم غيـر زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

والصدق: هو حصـول الشـيء وتمامه، وكمال قوته، واجتمـاع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة إذا كانت قوية تامة، وكذلك محبة صادقة، وإرادة صادقة، وكذلك قولهم: حلاوة صادقة، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيء.

ومن هذا أيضاً صدق الخبر، لأنه وجود المخبر بتمام حقيقته في ذهن السامع.

فالتمام والوجود نوعان: خارجي، وذهني. فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادق حصلت له حقيقة المخبر عنه بكماله وتمامه في ذهنه.

[علامة الصدق]:

ومن علامات الصدق طُمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب

حصول الريبة، كما في الترمذي ـ مرفوعاً ـ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (الصِّدق طُمأنينة، والكَذِب رِيبة)[1].

وفي «الصحيحين»: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن الصِّدْقَ يَهدي إلى البرِّ، وإن البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّة، وإن الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً. وإن الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجور، وإن الفُجورَ يَهْدي إلى النار، وإنَّ الرجلَ ليَكذِبُ حتى يُكتب عند الله كذّاباً)[2]. فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها، وهي غايته، فلا يَنالُ درجتها كاذبٌ البتة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله، ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، وبنفي ما أثبته لنفسه، أو إثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه، بتحليل ما حرمه، وتحريم ما لم يحرمه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه، كل ذلك مناف للصديقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال بالتحلِّي بحِلْية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين، وليس في الحقيقة منهم.

فلذلك كانت الصديقية كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهراً وباطناً.

[كلمات في الصدق]:

قال عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله ـ: الصدق الوفاء لله بالعمل.

وقيل: موافقة السر النطق.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)؛ ومسلم (٢٦٠٦).

وقيل: استواء السر والعلانية، يعني: أن الكاذب علانيته خير من سريرته، كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

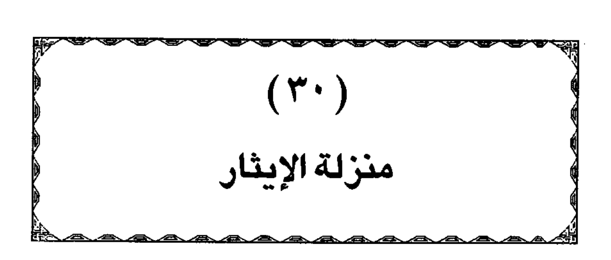
وقال إبراهيم الخواص: الصادقُ لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والهيبة، والملاحة.

وفي أثر إلـهي: «من صَدقني في سَرِيرته صدقتُه في عَلانِيَتِه عند خلقي».

* * *



(٣٠)
منزلة الإيثار

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الإيثار».

قال الله تعالى في مدح أهله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشُّح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حَريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: (إياكم والشُّحّ، فإن الشُّح أهلَك من كان قبلكم، أَمَرهُم بالبُخل فبَخِلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطَعوا)[١].

فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود.

وكذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك ـ رضي الله عنه ـ: سَخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النَّفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاثة:

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨).

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه، فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبْقِيَ له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطى، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهي مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأَثرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها النبي ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: (إنكم سَتَلْقون بعدي أَثَرة، فاصْبِروا حتى تَلْقوني على الحَوْض)[1]، والأنصار: هم الذي وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩]، فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى إنه مَرِض مرة، فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أَخْزَى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة مَنْ عادَه.

[مراتب الجود]:

و«الجود»: عشر مراتب:

أحدها: الجُود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يَجُود بالنفس، إذ ضَنَّ الجواد بها   والجود بالنفس أَقْصَى غَايةِ الجُودِ

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات المُلْتمِس.

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٧)؛ ومسلم (١٠٥٩).

الثالثة: الجود براحَتِه ورَفاهيته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعباً وكَدّاً في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذاته لمسامِرِه، كما قيل:

مَتيَّمٌ بالنّدَى، لو قالَ سائلُه: هَبْ لي جميع كَرَى عينيك، لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعِلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تَطْرحه عليه طرحاً.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالَبُ بها العبد، كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال النبي ﷺ: (يُصْبِح على كل سُلامَى من أَحدِكم صَدقةٌ، كلّ يَومٍ تطلع فيه الشمس: يَعدل بين اثنين صَدقة، ويعينُ الرجل في دابته، ليحمِله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صَدقة، والكلمة الطيبة صَدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة، ويُميط الأذى عن الطريق صدقة) متفق عليه[1].

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة رضي الله عنهم، كان إذا أصبحَ قال: اللهم إنه لا مال لي، فأتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شَتمني، أو قذفني فهو في حل، فقال النبي ﷺ: (من يَستطيع منكم أن يكونَ كأبي ضَمْضَم؟)[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٨٩)؛ ومسلم (١٠٠٩).

(٢) جاء عند أبي داود (٤٨٨٧) قال ﷺ: (أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم؟ قالوا: =

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزّ له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدُّنيا قبل الآخرة، وهذا جُود الفُتوَّة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة: ٤٥].

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: (لا تَحْقِرَنَّ من المَعْروف شَيئاً، ولو أن تلقى أخاكَ ووجهُك مُنْبَسط إليه)[1]، وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، وهذا هو الذي قال عبد الله بن المبارك: «إنه أَفْضل من جود النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: إن لم أعطك مالاً تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم، وما في أيديهم، تَفْضُل عليهم، فتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزية وتأثير خاص في القلب والحال،

= ومن أبو ضمضم؟ قال: رجل فيمن كان قبلكم...) وذكر الحديث.

(١) رواه أبو داود (٤٠٨٤).

والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان.

[إيثار رضى الله تعالى]:

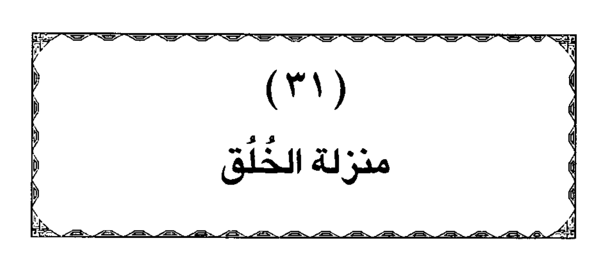
إيثار رضى الله عزَّ وجلَّ على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق.

وهذه هي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا محمد ﷺ.

فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله. واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالى، وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه، ولم يأخذْه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان هَمُّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين، فبلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين. من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله ﷺ.

* * *



(٣١)
منزلة الخُلُق

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الخُلُق».

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قال ابنُ عباس ومُجاهد: لعلى دينٍ عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عنه من نهي الله.
والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي «الصحيحين»: أنَّ سعد بن الحكم بن عامر، سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: (كانَ خُلُقُه القرآن)(١).

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال جعفر بن محمد ـ رضي الله عنهما ـ: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أَجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

وأخبر رسول الله ﷺ: «أنَّ البِرَّ: حُسْنُ الخُلُق»، ففي «صحيح مسلم»: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

والإثم؟ فقال: (البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثْم ما حاك في صَدْرِك وكرهتَ أن يَطَّلعَ عليه النَّاس)[1].

فقابل البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق. والإثم: حوازُّ الصدور، هذا يدلُّ على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم.

وفي «الصحيحين»: عنه ﷺ: (خياركم أحاسنكم أخلاقاً)[2].

[أركان حسن الخلق]:

الدين كلُّه خُلُق، فمن زادَ عليك في الخُلق زاد عليك في الدين.

وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى.

وقيل: حسن الخُلُق: بذل الجميل، وكف القبيح.

وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحش، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عِزَّة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩)؛ ومسلم (٢٣٢١).

ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال النبي ﷺ: (ليس الشّديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[1]، وهذه حقيقة الشجاعة، وهي ملَكة يقتدر بها على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسّطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسّط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقِحَة، وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهوّر، وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنَّهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه: أخلاق مذمومة.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)؛ ومسلم (٢٦٠٩).

وكـل خلق محمود مكتَنَفٌ بخلقين ذميمين، وهو وسـط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «الوسط» انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت إما إلى كِبَر وعُلُو، وإما إلى ذُلٍّ ومهانة وحقارة. . .

[طريق تزكية النفوس]:

إن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوى وأعجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلاً نَضْربُه مطابقاً لما نريده، وهو نهر جار في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه، مُنْتَهٍ إلى تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرِّب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق:

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكْره وحَبْسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحال، وعلمت أنه لا يُغني عنها شيئاً، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية [عليهم] ذلك أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع، وكلما سدُّوه من موضع نبع من موضع،

فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار .

فجاءت **فرقة ثالثة**، خالفت رأي الفريقين؛ وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى خراب العمران، وصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات، وسقوها به فأنبتت لهم أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هي أصوب الفرق في شأن هذا النهر .

فإذا تبيّن هذا المثل، فالله سبحانه اقتضت حكمته أن ركَّب الإنسان ـ بل سائر الحيوان ـ على طبيعة محمولة على قوتين : غضبية وشهوانية، وهي الإرادية .

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان، فبقوة الشهوة والإرادة يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوة الغضب يدفع المضارّ عنها .

فإذا تبيّن هذا فالنهر مثال هاتين القوتين وهو مُنْصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها ويتلفها ولابد .

فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرَّب ديار الإيمان، وقَلَع آثاره، وهدم عمرانه، وهم أهل النار يوم القيامة .

وأما النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق .

ـ فأصحاب الرياضات والمجاهدات، راموا قطعه من ينبوعه، فأبت ذلك حكمة الله تعالى، وما طبَع عليه الجِبِلَّة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة، فاشتد القتال، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات .

ـ وفرقة أعرضوا عنها وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكِّنوا نهرها من إفساد عمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه، فإذا وصل إلى بناء محكم لم يهدمه، بل يأخذ عنه يميناً وشمالاً، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء[1].

إذا تبيّن هذا، فهذه الفرقة الثالثة رأت أن هذه الصفات ما خلقت سُدًى ولا عبثاً، وأنها بمنزلة ماء يُسْقى به الورد، والشوك، والثمار، والحطب، وأنَّ ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر، فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، فصرفوا مجراه إلى هذه الغراس، وأبقوه على حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد رَأَى النبي ﷺ أبا دُجانة يتبخْتر بين الصفين، فقال: (إنها لَمِشْية يُبْغِضُها الله، إلا في مِثل هذا المَوْضع).

فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصفة، وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها؟ فقال لي في جملة كلامه: النفس مثل الباطُوس ـ وهو جُب القَذَر ـ كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت له: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السَّفَر قط، ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن السير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً، وأثنى على قائله.

وفي الحديث الآخر ـ وأظنه في «المسند»: (إنَّ مِنَ الخُيَلاء ما يحبها الله، ومنها ما يُبغضها الله، فالخيلاء التي يحبُّها الله اخْتِيال الرجل في الحَرْب، وعند الصَّدَقة)[1].

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلاً؟.

فصاحب الرياضات، والعامل على قطع أصول هذه الصفات مجتهد على قطع مادة الخيلاء والكبر، وهذا قد أقرها في موضعها وأعدها لأقرانها، وهو مصرف لها في مصرف يعينه على مطلبه ويوصله إليه.

وكذلك خلق الحسد فإنه لا يذم، وهو كالصدقة لذره الغبطة والمنافسة كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار)[2]، فالحسد يوصل إلى المنافسة التي يحبها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، فلا تعمل على انهدام هذا الخلق من نفسك، بل اصرفه إلى الحسد المحمود الحامل على المنافسة في الرتب العالية.

والمقصود: أن رسوم الطبيعة وقواها لا يمكن تعطيلها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له التي لا تحرم عليه ديناً ولا تقطع عليه طريقاً، ولا تفسد عليه حاله مع الله، ولا تسقطه من عينه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هو معتنٍ بهذا الشأن وعامل على صلاح قلبه وتزكية نفسه، وإنما دخل الداخل حيث ظن أن تزكية النفس

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٥)؛ ومسلم (٨١٥).

وتهذيب الأخلاق بتيسير طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات.

فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً وبياناً، وإرشاداً، لا خلقاً ولا إلهاماً. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه دون معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى صلاحها وتزكيتها إلا على أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

[الخلق فطري وكسبي]:

فإن قلت: هل يمكن أن يكون الخُلُق كسبياً، أو هو أمر خارج عن الكسب؟.

قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سَجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عَبْد القيس رضي الله عنه: (إنّ فيكَ لخلقين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة، فقال: أخلُقين تخلّقتُ بهما، أم جَبَلني الله عليهما؟ فقال: بل جبلَكَ الله عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبُّهما الله ورسوله)(١).

فدلَّ على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان

---

(١) رواه مسلم (١٧).

النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: (اللهمَّ اهدِني لأَحْسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرِف عَنِّي سيِّئ الأخلاق، لا يصرِفُ عني سَيِّئها إلا أنتَ)[1] فذكر الكسب والقَدَر. والله أعلم.

* * *

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٣٢)
منزلة التواضع

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «التواضع».

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي سكينة ووقاراً متواضعين، غير أشرين، ولا مَرِحين ولا متكبرين، قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: علماء حلماء. وقال محمد ابن الحنفية ـ رضي الله عنه ـ: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سُفِهَ عليهم حَلُموا.

وفي «صحيح مسلم»: من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ اللهَ أوحى إليَّ: أن تواضَعوا، حتى لا يَفْخَر أحدٌ على أَحد، ولا يَبغي أحدٌ على أَحد)(١).

وفي «صحيح مسلم»: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْر)(٢).

وفي «الصحيحين» مرفوعاً: (ألا أخبرُكم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جَوَّاظ مُسْتكبر)(٣).

وفي حديث احتجاج الجنة والنار: (أن النار قالت: ما لي لا يدخلني

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) رواه مسلم (٩١).
(٣) رواه البخاري (٤٩١٨)؛ ومسلم (٢٨٥٣)، والعتل: الغليظ الجافي، والجواظ: الضخم المختال.

إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضُعفاء الناس وسَقَطُهم) وهو في «الصحيح»[1].

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله عزّ وجلّ: العزَّة إزاري، والكِبْرياء رِدائي، فمن نازعني عَذَّبتُه)[2].

وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم[3].

وكانت الأمَة تأخذ بيده ﷺ. فتنطلق به حيث شاءت[4].

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله[5].

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وقال: (لو دُعيت إلى كُراع ـ أو ذراع ـ لأجبت، ولو أُهدي إليَّ ذراع ـ أو كراع ـ لقبلت) رواه البخاري[6].

وكان ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

* * *

سئل الفضيل بن عياض ـ رضي الله عنه ـ عن التواضع؟ فقال: يخضع

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥٠)؛ ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٣) رواه البخاري (٦٢٤٧)؛ ومسلم (٢١٦٨).

(٤) رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٥) رواه البخاري (٦٧٦).

(٦) رواه البخاري (٢٥٦٨).

للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لها قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: هو خفض الجناح، ولِين الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي ـ رحمه الله ـ: هو أن لا يرى لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى في الخلق شراً منه.

وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: هو قبول الحق ممن كان، والعِزُّ في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ: رأيتُ عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قِرْبة ماء، قلت: «يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مُطيعين دخَلَت نفسي نخوة، فأحببت أن أَكْسِرها».

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره، ويقول: طَرِّقوا للأمير.

وقال رجاء بن حيوة: قَوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ـ وهو يخطب ـ باثني عشر درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخُفَّين وقلنسوة.

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم شريت أُمَّك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك ـ لا أكثر الله في المسلمين مثله ـ أنا؛ وأنت تمشي هذه المشية؟!.

* * *

أول ذنب عصيَ اللهُ به الكِبر والحرص، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآلَ أمره إلى ما آلَ إليه، وذنب آدم على نبينا وعليه السلام كان من

الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم عليه السلام أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إبليس إلى النار، وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة.

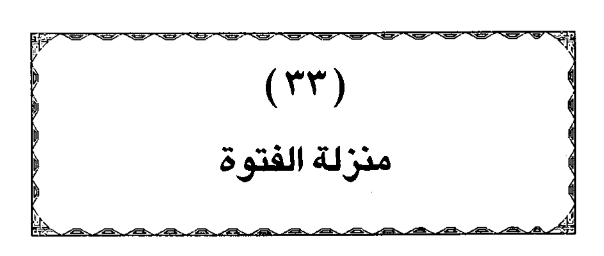
سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: التكبّر شر من الشرك، فإنَّ المتكبّر يتكبّر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره.

وقال ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) رواه مسلم[1].

* * *

---

(١) رواه مسلم (٩١).



(٣٣)
منزلة الفتوة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الفتوة».

هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المُروءة، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بغيره.

و«الفتوة»: إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلُّق وحُسن الخلق، ومنزلة الفتوة، ومنزلة المروءة، وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»، بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: (إن الله بَعثني لأُتَمم مكارمَ الأخلاق، ومحاسِنَ الأفعال)[1].

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣).

فاسم «الفتى» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدَث، ولذلك لم يجئ اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق.

وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

وأقدم من علمته تكلم في «الفتوة» جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض. والإمام أحمد، وسهل بن عبد الله، والجنيد. ثم الطائفة.

فيذكر أن جعفر بن محمد سئل عن الفتوة؟ فقال للسائل: ما تقول أنت؟ فقال: إن أعطيت شكرت، وإن منعت صبرت، فقال: الكلاب عندنا كذلك، قال السائل: يا بن رسول الله! فما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا.

وقال الفضل بن عياض ـ رحمه الله ـ: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه ـ في رواية ابنه عبد الله ـ عنه، وقد سئل: ما الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة كلاماً فيها سواه.

وقال الحارث المحاسبي ـ رحمه الله ـ: الفتوة أن تنصف ولا تنتصف.

وقال عمرو بن عثمان المكي ـ رحمه الله ـ: الفتوة حسن الخلق.

وقال محمد بن علي الترمذي ـ رحمه الله ـ: الفتوة أن تكون خصماً لربك على نفسك.

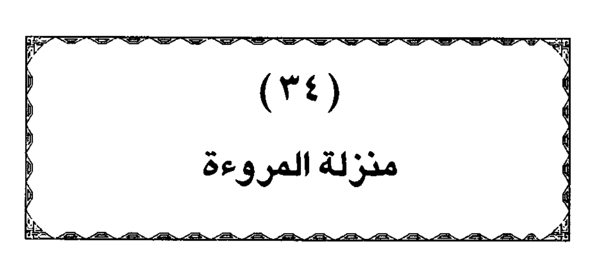
وقيل: الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال الدقاق ـ رحمه الله ـ: هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي. وهو يقول: «أمتي أمتي».

ومن الفتوة التي لا تلحق: ما يذكر أن رجلاً نام من الحاج في المدينة، ففقد همياناً فيه ألف دينار، فقام فزعاً، فوجد جعفر بن محمد ـ رضي الله عنهما ـ فعلق به، وقال: أخذت همياني، فقال: أي شيء كان فيه؟ فقال: ألف دينار، فأدخله داره ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر رضي الله عنه معتذراً بالمال، فأبى أن يقبله منه، وقال: شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبداً، فقال الرجل للناس: من هذا؟ فقالوا: جعفر بن محمد رضي الله عنهما.

قال أبو علي الدقاق ـ رحمه الله ـ: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأوهمها أنه أصم، فسُرَّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يَسمع الصوت، فلقب بحاتم الأصم، وهذا التغافل هو نصف الفتوة.

* * *



(٣٤)
منزلة المروءة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «المروءة».

والمروءة: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

ولهذا قيل في حد المروءة: إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدِّها: هي استعمال ما يجمل العبد ويزينه، وترك ما يدنِّسه ويشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «المروءة» تجنب الدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعَه المحمودة عقلاً وعرفاً وشرعاً.

ومُروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه. فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة. وهي على ثلاث درجات:

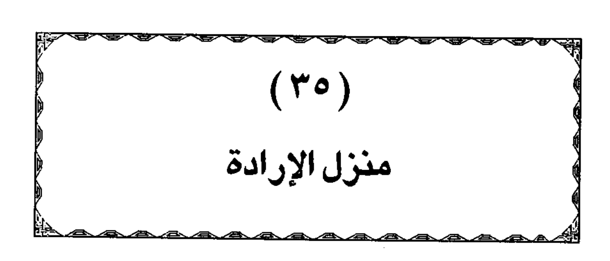
الأولى: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يحملها قسراً على مراعاة ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين.

والثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل.

والثالثة: المروءة مع الحق سبحانه بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَسٍ، وبإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و«الفتوة» فإنه بعينه في هذه المنزلة.

* * *



(٣٥)
منزل الإرادة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الإرادة».

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ الأنعام: ٥٢].

والإرادة عند أرباب السلوك: هي التجرّد عن الإرادة(١).

وقد تنوعت عبارات القوم عنها وغالبهم يُخبِر عنها بأنها تَرك العادة.

ومعنى هذا أن عادة الناس غالباً التعريج على أوطان الغفلة، وإجابة داعي الشهوة، والإخلاد إلى أرض الطبيعة، والمريد منسلخ عن ذلك، فصار خروجه عنه أمارة ودلالة على صحة الإرادة، فسمي انسلاخه وتركه إرادة.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحق.

وقال الدّقاق ـ رحمه الله ـ: الإرادة لوعة في الفؤاد، لذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تأجّج في القلوب.

---

(١) قال عبد الكريم القشيري في رسالته: «الإرادة: بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنما سميت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله.
فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عزَّ وجلَّ سمي إرادة، تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها، والمريد ـ على موجب الاشتقاق ـ من له إرادة، كما أن العالم من له علم. . . ولكن المريد في عرف هذه الطائفة: من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أنَّ من لا إرادة له ـ على موجب الاشتقاق ـ لا يكون مريداً».

وقيل: من صفات المريد: التحبب إلى الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصله إليه، والقناعة بالخمول، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليِّه ومعبوده.

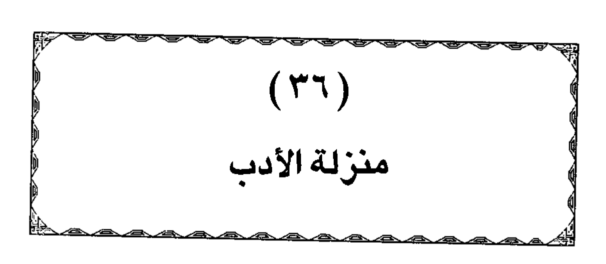
وقيل: من حكم المريد أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة وكلامه ضرورة.

وقال أبو عثمان الحريري ـ رحمه الله ـ: من لم تصحّ إرادتُه ابتداءً، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً.

وقال: المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به، وإذا تكلم انتفع به من سمعه، ومن سمع شيئاً من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها.

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ: أَول مقام المريد إرادة الحق بإسقاط إرادته.

* * *



(٣٦)
منزلة الأدب

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الأدب».

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، قال ابن عباس وغيره: عَلِّموهم وأَدِّبوهم.

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

قال أبو علي الدّقاق ـ رحمه الله ـ: العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلى الله.

وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: الأدب: الوقوف على المستحسنات، فقيل له: وما معناه؟ فقال: أن تعامله ـ سبحانه ـ بالأدب سراً وعلناً.

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ: من تأدب بأدب الله، صار من أهل محبته.

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وسئل الحسن البصري ـ رحمه الله ـ عن أنفع الآداب؟ فقال: التفقه في

الدين، والزهد في الدُّنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال أبو حفص ـ رحمه الله ـ: حسن الأدب في الظاهر، عنوان حسن الأدب في الباطن، فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء.

وقال سهل ـ رحمه الله ـ: من قهر نفسه بالأدب، فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس. أراد معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.

* * *

والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه، وأدب مع خلقه.

[الأدب مع الله سبحانه]:

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة المرء معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقته عليه.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، ولم يقل: لم أقله، وفرقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه

وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرّده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم نَفَى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عزَّ وجلَّ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال: ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم قال: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإذا عذبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم، لأن مرتبة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرْحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيدَه؟ لولا فرط عُتوِّهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم، فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على مَنْ غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠]، ولم يقل: «وإذا أمرضني»، حِفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل: «فأراد ربك أن أعيبها»، وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: «أراده ربهم»، ثم قالوا: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَىَّ مِنۡ خَيۡرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل: «أطعمني».

* * *

ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يَسْتُر عورته، وإن كان خالياً لا يراه أحد[1] أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

و«الأدب»: هو الدِّين كله، فإن سَتْر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهراً، ولهذا كانوا يستحبّون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أَمَرَ اللهُ بقَدْرٍ زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠١٧).

ومن الأدب: «نَهى النبي ﷺ المصلي أنْ يَرْفَعَ بصرَه إلى السَّماء»[1].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق.

والمقصود أن الأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً، والله المستعان.

[الأدب مع الرسول ﷺ]:

وأما الأدب مع الرسول ﷺ فالقرآن مملوء به.

فرَأْس الأدب معه كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكّاً، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وَحَّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره.

ومن الأَدب مع الرسول ﷺ أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا باقٍ إلى يوم

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠).

القيامة ولم يُنسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

ومن الأدب معه أن لا ترفع الأصواب فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجباً لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أَمْر جامع ـ من خطبة، أو جهاد، أو رباط ـ لم يذهب أحد منهم مَذْهباً في حاجة له حتى يستأذنه.

[الأدب مع الخلق]:

وأما الأدب مع الخلق فهو معاملتهم ـ على اختلاف مراتبهم ـ بما يليق بهم، ولكل مَرْتبة أَدب؛ وللمراتب فيها أَدبٌ خاص.

فمع الوالدين: أدب خاص، وللأب منهما: أدب هو أخص به.

ومع العالم أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكُلِّ حالٍ أدب فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب، وللدخول وللخروج، وللسفر وللإقامة، وللنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجْلِب خير الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نَجَّى صاحبه من حَبْس الغار حين

أطبقت عليهم الصخرة[1]؟ والإخلال به مع الأم ـ تأويلاً وإقبالاً ـ على الصلاة كيف امتُحِن صاحبه بهدم صومعته[2] وضَرْب الناس له، ورَمْيه بالفاحشة؟.

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟

وانظر قلة أدب عَوْف مع خالد كيف حَرمه السَّلَب بعد أن بَرَد بيديه[3]؟

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه وأرضاه مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدَّم بين يديه. وقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رَسول الله ﷺ»[4]. كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه ـ وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك ـ جَمْزاً، وسعياً إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدَّام تنقطع فيها أعناق المطي.

* * *

---

(١) أخرج البخاري (٢٢١٥)؛ ومسلم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل...) الحديث.

(٢) رواه البخاري (١٢٠٦)؛ ومسلم (٢٥٥٠).

(٣) أخرج مسلم (١٧٥٣) من حديث عوف بن مالك قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد ـ وكان والياً عليهم ـ فأتى رسولَ الله ﷺ عوفُ بن مالك فأخبره، فقال لخالد: (ما منعك أن تعطيه سلبه؟) قال: استكثرته يا رسول الله! قال: (ادفعه إليه)، فمر خالد بعوف فجرَّ بردائه، ثم قال: هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله ﷺ؟ فسمعه رسول ﷺ فاستغضب، فقال: (لا تُعْطِهِ يا خالد! لا تُعْطِهِ يا خالد! هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها، ثم تحين سقيها، فأوردها حوضاً، فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركتْ كدرَهُ، فصفوه لكم وكدره عليهم).

(٤) رواه البخاري (٦٨٤)؛ ومسلم (٤٢١).

(٣٧)
منزلة اليقين

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «اليقين».

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعملُ القوم إنما كان عليه، وإشارتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخصَّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال ـ وهو أصدق القائلين ـ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. وخَصَّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العاملين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ ـ ٥].

فـ«اليقين»: روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب رحى هذا الشأن الذي عليه مداره.

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ به نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وَهَمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه ورضًى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابةً إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واختلف فيه: هل هو كَسْبِيّ، أو مَوْهبي؟:

فقيل: هو العلم المستودع في القلوب يشير إلى أنه غير كسبي.

وقال سَهل ـ رحمه الله ـ: اليقين من زيادة الإيمان، ولا ريب أن الإيمان كَسْبي.

والتحقيق: أنه كَسْبي باعتبار أسبابه، موهبي باعتبار نفسه وذاته.

قال سَهل: إبتداؤه المكاشفة، ثم المعاينة والمشاهدة.

وقال ابن خفيف ـ رحمه الله ـ: هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيبات.

وقال أبو بكر بن طاهر: العلم تعارضه الشكوك، واليقين لا شك فيه.

وعند القوم: اليَقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلى غير الله.

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ: اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يُورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب.

وقال: ثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح لهم في العطية، والتنزه عن ذمهم عند المنع. وثلاثة من أعلامه أيضاً: النظر إلى الله في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال.

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول، ولا يتغيَّر في القلب.

وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: على قدر قُربهم من التقوى أدركوا من اليقين.

وقيل: اليقين هو المكاشفة، وهي على ثلاثة أوجه: مكاشفة في الأخبار، ومكاشفة بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان.

ومراد القوم بالمكاشفة ظهور الشيء للقلب، بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين، فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلاً، وهذا نهاية

الإيمان، وهو مقام الإحسان.

وقد يريدون بها أمراً آخر، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرُّد الروح عن البدن.

ومن أشار مِنْهم إلى غَير هذين فقد غَلط ولُبِّس عليه.

وقال أبو بكر الوراق ـ رحمه الله ـ: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خَبَر، ويقين دَلاَلة، ويقين مشاهدة.

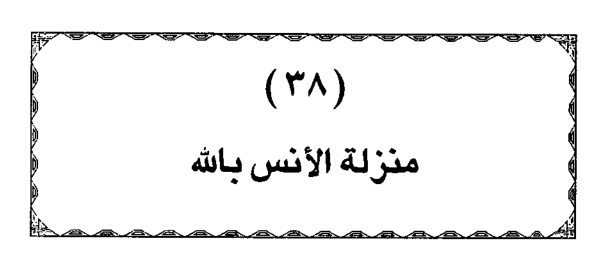
يريد بيقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به، وبيقين الدلالـة: ما هو فوقه، وهو أن يقيم له ـ مع وثوقه بصدقه ـ الدلالة على ما أخبر به.

وهذا كعامَّة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن، فإنه سبحانه ـ مع كونه أصدق الصادقين ـ يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره، فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة، وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين، وهذا أعلى أنواع المكاشفة، وهي التي أشار إليها عامر بن عَبد قيس في قوله: «لو كُشِفَ الغِطاء ما ازدَدْت يقيناً»، وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ، ولا من قول علي ـ كما يظنه من لا علم له بالمنقولات.

وقال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة، قيل له: كيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه: أوثق عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإن بصري قد يخطئ ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ.

* * *



(٣٨)
منزلة الأنس بالله

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الأنس بالله».

والأنس: ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، كما قيل:

فـإن كنـت قـد أوحشتـك الـذنـو ب فدعها - إذا شئت - واستأنس

و[السالك]: يستأنس بالذكر طلباً لاستئناسه بالمذكور، ويتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب.

فإن كان محباً صادقاً طالباً لله عاملاً على مرضاته كان غذاؤه بالسماع القرآني، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة، وأَبرَّها قلوباً وأصحها أحوالاً، وهم الصحابة رضي الله عنهم.

وإن كان منحرفاً فاسدَ الحال ملبوساً عليه مغروراً مخدوعاً كان غذاؤه بالسماع الشيطاني، الذي هو قرآن الشيطان، المشتمل على محابّ النفوس، ولذاتها وحظوظها، وأصحابه أبعد الخلق من الله، وأغلظهم عنه حجاباً وإن كثرت إشارتهم إليه.

وهذا السماع القرآني سماع أهل المعرفة بالله، والاستقامة على صراطه المستقيم. ويحصل للأذهان الصافية منه معانٍ وإشارات، ومعارف وعلوم تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس، فيجد بها لذة روحانية، يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح، وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام،

فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية .

وللتغذي بالسماع سر لطيف نذكره للطف موقعه :

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ جعل للقلوب نوعين من الغذاء :

نوعاً من الطعام والشراب الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوته، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله .

والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب من السرور والفرح، والابتهاج واللذة والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماوياً علوياً .

وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس وغذاءٌ يصل إليه منها .

وارتباطه بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل، وأقوى من سائر الحواس، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يُقرن إلا بهما، أو بإحداهما .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] .

وهذا كثير جداً في القرآن، لأن تأثره بما يراه ويسمعه أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويَشُمُّه، ولأن هذه الثلاثة: هي طرق العِلْم، وهي: السمع والبصر والعقل .

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به أشدَّ من تعلقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية .

وإذا عرف هذا. فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس: من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية، ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل جعلهم أضل، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والإبصار والعقول لعدم انتفاعهم بها، فَنُزِّلت منزلة المعدوم.

فحصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يصلح هذا القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء خبيث، وإذا فسد غذاؤه خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما أفسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

فلما كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد، والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه، ولذلك يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر، ولهذا ربما غُشي على الإنسان إذا سمع كلاماً يسرّهُ أو يسوؤه، أو صوتاً لذيذاً طيباً مطرباً مناسباً، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت، فإذا حصل له نوع تجرد ورياضة ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثُّر.

فكلما تجردت الروح والقلب، وانقطعا عن علائق البدن، كان حظهما من ذلك السماع أوفى، وتأثّرهما به أقوى.

فإن كان المسموع معنى شريفاً بصوت لذيذ حصل للقلب حظه ونصيبه

من إدراك المعنى، وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له، وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به فتضاعفت اللـذة، ويتـم الابتهـاج، ويحصـل الارتيـاح حتـى ربمـا فـاض علـى البـدن والجوارح وعلى الجليس.

وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم، ولا يحصل إلا عند سماع كلام الله تعالى، فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيب صوت القارئ كاد القلبُ يفارق هذا العالم، ويلج عالماً آخر، ويجد له لذة لا يعهدها في شيء البتة، وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه.

وحرام على قلب قد تربَّى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة. فهو من قبل الصوتِ المشترك، لا من قبل المعنى الخاص.

وإذا امتـلأ القلب بشيء، وارتفعت المباينـة الشديدة بين الظاهـر والباطن أدت الأذن إلى القلب من المسـموع ما يناسبه، وإن لم يدل عليه ذلك المسموع، ولا قصده المتكلم، ولا يختص ذلك بالكلام الدال على معنى، بل قد يقع في الأصوات المجردة.

قال القشيري ـ رحمه الله ـ: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: دخلتُ على أبي عثمان المغربي، ورجل يَسْتقي الماء من البئر على بَكَرة، فقال: يا أبا عبد الرحمن! أتدري إيش تقول هذه البكرة؟ فقلت: لا، فقال تقول: الله الله.

فـالإشـارات مـن جنـس الأدلـة والأعـلام، وسببهـا صفـاء يحصـل بالجمعية، فيلطف به الحس والذهن، فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة، لا يكشف حس غيره وفهمه عن إدراكها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]: تدلّ الآية بإشارتها على أنه لا يمسُّ المصحف إلا طاهِر، لأنه إذا كانَتِ تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون، لكرامتها على الله. فهذه الصحف ينبغي أن لا يمسها إلا طاهر.

وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: (لا تَدْخُل الملائكة بيتاً فيه كَلبٌ ولا صُورَة)[1]: إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عزَّ وجلَّ، ومحبته وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلئ بكِلاب الشهوات وصُوَرها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كان شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نَجساً، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يُعْتَدُّ له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها، وهي بيت الرب، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط. فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت.

وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن، وصحة البصيرة، وحُسن التأمل. والله أعلم.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥)؛ ومسلم (٢١٠٦).

والناس على ثلاثة أقسام في السماع:

أحدهم: من اتصف قلبه بصفات نَفْسه بحيثُ صارَ قلبه نفساً محضة، فغلبت عليه آفات الشهوات، ودواعي الهوى، فهذا حظه من السماع كحظ البهائم لا يسمع إلا دعاء ونداء.

القسم الثاني: من اتصفت نفسه بصفات قلبه فصارت نفسه قلباً محضاً، فغلبت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللّب، وعشق صفات الكمال، فاستنارت نفسه بنور القلب، واطمأنت إلى ربها، وقرت عينها بعبوديته وصار نعيمها في حبه وقربه، فهذا حظه من السماع مثل ـ أو قريب ـ من حظ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه ونعيمه من الدُّنيا، ورياضه التي سرح فيها، وحياته التي بها قوامه.

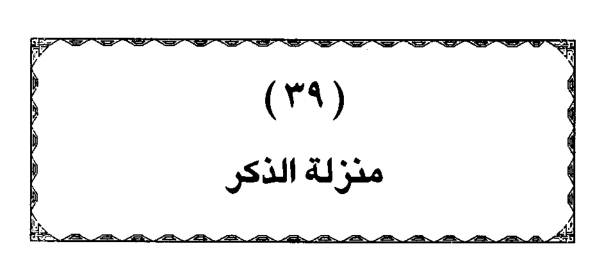
وإلى هذا المعنى قصد أرباب سماع القصائد والأبيات، ولكن أخطؤوا الطريق وأخذوا عن الدَّرب شِمالاً ووراء.

القسم الثالث: من له منزلة بين المنزلتين، وقلبه باقٍ على فطرته الأولى.

فهذا حظه من السماع حظ بين الحظين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإن صادفه وقت دولة القلب كان حظه منه قوياً، وإن صادفه وقت دولة النفس كان ضعيفاً.

ومن ها هنا يقع التفاوت بين الناس في الفقه عن الله والفهم عنه والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

* * *



(٣٩)
منزلة الذكر

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الذكر».

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتَّجرون، وإليها دائماً يترددون.

و«الذكر» منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم، متى تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب.

و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد لمذكوره محبةً إلى لقائه واشتياقاً، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم . . . وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

[الذكر في القرآن]:

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضدِّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامَته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه جعل ذكره سبحانه لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أَكْبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة ورُوحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

١ ـ أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

٢ ـ وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

٣ ـ وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه، فكقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤ ـ وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم، فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٥ ـ وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

٦ ـ وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٧ ـ وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء، فكقوله جلَّ ذكره: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٨ ـ وأما ختم الأعمال الصالحة به فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختم به الصلاة كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٠٣].

٩ ـ وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

١٠ ـ وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها، فإنه سبحانه وتعالى قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه.

[مكانة الذاكرين]:

والذاكرون هم أهل السبق، كما روى مسلم في «صحيحه»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يَسير في طريق مكة، فمر على جَبَل يقال له جُمْدان، فقال: (سيروا، هذا جمدان، سبق المُفَرِّدون).

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: (الذاكِرُون الله كثيراً والذاكرات)[1].

و«المفردون»: إما الموحدون، وإما الآحاد الفرادى.

وفي «المسند» ـ مرفوعاً ـ: من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: (ألا أنبئكم بِخَير أعمالكم، وأزكاها عند مَلِيككم، وأرفعها في دَرَجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم، فتَضْربوا أعناقَهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذِكْر الله عزَّ وجلَّ)[2].

وعن الأغرّ قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧).

أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: (لا يقْعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السَّكينة، وذكَرهم الله فيمَن عنده)[1].

ويكفي في شرف الذكر: أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في «صحيح مسلم»: عن معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خَرَج على حلَقة من أصحابه. فقال: (ما أجلسكم؟)، قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال: (آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟) قالوا: آللهِ ما أجلسنا إلا ذلك، قال: (أما إني لم أستحلفكم تُهمةً لكم، ولكن أتاني جبريل عليه السلام، فأخبرني أن الله يُباهي بكُم الملائكة)[2].

وقال له رجل: إنَّ شرائع الإسلام قد كَثـرت عليَّ، فمرني بشـيء أتشبث به، فقال: (لا يزال لِسانك رطباً من ذكر الله)[3].

[أنواع الذكر]:

[والذكر ثلاثة أنواع: ثناء ودعاء ورعاية].

فأما ذكر الثناء فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر»، «سبحان الله وبحمده» ونظائر ذلك.

وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، و«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»... ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعايـة: فمثل قول الذاكر: الله معي، الله نـاظر إليَّ، الله شـاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعايـة

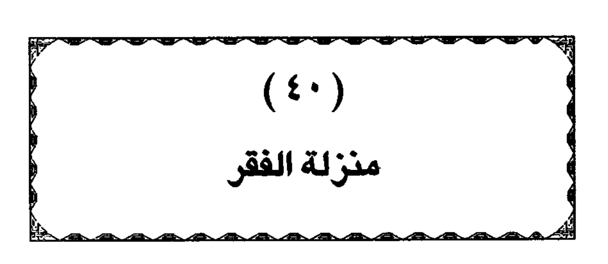
---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠).
(٢) رواه مسلم (٢٧٠١).
(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٥).

لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، أو التصريح به.

* * *



(٤٠)
منزلة الفقر

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ «منزلة الفقر».

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرُّها ولُبّها وغايتها.

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة «الفقر»، والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الأصلي.

ومراد القوم بالفقر: هو تحقيق العبودية، والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلّ من أن يسمى فقراً، بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيى بن معاذ رضي الله عنه فقال: حقيقته أن لا يُستغنى إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها.

يقول: عدم الوثوق بها والوقوف معها.

وسئل أبو حفص: بمَ يقدم الفقير على ربه؟ فقال: وما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم ـ وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟ ـ فقال: إذا لم يبق عليه بَقية منه، فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كله لله عزَّ وجلَّ، لا يبقى بقية من نفسه وحظه وهواه، فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسّر ذلك بقول: «وإذا كان له فليس له»، أي: إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» إذاً: أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثم مِلك واستغناء منافٍ للفقر.

وهذا «الفقر» الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَة ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدتهم، وملكهم، كإبراهيم عليه السلام كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، فكانوا أغنياء في فقرهم وفقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي دوام الافتقار إلى الله تعالى في كل حال، وأن يشهد العبد ـ في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة ـ فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد، وإنما يتجدد له شهوده ووجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة، وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب، أكثر إشارات القوم إليها.

وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وقال الشبلي ـ رحمه الله ـ: حقيقة الفقر أن لا يُستغنى بشيء دون الله.

وسئل سهل بن عبد الله ـ رحمه الله ـ: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم يرَ لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وقال أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله

دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

وقيل: من حكم الفقر: أن لا تكون له رغبة، فإن كان ولابد فلا تجاوز رغبته كفايته.

* * *

و«الفقر» له بداية ونهاية، وظاهر وباطن، فبدايته: الذل، ونهايته: العز، وظاهره: العُدْم، وباطنه: الغِنى.

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله ـ مع التخليط ـ خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب، مع أنه لا صفاء معهما.

وإذا عرفت معنى «الفقر» عرفت أنه عين الغنى بالله، فلا معنى لسؤال من سأل أي الحالين أكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟

فهذه مسألة غير صحيحة، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وقد أجمعت هذه الطائفة: على أنّه لا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر، ولا دخول عليه إلا من بابه. والله أعلم.

* * *

(٤١)
منزلة الغنى العالي

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الغنى العالي»[١].

وهو نوعان: غِنًى بالله، وغِنًى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر، ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨].

وفي الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره وهذا قول أكثر المفسرين، لأنه قابله بقوله «عائلاً»، والعائل: هو المحتاج، ليس ذا العيلة، فأغناه من المال.

والثاني: أنه أَرْضاه بما أعطاه، وأغناه به عن سواه، فهو غِنَى قَلْب ونَفْسٍ، لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث: ـ وهو الصحيح ـ أنه يعم نوعي الغنى، فأغنى قلبه به، وأغناه من المال.

[يكمل الغنى بغنى القلب والنفس]:

وحقيقة غنى القلب تعلقه بالله وحده، وسلامته من التعلق بالأسباب،

---

(١) انظر تفصيل القول في هذا الموضوع في كتاب «تقريب طريق الهجرتين»، ص٩٤ وما بعدها. نشره المكتب الإسلامي.

لا من القيام بها ، والغنى عند أهل الغفلة بالسبب ، ولذلك قلوبهم معلقة به ، وعند العارفين بالمسبِّب .

ويكون غنى النفس بسلامتها من الحظوظ ـ وهو تعلقها بما سوى الله ـ وبراءتها من المراءاة ، وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها .

* * *

(٤٢)
منزلة العلم

[ارتباط العلم بالكتاب والسنة]:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، منزلة «العلم».

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد ـ رحمه الله ـ: الطُّرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأنَّ علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيّد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص ـ رحمه الله ـ: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد ـ رحمه الله ـ: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد عليّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت،

واختلاف العلماء رحمة، إلا في تجريد التوحيد.

وخرج مرة لزيارة بعض الزهاد، فرآه قد دخل المسجد ورمى ببصاقه نحو القبلة، فرجع ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مَأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه؟

وقال: لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة النساء ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ؟ ثم إن الله كفاني مؤنة النساء، حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أُعطِيَ من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة؟.

وقال أبو حمزة البغدادي ـ من أكابر الشيوخ، وكان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يقول له في المسائل: ما تقول يا صوفي؟ ـ: من عَلِمَ طريق الحق سَهُل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله.

* * *

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم والاستغناء عنه. كقول من قال: «نحن نأخذ علمنا عن الحيِّ الذي لايموت، وأنتم تأخذونه عن حي يموت».

وقال آخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ ـ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يَسمع من الخلاّق؟.

وقول آخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ.

وقول آخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ«أخبرنا» و«حدثنا» فاغسل يدك منه.

وقول آخر: لنا عِلمُ الحرف ولكم عِلْم الورَق.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، أو شاطحاً معترفاً بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدثنا» لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك إما على خيال صُوفي، أو قياس فلسفي، أو رَأْي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياسات المتفلسفين.

ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و«العلم»: ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء به الرسول، و«العلم» خير من «الحال»، و«العلم» حاكم و«الحال» محكوم عليه، و«العلم» هادٍ و«الحال» تابع، و«العلم» آمرٌ ناهٍ و«الحال» منفذ قابل، و«الحال» سيف إن لم يصحبه «العلم» فهو مِخْراق في يد لاعب.

نفع الحال لا يتعدى صاحبه، ونفع العلم كالغيث يقع على الظِّراب والآكام وبطون الأدوية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبها، وربما ضاقت عنه.

* * *

العلم هادٍ والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وبه يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكَنَف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذاكرتُه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بِعَدَدِ أنفاسه.

[العلم: جلي وخفي ولدني]:

١ ـ **فالجلي**: الظاهر، الذي لا خفاء به، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: ما وقع عن عيان وهو البصر.

والثاني: ما استند إلى السمع وهو علم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة ـ وهي السمع، والبصر، والعقل ـ هي طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم.

وكذا ما يدرك بالباطن، وهي الوجدانيات.

وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحداً.

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

٢ ـ **والعلم الخفي**: هو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة، ويراد به ما يكون مصوناً مكتوباً بين العبد وبين ربه من الأحوال والمقامات.

قال بعض السلف: إذا عقدت القلوب على ترك المعاصي جالت في الملكوت، ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد.

٣ ـ و«**العلم اللَّدُنِّي**»: هو ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، من كتابه وسنة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل: «هل خَصَّكم رسول الله ﷺ بشيءٍ دُونَ الناس؟ ـ فقال: لا. والذي فَلَقَ الحبة، وبرأ النَّسمَةَ، إلا فَهْماً يُؤْتيه الله عَبداً في كتابه»[1] فهذا هو العلم اللَّدُنِّي الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيَّد بهما فهو من لدن النفس، والشيطان، فهو لدني، لكن من لدن مَنْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنياً رحمانياً بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عزَّ وجلَّ، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بَطْناوي، والمحَكُّ هو الوحي، ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكُفْر مُخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

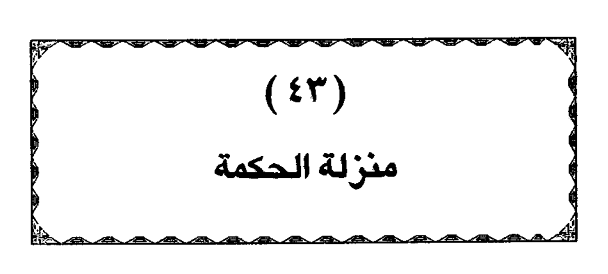
فمن ادّعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأئمة فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

بالكُلِّيـة، فضلاً عن أن يكـون من خاصَّـة أولياء الله، وإنما هـو من أوليـاء الشيطان وخلفائِه ونُوابه.

وهذا الموضع مَقْطع ومفرق بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم.

* * *



(٤٣)

منزلة الحكمة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الحكمة».

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

«الحكمة» في كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة: فُسِّرت بالنبوَّة، وفسرت بعلم القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي عِلْم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومُحكمه ومتشابهه، ومقدَّمه ومؤخَّره، وحلاله وحرامِه. وأمثالُه».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال الحسن: الورع في دين الله، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة، كذلك قالَ الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القَضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة أعمّ وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحِكمة قول مجاهد ومالِك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

* * *

و«الحكمة»: حكمتان: عِلْمية، وعَملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خَلْقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

و«العملية»: هي وَضْع الشيء في مَوْضِعه.

ولما كانت الأشياء لها مراتب وحُقوق، تقتضيها شَرْعاً وقَدَراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر؛ كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدَّها، فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة. ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدِّي الحق كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد، وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذاً فِعْلُ ما يَنْبغي، على الوَجْه الذي يَنْبغي، في الوقت الذي يَنْبغي.

ولها ثلاثة أركان: العِلم، والحِلم، والأَناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول. و[الله أعلم].

* * *

ومعرفة «الحكمة» في الوعد والوعيد: أن تشهد حكمه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠]، فتشهد عدله في وعيده، وإحسانه في وعده، وكل قائم بحكمته.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق، فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور، وإن أجراها على أيدي الظلمة، فهو أعدل العادلين، ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك «تعرف بِرَّه في منعه»، فإنه سبحانه وتعالى هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك، فإنه الجواد الحكيم، وحكمته لا تناقض جوده.

فالله سبحانه ما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

وإذا تأمل البصير أحوال العلم وما فيه من النقص رآه عين الحكمة، وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

* * *

(٤٤)
منزلة الفراسة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الفراسة».

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: للمتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم أورثه فراسة وعبرة وفكرة، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

والمقصود أنه سبحانه أقسَمَ على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من دلالة السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع، وفي الترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (اتقوا فِراسة المُؤمن؛ فإنه يَنْظُر بنُور الله)[1] ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

و«الفراسة» ثلاثة أنواع: إيمانية، وهي المتكلم فيها في هذه المنزلة.

وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب يَنْفي ما يضاده، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة.

وهذه «الفراسة» على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أَحَدُّ فراسة.

قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق، ويكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبده.

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ: الفراسة سواطع أنوار لَمعت في القلوب، وتمكن معرفة جملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها، فيتكلم عن ضمير الخلق.

وقال الداراني ـ رحمه الله ـ: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان.

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة، فإنه ما قال لشيء: «أظنه كذا» إلا كان كما قال، ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة.

ومرَّ به سَواد بن قارب، ولم يكن يعرفه، فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية»، فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر، فقال: «سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به، فقال له عمر رضي الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرني عما سألتك عنه. فقال: صدقت

يا أمير المؤمنين. كنتُ كاهناً في الجاهلية. ثم ذكر القصة»[1].

الفراسة الثانية: فراسة الرياضة والجوع، والسهر والتخلِّي، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدلُّ على إيمان ولا على ولاية، وكثير من الجهال يغترُّ بها.

الفراسة الثالثة: الفراسة الخَلْقية، وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم. واستدلوا بالخَلْق على الخُلُق، لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعَيْنه وأُذنه وقَلْبه؛ فعينه للسيماء والعلامات، وأذنه للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمانه ونحو ذلك، وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيّه، فيَعْبُر إلى ما وراء ظاهره، كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه؛ هل هو صحيح، أو زغل؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلِّ، إلى باطن الروح والقلب، فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وللفراسة سببان:

أحدهما: جودة ذِهْن المتفرِّس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرَّس فيه.

فإذا اجتمع السببان لم يكد تخطئ للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بَيْن بَيْن.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦٦).

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة ، وله الوقائع المشهورة ، وكذلك الشافعي ـ رحمه الله ـ. قيل : إن له فيها تآليف .

* * *

(٤٥)
منزلة السكينة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، منزلة «السكينة».

هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى «السكينة» في كتابه في ستة مواضع(١).

منها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيوم حُنَين، حين وَلَّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد على أحد، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك من ضعف عمر رضي الله عنه عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنهما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة،

---

(١) وهي سورة البقرة (٢٤٨)، والتوبة (٢٦، ٤٠)، والفتح (٤، ١٨، ٢٦).

إلا التي في سورة البقرة .

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح وخشعت ، واكتسبت الوقار ، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة ، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش ، واللغو والهجر ، وكل باطل . قال ابن عباس رضي الله عنهما : «كنا نتَحدَّث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه» .

* * *

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رحمه الله : «السكينة : هي التي أنزلت على قَلب النبي ﷺ، وقُلوب المؤمنين، وهي شيءٌ يجمع نوراً وقوةً ورُوحاً، يسكُن إليه الخائِف، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر . ويستكين إليه العَصيُّ والجَرِيء والأبيّ» .

هذا من عيون كلامه وغرره الذي تثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب ، وتظفر به عن ذوق تام ، لا عن علم مجرد .

فذكر : أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ﷺ وقلوب عبادهِ المؤمنين يشتمل على ثلاثة معانٍ : النور ، والقوة ، والروح .

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلي الحزين والضجر به ، واستكانة لصاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه .

فبالروح الذي فيه حياةُ القلب ، وبالنور الذي فيه استنارته ، وضياؤه وإشراقه ، وبالقوة ثباته وعزمه ونشاطه .

فالنور يكشف له عن دلائل الإيمان ، وحقائق اليقين ، ويميز له بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والشك واليقين .

والحياة توجب كمال يقظته وفطنته ، وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة ، وتأَهُّبه للقائه .

والقوة توجب له الصدق ، وصحة المعرفة ، وقهر داعي الغَيِّ

والعَيب، وضبط النفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب، ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.

والإيمان: يثمر له النور، والحياة والقوة، وهذه الثلاثة تثمره أيضاً وتوجب زيادته، فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور يكشف دلائل الإيمان، وبالحياة ينتبه من سنة الغفلة، ويصير يقظانَ، وبالقوة يقهر الهوى والنفس والشيطان.

* * *

(٤٦)
منزلة الطمأنينة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الطمأنينة» .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء . وعدم اضطرابه وقلقه ، ومنه الأثر المعروف : (الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة)[(١)] ، أي : الصدق يطمئن إليه قلب السامع ، ويجد عنده سكوناً إليه ، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً ، ومن قوله ﷺ : (البر ما اطمأنَّ إليه القلب)[(٢)] ، أي : سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه .

وفي «ذكر الله» ها هنا قولان :

أحدهما : أنه ذكر العبد ربه ، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن ، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله .

والقول الثاني : أن ذكر الله ها هنا القرآن ، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله ، به طمأنينة قلوب المؤمنين ، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن ، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه . واضطرابه وقلقه من شكه ، والقرآن هو المحصل

---

(١) إتحاف السادة المتقين للزبيدي : ١٠/ ٨٥ .

(٢) رواه الإمام أحمد : ٤/ ٢٢٨ .

لليقين، الـدافع للشـكوك والظنون والأوهـام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به.

وهذا القول هو المختار.

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]، دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع إليه. وتدخل في عباده، وتدخل جنته. وكان من دعاء بعض السلف: «اللهمَّ هَبْ لي نَفْساً مطمئنة إليك».

والذي يظهر لي أن الفرق بين «السكينة» و«الطمأنينة» أمران:

أحدهما: أنَّ السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه، فهرب من عدوه، فسكن روعه، والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحاً فدخله وأمن فيه، وتقوَّى بصاحبه وعدته. فلِلْقلب ثلاثة أحوال:

أحدها: الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه.

الثاني: زوال ذلك الوارد [الذي يزعجه ويقلقه] عنه وعدمه.

الثالث: ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلاً بينه وبينه.

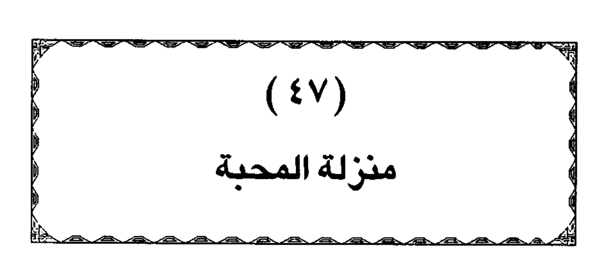
وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة.

الثاني: أن «الطمأنينة» أعمُّ، فإنها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظفر بالمعلوم. ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في ظُلَم الآراء والمذاهب، واكتفت به منها، وحكَّمته

عليها وعَزَلَتها، وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله، فبه خاصمت، وإليه حاكمت، وبه صالت، وبه دفعت الشُّبَه.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقاتلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

* * *



(٤٧)
منزلة المحبة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلةُ «المحبةِ».

وهي المنزلةُ التي فيها تنافسَ المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى عَلَمِها شمَّرَ السابقون، وعليها تَفَانى المحبون، وبِرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواح، وقُرَّةُ العيون، وهي الحياةُ التي مَنْ حُرِمَها فهو من جملةِ الأموات، والنُّور الذي من فَقَدَهُ فهو في بحارِ الظلماتِ، والشفاءُ الذي من عَدِمَهُ حَلَّت بقلبِه جميعُ الأسقام، واللَّذَّةُ التي من لم يظفرْ بها فعيشُهُ كلُّه همومٌ وآلامٌ.

وهي روحُ الإيمانِ والأعمالِ، والمقاماتِ والأحوالِ التي متى خَلَت منها، فهي كالجسد الذي لا روحَ فيه.

تاللهِ لقد ذهبَ أَهلُها بشرفِ الدُّنيا والآخرة. إذ لهم من معيَّةِ محبوبهم أَوفرُ نصيب، وقد قضَى الله ـ يومَ قدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ بمشيئتِهِ وحكمته البالغة ـ أنَّ المرءَ مَعَ من أَحب. فيا لها من نعمةٍ على المحبين سابغة.

[تعريف المحبة]:

لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضح منها، فالحدودُ لا تزيدُها إلا خَفاءً وجفاءً، فحدُّها وجودُها، ولا توصفُ المحبةُ بوصفٍ أَظهرَ من «المحبة».

وإنما يتكلَّمُ الناسُ في أسبابِها وموجباتِها، وعلاماتِها وشواهدِها، وثمراتها وأحكامها، فحدودُهم ورسومُهُم دارت على هذه الستَّةِ، وتَنوعَتْ

بهم العباراتُ وكثرت الإشاراتُ، بِحَسْبِ إدراكِ الشخص ومقامِهِ وحالِه وملكِه للعبارة.

وهذه المادَّةُ تدورُ في اللغةِ على خمسةِ أشياء:

أَحدُها ـ الصفاءُ والبياضُ، ومنه قولُهم لصفاءِ بياضِ الأسنانِ ونضارتها حَبَبُ الأسنان.

الثاني ـ العلوُّ والظهورُ، ومنه حَبَبُ الماءِ وحُبابُهُ، وهو ما يعلوه عندَ المطرِ الشديد، وحَبَبُ الكأْسِ منه.

الثالثُ ـ اللزومُ والثباتُ، ومنه حَبَّ البعيرُ وأحبَّ، إذا بَركَ ولم يقم.

الرابعُ ـ اللُّبُّ، ومنه حَبَّةُ القلبِ، لِلُبِّهِ وداخِله، ومنه الحَبَّةُ لواحدةِ الحبوب، إذ هي أصلُ الشيء ومادتهُ وقوامُهُ.

الخامسُ ـ الحفظُ والإمساكُ، ومنه حِبُّ الماءِ للوعاءِ الذي يُحفظُ فيه ويمسكُهُ، وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريبَ أنَّ هذه الخمسةَ من لوازم المحبة، فإنَّها صفاءُ المودَّةِ، وهيجانُ إراداتِ القلبِ للمحبوب، وعُلُوُّها وظهورُها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوتُ إرادةِ القلب للمحبوب، ولزومها لزوماً لا تفارقُه، ولإعطاءِ المحبِّ محبوبَه لُبَّه، وأشرفَ ما عنده، وهو قلبُهُ، ولاجتماعِ عزماتِه وإرادتِه وهمومِه على محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة.

[الأسباب الموصلة إلى المحبة]:

وهي عشرةٌ:

أحدُها: قراءة القرآنِ بالتدبُّرِ والتفهُّمِ لمعانيهِ وما أُريدَ به، كتدبُّرِ الكتابِ الذي يحفظُهُ العبدُ ويشرحُهُ، ليتفهَّمَ مرادَ صاحبِه منه.

الثاني: التقرُّبُ إلى اللهِ بالنوافلِ بعدَ الفرائضِ، فإنَّها توصلُهُ إلى درجةِ المحبوبيةِ بعدَ المحبَّةِ.

الثالث: دوامُ ذكرِهِ على كلِّ حالٍ باللسانِ والقلبِ، والعملِ والحالِ، فنصيبُهُ من المحبَّةِ على قَدْرِ نصيبِهِ من هذا الذِّكْرِ.

الرابعُ: إيثارُ محابِّهِ على محابِّكَ عندَ غلباتِ الهوى، والتَّسَنُّمُ إلى محابِّهِ، وإنْ صَعُبَ المرتقى.

الخامسُ: مطالعةُ القلبِ لأسمائِهِ وصفاتِهِ، ومشاهدَتُها ومعرفَتُها، وتقلُّبُهُ في رياضِ هذهِ المعرفة ومباديها، فمن عَرَفَ الله بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِهِ أَحبَّهُ لا محالة.

السادس: مشاهدةُ بِرِّهِ وإحسانِه وآلائِه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعيةٌ إلى محبَّتِهِ.

السابعُ: وهو من أعجبها انكسارُ القلب بكلِّيَّتِهِ بينَ يديِ الله تعالى. وليسَ في التعبير عن هذا المعنى غَيْرُ الأسماءِ والعباراتِ.

الثامنُ: الخلوةُ به وقتَ النزولِ الإلـٰهيِّ، لمناجاتِه وتلاوَةِ كلامِهِ، والوقوفُ بالقلبِ والتأدُّبِ بأدبِ العبوديةِ بين يديه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستغفارِ والتوبةِ.

التاسعُ: مجالسةُ المحبِّينَ الصادقين، والتقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامهم كما يُنتقى أطايبُ الثمرِ، ولا تتكلم إلاَّ إذا ترجَّحَتْ مصلحةُ الكلامِ، وعلمتَ أنَّ فيه مزيداً لحالِكَ، ومنفعةً لغيركَ.

العاشرُ: مباعدةُ كلِّ سببٍ يحولُ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فمن هذه الأسباب العشرةِ وصلَ المحبُّونَ إلى منازلِ المحبة، ودخلوا على الحبيبِ، ومَلاَكُ ذلكَ كلِّهِ أمران: استعدادُ الرُّوحِ لهذا الشَّأْنِ، وانفتاحُ عينِ البصيرةِ، وبالله المستعان.

[يحبّهم ويحبّونه]:

والكلامُ في هذه المنزلةِ معلّقٌ بطرفين: طرفِ محبةِ العبدِ لربِّه، وطرفِ محبةِ الربِّ لعبدِهِ.

و[الجمهور] على إثباتِ الطرفين، وأن محبةَ العبدِ لربِّه فَوق كل محبةٍ تقدر، ولا نسبَةَ لسائر المحاب إليها، وهي حقيقةُ «لا إلـه إلا الله» وكذلك عندهم محبـةُ الربِّ لأوليائِـه وأنبيائِه ورسـله: صفةٌ زائدةٌ على رحمتـه، وإحسـانه وعطائه، فإنَّ ذلك أثر المحبة وموجبُها، فإنه لما أحبَّهم كان نَصِيبُهم من رحمته وإحسانه وبره أتَمَّ نصيب.

وجميعُ طرق الأدلةِ ـ عقلاً ونقلاً وفطرةً، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً ـ تدلُّ على إثبات محبة العبد لربه، والربِّ لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مئةِ طريقٍ في كتابنا الكبير في المحبـة، وذكرنـا فيه فوائدَ المحبـةِ، وما تثمرُ لصاحبها من الكمالاتِ وأسـبابِها وموجباتِها، والردَّ على مَنْ أنكرها، وبيانَ فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصةَ الخلقِ والأمرِ، والغاية التي وُجدا لأجْلِها، فإنَّ الخَلقَ والأمر، والثواب، والعقاب إنما نَشَأَ عن «المحبةِ» ولأجلِها، وهي الحقُّ الذي به خُلقَتِ السمواتُ والأرضُ، وهي الحقُّ الذي تَضَمَّنهُ الأمرُ والنهيُ، وهي سرُّ التأليهِ، وتَوحيدُها هو شهادةُ أن لا إلـه إلا الله.

وليس كما زَعم المنكرون أن «الإلـه» هو الربُّ الخالقُ، فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا ربَّ إلا الله، ولا خَالقَ سواهُ، وبأنه وحدَهُ المنفرِدُ بالخَلقِ والربُوبيةِ، ولم يكونوا مُقِرينَ بتوحيدِ الإلـهيةِ، وهو المحبةُ والتعظيمُ، بل كانوا يَألَهُونَ مع الله غَيره، وهذا هو الشركُ الذي لا يَغْفِرُهُ الله، وصاحبُه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فَأَخبرَ أنَّ مَن أحبَّ من دونِ اللهِ شيئاً، كما يُحِبُّ الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله نِدّاً، فهذا نِدٌّ في المحبةِ لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لم يُثْبِتْ هذا النِدَّ في الربوبيةِ، بخلاف ند المحبةِ، فإن أكثرَ أهلِ الأرضِ قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾.

وكان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ـ رحمه الله ـ يقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بينَ الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهي تُسمى آية المحبة.

قال أبو سليمانُ الداراني: لما ادّعتِ القلوبُ محبة الله: أنزل الله لها المحبّة: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال بعضُ السلفِ: ادَّعى قومٌ محبةَ الله، فأنزلَ اللهُ آيةَ المحبةِ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقال: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾: إشارة إلى دليل المحبةِ وثمرتها، وفائدتها. فدليلُها وعلاماتُها اتباعُ الرسول ﷺ، وفائدتُها وثمرتُها محبةُ المرسِل لكُمْ، فما لم تحصلِ المتابعةُ، فليستْ محبتُكم له حاصلةً، ومحبتُه لكم منتفيةٌ.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: ٥٤]. فقد ذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قيل: معناه أَرِقَّاءُ، رحماءُ مُشفقين عليهم، عَاطِفين عليهم، فلما ضمَّن ﴿أَذِلَّةٍ﴾ هذا المعنى عدَّاهُ بأداة «على» قال عطاء ـ رضي الله عنه ـ: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة[١]: الجهادُ في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذُهُم في الله لومةُ لائمٍ، وهذا علامةُ صحةِ المحبةِ، فكل محبٍّ يأخُذُهُ اللومُ عن محبوبه فليس بمحبٍّ على الحقيقة، كما قيل:

لاَ كـانَ مَـنْ لِسِـواكَ فيـهِ بَقِيَّـةٌ يجـدُ السَّبيـلَ بِهـا إليـهِ اللُّـومُ

وفي «الصحيح»: عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بِهنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله، وأَنْ يَكرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ - بَعْدَ إذْ أنْقَذَه الله منهُ - كما يَكْرَهُ أن يُقْذَفَ في النَّارِ)[٢].

وفي «صحيح البخاري»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: (يَقُولُ اللهُ تعالى: مَنْ عادى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنتُه بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بِشيءٍ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ أَداءِ ما افترضتُه عَليْهِ، ولا يَزالُ عَبْدي يتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحببْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التي يَبْطشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشي بها، ولَئِنْ سَأَلَني لأُعطِينَّه، ولئِنْ اسْتَعاذني لأُعِيذَنَّهُ)[٣].

وفي «الصحيحين»: عنه أيضاً، عن النبي ﷺ: (إذا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ دَعَا جِبْريلَ، فقالَ: إِنّي أُحِبُّ فُلاناً، فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبْريل، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ، فَيقولُ: إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّه أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوْضَعُ له القَبُولُ

---

(١) لعله قصد من العلامة الأولى: العلامتين الأولى والثانية، لأنها ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. والله أعلم.

(٢) رواه البخاري (١٦)؛ ومسلم (٤٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢).

في الأرضِ)(١). وذَكَرَ في البُغْضِ مثل ذلك.

والقرآن والسنة مملوءان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبّه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله في ضد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وكما في السنَّة: «أَحَبُّ الأَعمالِ إلى الله كذا وكذا»، «وإنَّ الله يُحِبُّ كذا وكذا». كقوله: (أَحبُّ الأعمال إلى اللهِ: الصَّلاةُ على وَقْتِها...).

وأضعافُ أضعافِ ذلك، وفرحه العظيمُ بتوبة عبده الذي هو أشدُّ فرح يعلمُه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازلُ السير إلى الله، فإنها روحُ كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميتٌ لا روحَ فيه، ونسبتُها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفسُ الإسلام، فإنّه الاستسلامُ بالذّل والحبّ والطاعة لله، فمن لا محبة له، لا إسلام له البتةَ، بل هي حقيقةُ شهادةِ أنْ لا إلـه إلا الله، فإن «الإلـه» هو الذي يألَهُهُ العبادُ حبّاً وذُلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعة له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تَألَهُهُ القلوبُ، أي: تُحِبُّهُ وتذلُّ له.

وأصل «التَّألُّهِ»: التعبُّد. و«التعبُّد»: آخرُ مراتب الحبّ، يقال: عبَّدَهُ الحبُّ وَتيَّمه إذا ملكه وذَلَّله لمحبوبِه.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩)؛ ومسلم (٢٦٣٧).

فـ«المحبَةُ» حقيقةُ العبودية، وهل تُمكنُ الإنابةُ بدونِ المحبة والرضى، أو الحمد أو الشكر، أو الخوف والرجاء؟ وهل الصبرُ في الحقيقةِ إلا صبرُ المحبين؟ فإنّه إنّما يُتوكل على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

[منشأ المحبة وثباتها]:

تَنشَأ المحبة من مطالعةِ العبدِ مِنَّةَ الله عليه، ونِعمَهُ الباطنةَ والظاهِرة، فبقدرِ مطالعتِهِ ذلك، تكون قوةُ محبته، فإن القلوبَ مجبولةٌ على حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها، وبُغْضِ من أساءَ إليها، وليسَ للعبدِ قط إحسانٌ إلا من اللهِ، ولا إساءةٌ إلا من الشيطان.

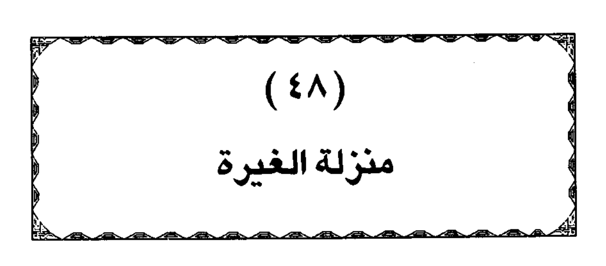
ومن أعظمِ مطالعةِ منة الله على عَبْده تأْهيلُهُ لمحبتِهِ ومعرفَتِهِ، وإرادةِ وجهِهِ، ومتابعةِ حبيبِهِ، وأصلُ هذا نورٌ يقذِفُهُ الله في قلبِ العبدِ، فإذا دارَ ذلكَ النورُ في قلبِ العبدِ وذاتِه، أشرقَت ذاتُه، فرأى فيه نَفْسهُ، وما أُهِّلت له مِن الكمالاتِ والمحاسنِ، فعَلَتْ به همتُه، وقويت عزيمتُه، وانقشعت عنه ظلماتُ نفسِه وطبعِهِ، لأَنَّ النورَ والظلمةَ لا يجتمعانِ إلا ويطرد أحدهما صاحبهُ.

وتثبت هذه المحبة بمتابعة الرسول ﷺ في أعمالِهِ، وأقوالِهِ وأخلاقِه، فبحسبِ هذا الاتباع، يكونُ منشأ هذهِ المحبةِ وثباتُها وقوتها، وبحسب نقصانِه، يكون نقصانُها، كما تقدم: أنَّ هذا الاتباعَ يوجب المحبةَ والمحبوبيةَ معاً، ولا يتمُ الأمرُ إلا بهما.

فليس الشأنُ في أن تُحبَّ الله، بل الشأنُ في أن يُحِبَّكَ الله، ولا يحبكَ الله إلا إذا اتبعتَ حبيبَهُ ظاهراً وباطناً، وصدقتَهُ خَبَراً، وأطعته أمراً، وأجبتَه دعوة، وآثرتَهُ طوعاً، وفنيتَ عن حكمِ غيرِه بحُكْمِهِ، وعن محبَّةِ غيرِه من الخلقِ بمحبتِه، وعن طاعةِ غيرِهِ بطاعتِه. وإن لم يكنْ ذلك، فلا تتعنَّ، وارجعْ من حيث شئت، فالتمس نوراً فلستَ على شيءٍ.

وتأمل قوله: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي: الشأن في أن الله يُحبُّكُم، لا في أنكم تحبونَه، وهذا لا تنالونَه إلا باتباعِ الحبيبِ ﷺ.

* * *



(٤٨)
منزلة الغيرة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلةُ «الغيرة».

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي «الصحيح»: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أَحدٌ أغيرَ من اللهِ، ومن غيرتِهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظهرَ منها ومَا بَطَن، وما أَحَدٌ أَحَبّ إليْه المدْحُ مِنَ اللهِ، ومن أجلِ ذلك أَثْنى على نَفْسه، وما أَحدٌ أحبَّ إليه العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجْلِ ذلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مبشِّرين ومُنْذرينَ)[1].

وفي «الصحيح» أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: (إنَّ اللهَ يَغَارُ، وإنَّ المؤمنَ يَغارُ، وغيرةُ اللهِ أنْ يَأْتي العَبْدُ مَا حُرِّم عليه)[2].

وفي «الصحيح» أيضاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (أَتعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سعدٍ؟ لأنا أغيرُ منهُ، واللهُ أغيرُ مني)[3].

ومما يدخلُ في الغيرة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٤)؛ ومسلم (٢٧٦٠).
(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣)؛ ومسلم (٢٧٦١).
(٣) رواه البخاري (٦٨٤٦)؛ ومسلم (١٤٩٩).

قال السري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجابُ؟ حجابُ الغيرةِ، ولا أحد أغير من الله، إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهمِ كلامهِ، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيدِه ومحبتِهِ، فجعلَ بينهم وبين رسولهِ وكلامهِ وتوحيدهِ حجاباً مستوراً عن العيونِ، غيرةً عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

و«الغيرةُ»: منزلةٌ شريفةٌ عظيمةٌ جداً، جليلةُ المقدارِ، ولكن الصوفيةَ المتأخرين منهم من قَلَبَ موضوعها، وذهب بها مذهباً آخر باطلاً، سماهُ «غيرةً» فوضعها في غير موضعِها، ولُبِّسَ عليه أعظم تلبيسٍ، كما ستراه.

والغيرة نوعانٌ: غيرة من الشيء، وغيرةٌ على الشيء.

والغيرةُ من الشيء: هي كراهةُ مزاحمته ومشاركته لك في محبوبِكَ.

والغيرةُ على الشيء: هي شدةُ حرصكَ على المحبوبِ أن يفوزَ به غيرُك دونَك أو يشاركَكَ في الفوز بِه.

و**«الغيرة» أيضاً نوعان**: غيرةُ العبدِ من نفسِهِ على نفسهِ، كغيرتِه من نفسه على قلبه، ومن تفرقتِهِ على جمعيتهِ، ومن إعراضهِ على إقبالهِ، ومن صفاتِه المذمومةِ على صفاتِه الممدوحةِ، وهذه الغيرةُ خاصيةُ النفس الشريفةِ الزكيةِ العلويةِ، وما للنفسِ الدنيةِ المهينةِ فيها نصيبٌ، وعلى قدر شرف النفس وعلوِّ همتِها تكونُ هذه الغيرةُ.

ثم «الغيرةُ» أيضاً نوعان: غيرةُ الحق تعالى على عبدهِ، وغيرةُ العبدِ لربهِ لا عليه.

فأما غيرةُ الربِّ على عبدِه فهي أن لا يجعلَه للخلق عبداً، بل يتخذه لنفسه عبداً، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين، بل يفرده لنفسِه، ويضن به على غيره، وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرةُ العبد لربِّه، نوعان أيضاً: غيرةٌ من نفسه، وغيرةٌ من غيره.

فالتي من نفسه أن لا يجعلَ شيئاً من أعماله وأقوالِهِ وأحوالِهِ وأوقاتِهِ وأنفاسِهِ لغير ربه.

والتـي مـن غيـره أن يغضـبَ لمحـارمـه، إذا انتهكهـا المنتهكـون، ولحقوقه إذا تهاونَ بها المتهاونون.

* * *

وأما الغيرةُ على الله فأعظمُ الجهلِ وأبطل الباطل، وصاحبُها من أعظم الناسِ جهلاً، وربما أدَّت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام، وربما كان صاحبُها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق، بل هو من قُطَّاعِ طريقِ السالكين حقيقةً، وأخرجَ قطعَ الطريقِ في قالبِ الغيرةِ، وأين هذا من الغيرةِ لله؟! التي تـوجبُ تعظيمَ حقوقِـه، وتصفيةَ أعمالِهِ وأحوالِه لله؟! فالعارفُ يغارُ لله، والجاهلُ يغارُ على الله، فلا يقال: أنا أغارُ على اللهِ، ولكن أنا أغارُ لله.

وغيرةُ العبدِ من نفسهِ أهمُّ من غيرتِه من غيره، فإنّكَ إذا غِرْتَ من نفسك، صَحَّت لك غيرتُك لله من غيرك، وإذا غِرْتَ له من غيرك، ولم تغر من نفسك فالغيرةُ مدخولةٌ معلومةٌ ولابدَّ، فتأملها وحقق النظرَ فيها.

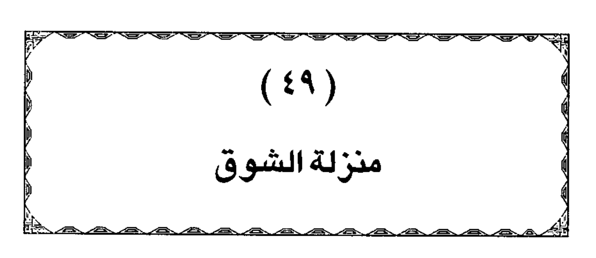
فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلماتِ في هذه المقامِ، الذي زلَّتْ فيه أقدامُ كثير من السالكين، والله الهادي والموفق المثبتُ.

كما حُكي عن واحدٍ من مشهوري الصوفيةِ، أنه قال: لا أستريحُ حتى لا أرى من يذكرُ الله، يعني غيرهُ من أهلِ الغفلةِ وذكرهم. والعجبُ أن هذا يُعدُّ من مناقبه ومحاسنه.

وقول آخر: لا أحبُّ أن أرى الله و لا أنظرَ إليهِ، فقيل له: كيف؟ قال: غيرة عليه من نظر مثلي.

فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة، الدالة على جهل صاحبها، مع أنه في خفارة ذُلِّهِ وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسِهِ.

* * *



(٤٩)
منزلة الشوق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الشوق».

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

قيل: هذا تعزيةٌ للمشتاقينَ، وتسليةٌ لهم، أي: أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ، فقد أجَّلتُ له أجلاً يكون عن قريبٍ، فإنَّه آتٍ لا محالةَ، وكل آتٍ قريبٌ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائِه: (أسألك لذَّةَ النظرِ إلى وجْهِكَ، والشَّوق إلى لقائكَ)[1].

و«الشوق»: أثرٌ من آثار المحبةِ، وحكمٌ من أحكامها، فإنَّهُ سفرُ القلبِ إلى المحبوبِ في كل حال.

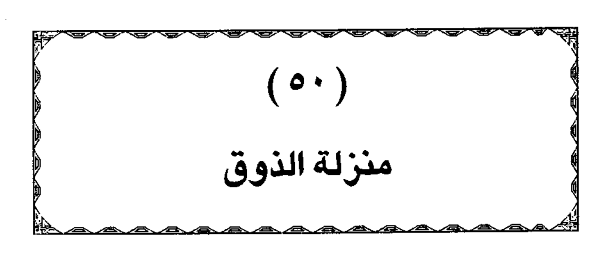
قيل: هو اهتياجُ القلوب، إلى لقاءِ المحبوبِ.

قال الجنيدُ: سمعتُ السري يقول: الشوقُ أجلُّ مقام للعارفِ إذا تحقق فيه، وإذا تحقق في الشوق لها عن كلِّ شيء يشغله عمن يشتاقُ إليه، وعلى هذا فأهلُ الجنةِ دائماً في شوقٍ إلى الله، مع قُربهم منه ورؤيتهم له.

وللشوق درجتان: شوق العابد إلى الجنة، والشوق إلى الله تعالى، وهذا لا ينافي الشوق إلى الجنة، فإن أطيبَ ما في الجنة قربُه تعالى ورؤيته وسماع كلامه ورضاه.

* * *

(١) رواه النسائي (١٣٠٤).



(٥٠)
منزلة الذوق

و«الذوق» مباشرةُ الحاسَّةِ الظاهرة والباطنة للملائمِ والمنافرِ، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّةِ الفم في لُغةِ القرآن، بل ولا في لغةِ العرب.

قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس ليدلّ على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله، فأفاد الإخْبار عن إذاقته أنه واقعٌ مباشر غيرُ منتظرٍ، فإن الخوف قد يتوقعُ ولا يباشِرُ، وأفادَ الإخبارُ عن لباسهِ أنه محيطٌ شاملٌ كاللباس للبدنِ.

وفي «الصحيح»: عنه ﷺ: (ذاقَ طعْمَ الإيمانِ من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً)(١)، فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلبَ يذوقه، كما يذوقُ الفمُ الطعام والشرابَ.

وقد عبَّر النبيُّ ﷺ عن إدراكِ حقيقةِ الإيمانِ والإحسانِ، وحصولهِ للقلبِ ومباشرته له بالذوق تارةً، وبالطعامِ والشراب تارةً، وبوجود الحلاوة تارةً، كما قال: (ذاق طعمَ الإيمان)، و(ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد بِهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: من كان الله ورسولهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُما، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبّهُ إلا لله، ومن كان يكرَهُ أن يرجعَ في الكفر ـ بعد إذ أنقذهُ الله منهُ ـ كما يكرهُ أن يُلْقى في النارِ)(٢).

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (١٦)؛ ومسلم (٤٣).

ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تُواصلُ، قال: (إنّي لستُ كهيئتِكُم، إنّي أُطعَمُ وأُسقَى)، وفي لفظٍ: (إنّي أظلُّ عند ربي يُطْعِمُني ويَسْقيني)(١).

وقد غَلِطَ حجابُ مَنْ ظَنَّ أنَّ هذا طعامٌ وشرابٌ حِسِّي للفم، ولو كان كما ظنّه هذا الظانُّ لما كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مُواصلاً، ولما صحَّ جوابهُ بقوله: (إني لستُ كهيْئَتِكُم)، فأجاب بالفرق بينهُ وبينهم، ولو كان يأكل ويشربُ بفيه الكريم حِسَّاً، لكان الجوابُ أن يقولَ: وأنا لست أواصلُ أيضاً، فلما أقرّهم على قولهم: «إنك تواصل»، عُلِمَ أنه ﷺ كان يُمْسِكُ عن الطعام والشراب، ويكتفي بذلك الطعام والشراب العالي الروحاني، الذي يغني عن الطعام والشرابِ المشتركِ الحسي.

وهذا الذوقُ هو الذي استدلَّ به هرقلُ على صحّة النبوة، حيث قال لأبي سفيان: «فهل يرتدُّ أحدٌ منهمْ سَخَطَةً لدينه؟ فقال: لا، قال: وكذلك الإيمانُ، إذا خالطتْ حلاوتُهُ بشاشةَ القُلوبِ».

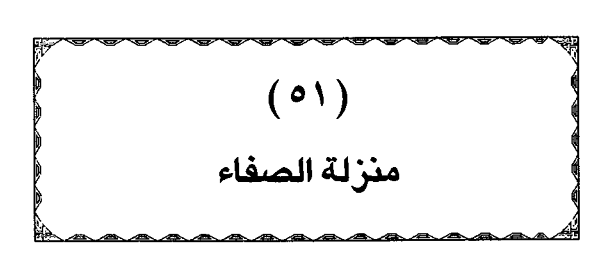
فاستدلَّ بما يحصلُ لأتباعِهِ من ذوقِ الإيمانِ ـ الذي خالَطَتْ بشاشتُهُ القلوبَ، لم يُسخِطْهُ ذلك القلبُ أبداً ـ على أنه دعوةُ نبوةٍ ورسالة، لا دعوى مُلْكٍ ورياسةٍ.

والمقصودُ أنَّ ذوقَ حلاوةِ الإيمان والإحسانِ أمرٌ يجده القلبُ، تكون نسبتُه إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم. فللإيمان طعمٌ وحلاوةٌ يتعلق بهما ذوقٌ ووجدٌ، ولا تزولُ الشبه والشكوك عن القلبِ إلاَّ إذا وصل العبدُ إلى هذه الحالِ، فباشر الإيمانُ قلبهُ حقيقةَ المباشرةِ، فيذوقُ طعمَهُ، ويجدُ حلاوته، والله الموفق.

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٢، ١٩٦٤)؛ ومسلم (١١٠٢، ١١٠٥).



(٥١)
منزلة الصفاء

«الصفا»: اسم للبراءة من الكدر، ومن «الصفاء»: صفاء العلم، والعلم الصافي هو الذي جاء به الرسول ﷺ.

وكان الجنيدُ يقول دائماً: عِلْمُنَا هذا مقيدٌ بالكتابِ والسنة، فمن لم يحفظ القُرآن، ويكتُب الحديثَ، ولم يتفقه لا يُقتَدى به.

فهذا العلمُ الصافي المتلقَّى من مشكاةِ الوحي والنبوةِ يُهذبُ صاحبَهُ لسلوك طريقِ العبوديةِ، وحقيقتُها: التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً. وتحكيمُه باطِناً وظاهراً، والوقوفُ معهُ حيثُ وقفَ بِكَ، والمسيرُ معهُ حيثُ سارَ بِك.

فتجْعلَ رسول الله ﷺ لك شيخاً وإماماً وقدوةً وحاكِماً، وتُعلق قلبكَ بقلبِـهِ الكريم وروحانِيتَـكَ بروحانيتِه، فتُجيبُـهُ إذا دعاكَ، وتقِفُ معَـه إذا استوقَفَك، وتسيرُ إذا سارَ بكَ، وتَقيلُ إذا قالَ، وتنْزِلُ إذا نَزَل، وتَغْضَبُ لغضبِهِ، وترضى لرضاهُ، وإذا أخبركَ عَنْ شيء أنزلته منْزلةَ ما تراه بعينكَ، وإذا أخبركَ عن الله بخبرٍ أنزلتَهُ منزِلَةَ ما تسْمَعهُ من الله بأذُنِكَ.

وبالجُمْلَةِ فَتَجعَلُ الرسولَ شيخَكَ وأستاذَكَ، ومعلمَكَ ومربيَـكَ ومؤدبَكَ. وتُسقط الوسائط بيْنَكَ وبينَهُ إلا في التبليغ، كما تُسْقط الوسائلَ بينَكَ وبينَ المرسِلِ في العبوديةِ، ولا تثبت وساطةً إلا في وصولِ أمرِهِ ونهيِهِ ورسالتِهِ إليكَ.

وهذان التجريدانِ هُما حقيقةُ شهادةِ أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً

عبْدُهُ ورسولهُ، واللهُ وحده هو المعبودُ المألوه الذي لا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ سِواهُ، ورسُولُهُ المُطاعُ المُتَّبَعُ، المهتدى به الذي لا يسْتَحِقُّ الطاعَة سواهُ، ومَنْ سِواهُ فإنما يُطاعُ إذا أمر الرسُولُ بطاعتِهِ فيُطاعُ تَبْعاً للأصلِ.

وبالجُملةِ: فالطريقُ مسدودةٌ إلا على من اقْتَفَى آثار الرسول ﷺ، واقْتدى به في ظاهره وباطنه. فلا يتعنَّى السالكُ على غير هذا الطريق، فليس حظُّهُ مِنْ سلُوكِهِ إلا التعبَ، وأعمالُه: ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

* * *

ومن الصفاء أن تعبد الله كأنك تراه:

قال النبي ﷺ في مقامِ الإحسانِ: (أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ)[1]، ولا ريب أن تصديقَ الخبر واليقين، به يقوى القلب حتى يصيرَ الغيبُ بمنزلة المشاهد بالعين، فصاحبُ هذا المقام كأنه يرى ربَّهُ سبحانه فوقَ سمواته على عرشه، مُطلعاً على عباده ناظراً إليهم، يسمعُ كلامهم ويرى ظواهِرَهُمْ وبواطِنَهُم.

وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي ويُكلمُ به عبده جبريل، ويأمرهُ وينهاهُ بما يريد، ويدبر أمر المملكة، وأملاكُهُ صاعدةٌ إليه بالأمرِ، نازلةٌ من عنْدِهِ بهِ.

وكأنه يُشاهدُه، وهو يرضَى ويغضبُ، ويحبُّ ويبغضُ، ويعطي ويمنعُ، ويضحك ويفرح، ويثني على أوليائِه بين ملائكتِه، ويذم أعداءَه.

وكأنهُ يشاهدُه ويشاهدُ يديه الكريمتينِ، وقد قبضت إحداهُما السمواتِ السبع، والأخرى الأرضينَ السبع، وقد طَوَى السمواتِ السبعَ بيمينهِ كما يُطوى السِّجلُّ على أسطر الكتاب.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)؛ ومسلم (٩ و١٠).

وكأنَّهُ يشاهدُه وقد جاءَ لفصلِ القضاءِ بين عباده، فأشرقتِ الأرضُ بنورِهِ.

وكأنَّهُ يسمعُ نداءه لآدم: (يا آدمُ! قُمْ فابعث بعثَ النارِ)[1]، بأُذُنِهِ الآن، وكذلك نداؤه لأهل الموقفِ: ﴿ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]، (وماذا كنتم تعبدون)[2].

وبالجملة: فيشاهدُ بقلبه رباً عرفت به الرسلُ كما عرّفت به الكتبُ، وديناً دعت إليه الرسلُ، وحقائقَ أخبرت بها الرسلُ، فقامَ شاهِد ذلك بقلبهِ كما قامَ شاهد ما أخبرَ به أهل التواتر ـ وإن لم يرهُ ـ من البلادِ والوقائعِ، فهذا إيمانُه يجري مجرى العيانِ، وأما إيمانُ غيره فمحضُ تقليدِ العميانِ.

* * *

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨)؛ ومسلم (٢٢٢).
(٢) رواه البخاري (٢٢)؛ ومسلم (١٨٣).

(٥٢)

منزلة الفرح والسرور

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

إنَّ الله تعالى أمر عبادهُ بالفرحِ بفضلهِ ورحمتِه، وذلك تبعٌ للفرحِ والسرورِ بصاحبِ الفضلِ والرحمةِ، فإنَّ من فرحَ بما يصلُ إليه من جوادٍ كريمٍ، محسنٍ برٍّ، يكون فرحُهُ بمنْ أوصلَ ذلك إليه أولى وأحرى.

ونذكرُ ما في هذه الآية من المعنى.

قال ابنُ عباسٍ، وقتادَة، ومجاهد، والحسنُ، وغيرُهُمْ: «فضلُ اللهِ» الإسلامُ، و«رحمتُهُ» القرآنُ، فجعلوا «رحمته» أخصَّ من «فضلِه»، فإنَّ فضلَهُ الخاصَّ: عامٌّ على أهل الإسلام، ورحمتَهُ بتعليم كتابِهِ لبعضهم دونَ بعض، فجعلَهُمْ مسلمينَ بفضلِهِ، وأنزل إليهم كتابهُ برحمتِهِ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «فضلُ الله: القرآن، ورحمتُه: أنْ جعلنا من أهلِهِ».

قلتُ: يريدُ بذلك أن هاهنا أمرين:

أحدهما: الفضلُ في نفسه. **والثاني**: استعدادُ المحلِّ لقبولِهِ، كالغيثِ يقعُ على الأرضِ القابلَةِ للنباتِ فيتمُّ المقصودُ بالفضلِ، وقبولُ المحلِّ لهُ، واللهُ أعلم.

و«الفرح»: لذةٌ تقعُ في القلبِ بإدراكِ المحبوب ونيلِ المشتَهى، فيتولدُ من إدراكِه حالةٌ تُسمى الفرحَ والسرورَ، كما أن الحزنَ والغمَّ من فَقْدِ المحبوبِ، فإذا فقدهُ تَولدَ من فَقْدِهِ حالةٌ تُسمى الحزنَ والغَمَّ، وذكرَ ـ سبحانهُ ـ الأمرَ بالفرحِ بفضلِه وبرحمتِه عُقَيب قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولا شيء أحقُّ أن يفرحَ العبدُ به من فضلِ اللهِ ورحمتِهِ التي تتضمنُ الموعِظة، وشفاءَ الصدورِ من أدوائِها بالهدى والرحمةِ، فأخبر سبحانُه: أن ما آتى عبادَه من الموعظةِ ـ التي هي الأمرُ والنهيُ المقرون بالترغيب والترهيبِ، وشفاء الصدورِ المتضمن لعافيتِها مِنْ داءِ الجهل، والظُّلْمةِ والغَيِّ والسّفَهِ ـ وهو أشدُّ ألماً لها مِنْ أدواءِ البدنِ، ولكنها لما ألفتْ هذه الأدواء لم تُحس بألمهَا، وإنما يقوى إحساسُها بِها عندَ المُفارقةِ للدُّنْيا، فهُناك يحضرُهُا كلُّ مؤلمٍ مُحْزنٍ، وما آتاها من رَبها الهُدَى الذي يتضمَّنُ ثلجَ الصدورِ باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النَّفْسِ إليه، وحياة الروحِ به. و«الرحمة» التي تجلبُ لها كلَّ خيرٍ ولذةٍ، وتدفعُ عنها كلَّ شرٍّ ومؤلمٍ.

فذلك خير من كل ما يجمع الناسُ من أعراضِ الدُّنيا وزينَتِها، أي: هذا هَوَ الذي ينبغي أن يُفْـرَحَ به، ومن فرحَ به فقدْ فـرحَ بأجلِّ مفـروحٍ بِـهِ، لا ما يجْمَعُ أهل الدُّنيا منها، فإنه ليس بموضعٍ للفرح، لأنه عُرضةٌ للآفاتِ، ووَشيكُ الزوالِ، ووخيمُ العاقبةِ، وهو طيفُ خيالٍ، زارَ الصبَّ في المنامِ، ثم انقضى المنامُ وولى الطيفُ وأعقبَ مزارهُ الهجرانَ.

* * *

وقد جاء «الفرح» في القرآنِ على نوعين: مطلقٌ ومقيدٌ.

فالمطلقُ: جاء في الذم، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيدُ: نوعان أيضاً: مقيدٌ بالدنيا يُنسي صاحبَهُ فضلَ الله ومِنَّتَهُ، فهو

مَذْمُوم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيدٌ بفضلِ الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً: فضلٌ ورحمةٌ بالسببِ، وفضلٌ بالمسببِ؛ فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرحُ باللهِ، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنةِ، وبالعلم، وبالقرآن مِنْ أعلى مقاماتِ العارفين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرحُ بالعلمِ والإيمانِ والسنةِ دليلٌ على تعظيمِهِ عند صاحبه، ومحبته لهُ، وإيثارِه لهُ على غيرِه، فإنَّ فرحَ العبدَ عند حصولهِ لهُ وعلى قدرِ محبتهِ لهُ ورغبتهِ فيهِ، فمنْ ليسَ لهُ رغبةٌ في الشيء لا يُفرِحُهُ حصوله لهُ، ولا يحزُنُه فواتهُ.

فالفرحُ تابعٌ للمحبةِ والرغبةِ.

والفرقُ بينَهُ وبين الاستبشارِ، أن الفرحَ بالمحبوبِ بعد حصوله، والاستبشارُ: يكونُ به قبلَ حُصولِهِ، إذا كان على ثقةٍ من حُصُولِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

و«الفرح» صفةُ كمالٍ، ولهذا يوصفُ الربُّ تعالى بأعلى أنواعه وأكملِها، كفرحه بتوبةِ التائبِ أعظمُ من فرحةِ الواجدِ لراحلتهِ التي عليها طعَامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ المُهْلِكَةِ بعد فَقْده لها، واليأس من حُصُولِها.

والمقصودُ: أن «الفرح» أعلى أنـواع نعيم القلبِ ولذتـهِ وبهجتـهِ، والفرحُ والسرورُ نعيمُهُ، والهمّ والحزن عذابه. والفرح بالشي فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينةٌ وسكونٌ وانشراحٌ، والفرحُ لذةٌ وبهجةٌ وسرورٌ، فكلُّ فرحٍ راضٍ، وليس كل راضٍ فرحاً، ولهذا كان الفرحُ ضدَّ الحزن، والرضى ضِد السخطِ، والحزنُ يؤلمُ صاحبَه، والسخطُ لا يؤلمهُ، إلا إن كانَ مع العجزِ عن الانتقامِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٥٣)
منزلة الغربة

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

إنّ الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: (بَدَأَ الإسلامُ غريباً، وسَيَعُودُ غَرِيباً كَما بَدَأَ، فَطُوبى للْغُرباءِ)[١].

وفي حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله ابن مسعود قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: (إنَّ الإسلامَ بَدأَ غريباً، وسَيَعُودُ غَرِيباً كَما بَدَأَ، فَطُوبى لِلغُرَباءِ، قيل: ومَنْ الغُرَبَاءُ، يَا رسولَ الله؟ قال: النُّزَّاعُ مِنَ القبَائِلِ)[٢].

وفي حديثٍ آخر: (بَدَأَ الإسلامُ غَريباً، وسَيَعُودُ غريباً كَمَا بَدَأَ، فَطُوبى للغُرَبَاءِ، قيل: وَمَنِ الغُرباءُ يا رسول الله؟ قال: الَّذينَ يُحْيونَ سُنَّتي، ويُعَلِّمُونها النَّاسَ)[٣].

وقال نافع عن مالكٍ: دخل عمرُ بن الخطاب المسجدَ، فوجدَ معاذَ بنَ جبل جالساً إلى بيتِ النبيِّ ﷺ، وهو يبكي، فقال له عمرُ: ما يُبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هَلَكَ أَخوك؟ قال: لا، ولكنَّ حديثاً حدثنيه حبيبي ﷺ،

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٢٩)؛ وابن ماجه (٣٩٨٨)؛ والدارمي (٢٧٥٥).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٣٠).

وأَنا في هذا المسجد، فقال: وما هو؟ قال: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَخْفِيَاءَ الأَحْفِيَاءَ الأَتْقِيَاءَ الأَبْرِيَاءَ، الَّذينَ إذا غَابُوا لم يُفتَقَدُوا، وإذا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابيحُ الهدى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ عَمْيَاءَ مُظْلِمَةٍ)[1].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جداً سُمُّوا «غرباء»، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات.

فأهل الإسلام في الناس غرباء.

والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء.

وأهل العلم في المؤمنين غرباء.

وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء.

والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين، هم أشدّ هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم.

* * *

والغربة ثلاثة أنواع:

١ ـ **غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق**: وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به، (بَدَأَ غَرِيباً) وأنه (سَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ) وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً، فإنهم لم يأووا إلى

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩).

غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به.

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون، إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته، إذا استأنسوا، فوليّه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: مَنْ ذَكرهم أَنسٌ في حديثه عن النبي ﷺ: (رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ على اللهِ لأبَرَّه)[1].

وقال الحسن: المؤمنُ في الدُّنيا كالغريب لا يجزعُ من ذُلّها، ولا ينافسُ في عِزِّها، للناسِ حالٌ ولَهُ حالٌ، النَّاسُ منه في راحةٍ، وهو من نفسِهِ في تَعَبٍ.

ومن صفاتِ هؤلاء الغرباء ـ الذين غبطهم النبي ﷺ ـ: التمسك بالسنّة، إذا رغب عنها الناس، وترْك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترْك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً! وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائِمٌ لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق، يعدُّونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شحّهم؟.

ولهذا جُعِلَ للمسلم الصادق في هذا الوقت ـ إذا تمسَّك بدينه ـ: أجر خمسين من الصحابة.

ففي «سنن أبي داود» و«الترمذي» ـ من حديث أبي ثعلبةَ الخُشَني ـ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢).

قال: «سألتُ رسولَ الله عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: (بَلِ ائْتَمِرُوا بالمعرُوفِ وتَنَاهَوْا عَنِ المنكر، حَتَّى إذا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعَاً، وهَوىً مُتَّبعاً، وَدُنْيا مُؤثَرةً، وإِعْجابَ كُلِّ ذِي رأيٍ بِرَأْيِه، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، ودَعْ عَنْكَ العَوامَّ، فإِنَّ مِنْ ورائِكُم أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهنَّ مِثْلُ قَبْضٍ على الجمرِ، للعَامِلِ فِيهنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً يعْمَلُونَ مِثْلَ عمَلِهِ، قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أَجْرُ خَمسينَ مِنْهُم؟ قال: أَجْرُ خَمسينَ مِنكُم)[1]، وهذا الأجر العظيم إنّما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

٢ ـ النوع الثاني من الغربة: **غربة مذمومة**: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

٣ ـ والنوع الثالث: **غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم**: وهي الغربة عن الوطن، فإنَّ الناس كلهم في هذه الدار غرباء، فإنها ليست لهم بدار مُقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها، وقد قال النبيّ ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كُنْ في الدُّنيا كأَنَكَ غَرِيبٌ، أوْ عَابِرُ سَبيلٍ)[2]، وهكذا هو في نفس الأمر، لأنه أُمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة.

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً، وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافرٌ في صورة قاعد. وقد قيل:

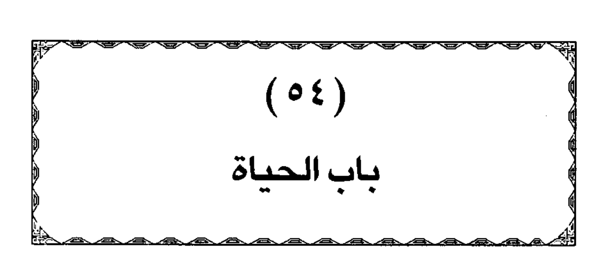
وَمَا هَذِهِ الأيَّامُ إلاَّ مَرَاحِلٌ ... يَحُثُّ بها داعٍ إلى الموتِ قَاصِدُ
وأَعْجَبُ شيءٍ ـ لو تَأَمَّلتَ ـ أنَّها ... مَنَازِلُ تُطْوى والمسافِرُ قَاعِدُ

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١)؛ والترمذي (٣٠٦٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤١٦).



(٥٤)
باب الحياة

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الربُّ تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بَدَنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠].

وسمَّى وحيه روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

فالوحي حياة الروح، كما أنَّ الروح حياة البدن، ولهذا مَنْ فقد هذه الروح فقد فقدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، أما في الدُّنيا فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد فُسّرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة.

كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرُّ بي أوقات، أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقُص فيها طَرباً.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة، تبعته حياة الجوارح، فإنه مَلِكُها، ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار البَرْزخ، ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾[النحل: ٣٠].

فذِكْرُ الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته، والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدُّنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المُنَغَّصة، والمعيشة الضنك في الدُّنيا والآخرة.

* * *

وللحياة مراتب:

منها: مرتبة حياة العلم من موت الجهل، فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهلِ قَبْلَ الموتِ موتٌ لأَهْلِهِ ... وأجسامُهم قَبْلَ القبورِ قُبورُ
وأرواحُهُم في وَحشةٍ من جُسومهم ... فليسَ لهم حتَّى النُّشورِ نشورُ

فإنَّ الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن، فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، وشبههم ـ في موت قلوبهم ـ بأهل القبور، فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبوراً لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك لـه: كانت ميتـة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في «كتاب الزهد» من كلام لقمان، أنه قال لابنه: «يا بُني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل القطر».

وقال معاذ بن جبل: «تعلَّمُوا العلْمَ، فإنَّ تَعلُّمَهُ لله خشْيَةٌ، وطَلَبَـهُ عبَادَةٌ، ومُذاكرَتهُ تسبيحٌ، والبحْثَ عنْهُ جِهَادٌ، وتعْليمهُ لمن لا يعْلمُهُ صدَقَةٌ، وبَذْلَهُ لأهِله قُرْبةٌ، لأنَّهُ معَالمُ الحلالِ والحرامِ، ومَنَارُ سُبُلِ أهْلِ الجنَّةِ، وهُوَ الأنيسُ في الوحْشَةِ، والصَّاحِبُ في الغُرْبَةِ، والمحدِّثُ في الخلوةِ، والدَّليلُ على السَّراءِ والضَّرَّاءِ، والسِّلاحُ على الأعْداءِ، والزَّيْنُ عنْدَ الأخِلاَّءِ، يرْفَعُ اللهُ بِهِ أقواماً فيجْعلُهُم في الخير قادَةً، وأئمةً تُقتَصُّ آثارُهُم، ويُقْتدى بأفْعَالهم، ويُنْتَهَى إلى رأْيِهم، ترْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهم، وبأجنحتِها تمْسَحُهُم، يسْتغْفرُ لهم كُلُّ رَطبٍ ويابِسٍ، وحِيتَانُ البَحْرِ وهَوَامُّه، وسِبَاعُ البَرِّ وأنعامُهُ، لأنَّ العِلْمَ حيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجهلِ، ومَصَابيحُ الأبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يبْلُغُ العَبْدُ بالعلْمِ مَنازِلَ الأخْيَارِ، والدَّرَجاتِ العُلى في الدُّنيا والآخرةِ، التَّفَكُّرُ فيهِ يَعْدِلُ الصِّيامَ، ومُدارستُهُ تعْدِلُ القِيامَ، به تُوْصَلُ الأرْحَامُ، وبهِ يُعْرَفُ الحلالُ مِنَ

الحرامِ. وهُوَ إمَامُ العمَلِ، والعَملُ تابعٌ لَهُ. يُلهَمه السُّعداءُ، ويُحرَمهُ الأشْقيَاءُ» رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما. وقد روي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ. والوقف أصح.

* * *

ومنها: **مرتبة حياة الإرادة والهمة**، وضعف الإرادة والطلب، من ضعف حياة القلب، وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى، فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوبِ، وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته.

فضعف الطلب، وفتور الهمة إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة، فقوة الشعور وقوة الإرادة دليل على قوة الحياة، وضعفهما دليل على ضعفها، وكما أن علو الهمة، وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلى قدر ذلك، تكون الحياة الطيبة، وأخَسُّ الناس حياة أخسهم همة، وأضعفهم محبة وطلباً، وحياة البهائم خير من حياته.

وكما أنَّ الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياة القلب بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب.

والغفلة الجاثمة على القلب، والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته أنه لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً.

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه، إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية! وذلك من موت القلب والروح، فإنَّ هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يُخَيَّلُ

كأنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالاً، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الحياة الدُّنيا ـ من أولها إلى آخرها ـ أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يَسُرُّهُ، ثم استيقظ. فإذا ليس في يده شيء».

وقد قيل: «إنَّ الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي، فمن أمات نفسه موتاً إرادياً، كان موته الطبيعي حياة له»، ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المُرْدية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة، فحينئذ يتفرَّغُ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته والاشتغال به، ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألبّاء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية والنفوس الزكية الأبية.

* * *

ومنها: مرتبة حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها، فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال، ولا يشق عليه لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسَجيّته، فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء، والمروءة والصدق والوفاء ونحوها أتمُّ مَنْ حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك، فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء، وهو يعالجها، ويقهرها بأضدادها، وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل، كانت حياته أقوى وأتم، ولهذا كان خُلُق «الحياء» مشتقاً من «الحياة» اسماً وحقيقةً، فأكمل الناس حياة أكملهم حياء. ونقصان حياء المرء من نقصان حياته، فإن الروح إذا ماتت، لم تحس بما يؤلمها من القبائح، فلا تستحيي منها، فإذا كانت

صحيحة الحياة، أحست بذلك، فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة.

* * *

ومنها: **مرتبة حياة الفرح والسرور** وقرة العين بالله، وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذي تَقَرُّ به عين طالبه، فلا حياة نافعة له بدونه، وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم، وكلهم قد أخطأ طريقها، وسلك طرقاً لا تفضي إليها، بل تقطعه عنها إلا أقل القليل.

فَدارَ طَلَبُ الكُلِّ حولَ هذه الحياة، وحُرِمَها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة، فإن مادتها بصيرة وقَّادَة وهمة نقَّادة، والبصيرة كالبصر تكون عمى وعَوراً، وعَمَشاً ورمداً، وتامة النور والضياء، وهذه الآفات قد تكون لها بالخِلْقَة في الأصل، وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَنْ عقله مَسْبِيٌّ في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مُسْتَهْلَكٌ بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!.

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء، فهل يمكنك وصف طريقها، لأصِلَ إلى شيء من أذواقها، فقد بان لي أنَّ ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية، ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن المنكرات والمُنغِّصات وسلامة العاقبة؟

قلت: لعمر الله! إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها لدليل على حياتك، وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقاً يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيّات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها، فيُفْدى من أسرها، ويصير طليقاً، فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وَأَخْرُجُ مِنْ بَين البُيوتِ، لَعَلَّني أَحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ في السرِّ خَالِيا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتِحَ عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبُه ما أنزلت فيه، وما أُريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، وشاهد حَظَّه من الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عين أخرى، يشاهد بها صفات الرب جلَّ جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه، فيشهد علو الرب سبحانه

فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبُه رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلاً لكتبه، معبوداً مطاعاً، لا شريك له ولا مثيل، ولا عدل له، ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له، فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير، فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضرّ، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره، فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتح له مشهد «القرب» و«المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائناً من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والخلق والأمر، فيحصل له ـ مع التعظيم والإجلال ـ الأنس بهذه الصفة، فيأنس به بعد أن كان مستوحشاً، ويقوى به بعد أن كان ضعيفاً، ويفرح به بعد أن كان حزيناً، وَيَجِدُ بعد أن كان فاقداً، فحينئذ يجد طعم قوله: (وَلا يَزالُ عبْدي يَتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحبَبْتُهُ كُنتُ سمْعَهُ الذي يسْمَعُ بهِ، وبصَرَه الَّذي يُبْصِرُ بهِ، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمْشِي بِها، ولئِنْ سألَني لأعْطيَنَّهُ، ولئن اسْتَعاذَني لأعِيذنَّهُ)[1].

فأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد، فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه، قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره، وعكوف همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه، فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكونُ المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه، وذاتُه غائبة عنه، فاضرب عنه صفحاً، وخَلِّ هذا الشأن لأهله:

خَلِّ الهوى لأُناسٍ يُعْرَفونَ بِهِ قَدْ كَابَدوا الحبَّ حتَّى لانَ أصْعَبُهُ

* * *

ومنها: **مرتبة حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان**، وخلاصها من هذا السجن وضيقه، فإن من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة، نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك.

قال بعض العارفين: لِتكُنْ مبادرتك إلى الخروج من الدُّنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة.

قال الله تعالى في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ـ٨٩].

ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغِّص رؤيتُه ومشاهدتُه الحياةَ، ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجِسْر يُعْبَر منه، إليها، لكفى به تحفة للمؤمن.

فالاجتهاد في هذا العمر القصير والمدة القليلة والسعي والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة إنما هو لهذه الحياة، والعلوم والأعمال وسيلة إليها، وهي يَقَظة وما قبلها من الحياة نوم، وهي عين وما قبلها أثر، وهي حياة جامعة بين فقد المكروه وحصول المحبوب في مقام الأنس وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب، حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها، لأنها في

بلد لا عهد لنا به، ولا إلف بيننا وبين ساكنه، فالنفس ـ لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً ـ تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلـهي، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ، فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العيان.

وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نَخِرة، فليس العمل على الطَّلَلَ، إنما الشأن في الساكِن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟!.

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة ـ التي هي يقظة من نوم الدنيا ـ أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

* * *

ومن مراتب الحياة: الحياة الدائمة الباقية بعد طَيِّ هذا العالم وذهاب الدُّنيا وأهلها في دار الحيوان، وهي الحياة التي شمر إليها المشمِّرون، وسابق إليها المتسابقون، ونافس فيها المتنافسون، وهي التي أجرينا الكلام إليها، ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ

يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦]. وهي التي قال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها، وكل ما تقدم ـ من وصف السير ومنازله، وأحوال السائرين وعبوديتهم الظاهرة والباطنة ـ فوسيلة إلى هذه الحياة، وإنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها، كما قال النبي ﷺ: (مَا الدُّنيا في الآخرةِ إلاَّ كَما يُدخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ في اليَمِّ فلينْظُرْ بِمَ تَرْجِع؟)[1].

وكما قيل: تنفست الآخرة، فكانت الدُّنيا نفساً من أنفاسها، فأصاب أهل السعادة نَفَس نعيمها، فهم على ذلك النفس يعملون، وأصاب أهلَ الشقاوة نفس عذابها، فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة، فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدُّنيا وضيقها؟! فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول، وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكْرَةً وعَشِياً ويسمعون خطابه؟!.

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٥٥)
باب القبض والبسط

القبض نوعان: قبض في الأحوال، وقبض في الحقائق.

فالقبض في الأحوال: أمر يطرق القلب ويمنعه عن الانبساط والفرح، وهو نوعان أيضاً:

أحدهما ـ ما يعرف سببه، مثل تذكر ذنب، أو تفريط، أو بُعْدٍ، أو جفوة أو حدوث ما هو نحو ذلك.

والثاني ـ ما لا يعرف سببه، بل يهجم على القلب هجوماً لا يقدر على التخلص منه. وهذا هو القبض المشار إليه على ألسنة القوم، وضده «البسط»، فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفك عنهما.

وقال أبو القاسم الجنيد: في معنى القبض والبسط معنى الخوف والرجاء، فالرجاء: يبسط إلى الطاعة، والخوف: يقبض عن المعصية.

فكلهم تكلم في «القبض والبسط» على هذا المنهج حتى جعلوه أقساماً: قبض تأديب، وقبض تهذيب، وقبض جمع، وقبض تفريق. ولهذا يمتنع صاحبه ـ إذا تمكن منه ـ من الأكل، والشرب، والكلام، وفعل الأوراد، والانبساط إلى الأهل وغيرهم.

فقبض التأديب: يكون عقوبة على غفلة، أو خاطر سوء، أو فكرة رديئة.

وقبض التهذيب: يكون إعداداً لبسط عظيم شأنه يأتي بعده، فيكون

القبض قبله كالتنبيه عليه والمقدمة له، كما كان «الغَتُّ والغَطُّ» مقدمة بين يدي الوحي، وإعداده لوروده[1]. وهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج، والبلاء مقدمة بين يدي العافية، والخوف الشديد مقدمة بين يدي الأمن. وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها.

وأما قبض الجمع: فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله من انقباضه عن العالم وما فيه، فلا يبقى فيه فضل ولا سعة لغير من اجتمع قلبه عليه، وفي هذه الحال من أراد من صاحبه ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه..

وأما قبض التفرقة: فهو القبض الذي يحصل من قلبه عن الله، وتشتته عنه في الشعاب والأودية، فأقل عقوبته ما يجده من القبض الذي يتمنى معه الموت.

* * *

و«البسط»: إرسال ظواهر العبد وأعماله على مقتضى العلم، ويكون باطنه مغموراً بالمراقبة والمحبة والأنس بالله، فيكون جماله في ظاهره وباطنه، فظاهره قد اكتسى الجمالَ بموجب العلم، وباطنه قد اكتسى الجمال بالمحبة والرجاء والخوف والمراقبة والأنس، فالأعمال الظاهرة له دِثار، والأحوال الباطنة له شعار، فلا حاله ينقص عليه ظاهر حكمه، ولا علمه يقطع وارد حاله، وقد جمع سبحانه بين الجمالين ـ أعني: جمال الظاهر وجمال الباطن ـ في غير موضع من كتابه.

منها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

(١) جاء هذا في حديث بدء الوحي عند البخاري (٣)؛ ومسلم (١٦٠).

وميدان الرحمن الذي بسطه: هو الذي نصبه لأنبيائه وأوليائه، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب، وهي سعة الصدر ودوام البِشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً، وإجابة الدعوة، ولين الجانب، حتى يظن كلُّ واحد من أصحابه، أنه أحبهم إليه، وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً، أو مستحباً، أو مباحاً، يعين عليهما.

جعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران، ويُشفَى بهم العليل، ويُستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى، فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا، وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا، فإن حركاتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وعلى أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم، وهذا النور الذي أضاء على الناس منهم هو نور العلم والمعرفة.

والعلماء ثلاثة:

عالم استنار بنوره، واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء.

وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرّط كان نفعه قاصراً على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما.

وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم.

* * *

(٥٦)

باب المعرفة

وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم»، فلفظ «المعرفة» كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقاً، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وما تصرَّف منه، فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلّام، وعلمَ، ويعلم، وأخبر أن له علماً، دون لفظ «المعرفة» في القرآن، ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصة، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وهذه الطائفة ترجح «المعرفة» على «العلم» جداً، وكثيرٌ منهم لا يرفع بالعلم رأساً، ويعده قاطعاً وحجاباً دون المعرفة، وأهل الاستقامة منهم: أشد الناس وصية للمريدين بالعلم، وعندهم أنه لا يكون ولي لله كامل الولاية من غير أولي العلم أبداً، فما اتخذ الله ولا يتخذ ولياً جاهلاً، والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص، والعلم أصل كل خير وهدى وكمال.

* * *

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» لفظاً ومعنى.

أما اللفظ: ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد، تقول: عرفت الدار، وعرفت زيداً، قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

وفعل «العلم» يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وإن وقع على مفعول واحد، كان بمعنى المعرفة، كقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما الفرق المعنوي فمن وجوه:

أحدها: أنَّ «المعرفة» تتعلق بذات الشيء، و«العلم»: يتعلق بأحواله، فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحاً عالماً، ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فالمعرفة: حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس، والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفة تشبه التصور، والعلم: يشبه التصديق.

الثاني: أنَّ المعرفة: شبه الذكر للشيء، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر، ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار، وضد العلم: الجهل، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ويقال: عرف الحق فأقرَّ به، وعرفه فأنكره.

الفرق الثالث: أنّك إذا قلت: عَلِمْتُ زيداً، لم يفد المخاطب شيئاً، لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أي حال علمته؟ فإذا قلت: كريماً أو شجاعاً، حصلت له الفائدة، وإذا قلت: عرفت زيداً، استفاد المخاطب أنك أثبته وميّزته عن غيره، ولم يبق منتظراً لشيء آخر.

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند أهل هذا الشأن: أنَّ «المعرفة»

عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة.

فالعارف ـ عندهم ـ من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملته، ثم أخلص له في قصوده ونياته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهَّر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمته وبَليَّاته، ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته، ثم جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يَشُبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته، فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة، وإذا سُمِّيَ به غيره فعلى الدعوى والاستعارة.

* * *

وقد تكلموا على «المعرفة» بآثارها وشواهدها.

فقال بعضهم: من أمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

ومن علامات العارف: أنه لا يطالب، ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له على أحد حقاً.

ومن علاماته: أنه لا يأسف على فائت، ولا يفرح بآت، لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال، لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض، يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظِلُّ كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدُّنيا، ولم يقضِ وطره من شيئين: بكاء على نفسه، وثناء على ربه.

وهذا من أحسن الكلام، فإنه يدلُّ على معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الإزراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقيل لعبد الله بن المبارك: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه.

فأتى عبد الله بأصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه إلا به، وهو المباينة والعلو على العرش.

* * *

ولا يستقر للعبد قدم في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤمن بصفات الرب جلَّ جلاله، ويعرفها معرفة، تخرجه عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان، وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ـ٢٣].

فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم، وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، ولم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه، من أعظم ظن السوء به.

* * *

وإنَّ العقل قد يئس من تَعرُّف كُنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف اللهُ

إلا الله، وهذا معنى قول السلف: «بلا كيف» أي: بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تُعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنَّا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فَعَجْزُنَا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟! من لو كُشِف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والأرض وما فيهما وما بينهما وما وراء ذلك؟! الذي يقبض سمواته بيده، فتغيب كما تغيب الخردلة في كف أحدنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلها إلى علمه أقل من نسبة نَقْرَة عصفور من بحار العلم، الذي لو أنَّ البحر ـ يُمِدُّهُ من بعده سبعة أبحر ـ مداد وأشجار الأرض أقلام ـ من حين خلقت إلى قيام الساعة ـ لفني المداد وفنيت الأقلام، ولم تَنْفَدْ كلماته، الذي لو أن الخلق من أول الدُّنيا إلى آخرها ـ إنسهم وجنهم، وناطقهم وأعجمهم ـ جُعلوا صفاً واحداً: ما أحاطوا به سبحانه، الذي يضع السموات على إصبع من أصابعه، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والأشجار على إصبع. ثم يَهُزُّهُنَّ. ثم يقول: أنا الملك.

* * *

والتحقيق: أنَّ صفات الرب ـ جلَّ جلاله ـ داخلة في مسمى اسمه، فليس اسمه «الله»، و«الرب»، و«الإلـه» أسماء لذات مجردة لا صفة لها البتة، فإنَّ هذه الذات المجردة وجودها مستحيل، وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات، ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه، و«الرب»، و«الإلـه» اسم لذاتٍ لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال، كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والبقاء،

والقِدم، وسائر الكمال الذي يستحقه الله لذاته. فصفاته داخلة في مسمى اسمه، فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات فرض وخيال ذهني لا حقيقة له، وهو أمر اعتباري لا فائدة فيه، ولا يترتب عليه معرفة ولا إيمان، ولا هو علم في نفسه.

* * *

(٥٧)
التوبة آخر مقامات السالكين

إنَّ غاية مقام السالكين التوبة، التي هي بدايات منازلهم.

ولعل سَـمْعَكَ ينفرُ من هذا غايـة النفور، وتقول: هذا كلام من لم يعرف شيئاً من طريق القوم، ولا نزل في منازل الطريق، ولعمر الله إن كثيراً من الناس ليوافقك على هذا، ويقول: أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» وبيننا وبينها مئة مقام، فنرجع من مئة مقام إليها، ونجعلها غاية مقام السالكين؟

فاسمع الآن وعِهْ، ولا تعجل بالإنكار، ولا تبادر بالرد، وافتح ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربك، وما ينبغي له منك، وما له من الحق عليك، ثم انسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التي نزلتها والمقامات التي قمت فيها ـ لله وبالله ـ إلى عظيم جلاله، وما يستحقه وما هو له أهل.

فإن رأيتها وافيةً بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة، والرجوع إليها رجوع عن المقامات العلية، وانحطاط من علو إلى سفل، ورجوع من غاية إلى بداية، وما ذلك ببعيد من كثير من المنتسبين إلى هذا الشأن، المغرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم.

وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به ـ من صدق وإخلاص، وإنابة وتوكل، وزهد وعبادة ـ لا يفي بأيسر حقٍّ له عليك، ولا يكافئ نعمة من نعمه عندك، وأنَّ ما يستحقه ـ لجلاله وعظمته ـ أعظم وأجلّ وأكبر مما يقوم به الخلق.

فاعلم الآن أنَّ التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفاره وأكثره، قال الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال، وذلك الجهاد.

وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وفي «الصحيح»: أنَّه ﷺ ما صلى صَلاةً ـ بَعْدَ مَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورة ـ إلاَّ قال فيها: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي)[1]، وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهم منها علماء الصحابة ـ كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ـ: أنه أجَلُ رسول الله ﷺ، أعْلَمَهُ اللهُ إياه، فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر أمره، على ما كان عليه ﷺ مقاماً وحالاً.

وآخر ما سُمع من كلامه عند قدومه على ربِّهِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي، وأَلْحِقْنِي بالرَّفيقِ الأعلى)[2].

---

(١) رواه البخاري (٧٩٤)؛ ومسلم (٤٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٥)؛ ومسلم (٢٤٤٤).

وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار، كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد، فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال: (آيبونَ، تَائِبُونَ، لربِّنَا حَامِدُونَ)[1].

وشرع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة.

وشرع أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار[2]. فيقول عند النوم: (أَسْتَغْفِرُ الله الَّذي لا إلـهَ إلاَّ هَوَ الحي القيومَ وأتوبُ إليه)[3]، وأن ينام على سيد الاستغفار[4].

* * *

والعارف بالله وأسـمائه وصفاتـه وحقوقه، يعلم أن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة في نهايته.

فالحق أنَّ نهاية السالكين تكميل مرتبة العبودية صرفاً، وهذا مما لا سبيل إليه لبني الطبيعة، وإنَّما خصّ بذلك الخليلان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من بين سائر الخلق. أما إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ شهد له بأنه وَفَّى. وأما سيد ولد آدم ـ صلوات الله وسـلامه عليه ـ فإنه كمَّل مرتبة العبوديـة، فاسـتحق التقديم على سـائر الخلائق، فكان صاحبَ الوسيلة والشفاعة التي يتأخر عنها جميع الرسل، ويقول هو: (أنا لها)، ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، وأشرف أحواله. كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

ولهذا يقول المسيح، حين يُرغَب إليه في الشفاعة: (اِذْهَبُوا إلى

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧)؛ ومسلم (١٣٤٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)؛ والدارمي (٢٦٦١).
(٣) رواه الترمذي (٣٣٩٤).
(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦).

محمد، فإنه عبد غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ ومَا تَأَخَّر)[1]، فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

فرجع الأمر إلى أن غاية المقامات ونهايتها هي التوبة والعبودية المحضة، لا جمع العين، ولا جمع الوجود، ولا تلاشي الاتصال.

فإن قلت: فهذا الجمع إنما يحصل لمن قام بحقيقة التوبة والعبودية.

قيل: ليس كذلك، بل الجمع الذي يحصل لمن قام بذلك هو جمع الرسل وخلفائهم، وهو:

جمع الهمة على الله سبحانه؛ محبة وإنابة وتوكُّلاً وخوفاً ورجاءً ومراقبة، وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوةً وجهاداً.

فهما جمعان: جمع القلب على المعبود وحده، وجمع الهمِّ على مَحض عبوديته.

فإن قلت: فأين شاهد هذين الجمعين؟.

قلت: في القرآن كله، فخذه من فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتأمل ما في قوله: ﴿إياك﴾، التخصيص لذاته المقدسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله: ﴿نعبد﴾: الذي هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنة: من استيفاء أنواع العبادة، حالاً واستقبالاً، قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، والاستعانة على ذلك به لا بغيره؛ ولهذا كانت الطريق كلها في هاتين الكلمتين. وهي معنى قولهم: «الطريق في: إياك أريد بما تريد»، فجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذي يحبه ويرضاه، فإلى هذا دعت الرسلُ من أولهم إلى آخرهم، وإليه شَخَص العاملون، وتوجَّه المتوجهون، وكل الأحوال والمقامات ـ من أولها إلى آخرها ـ مندرجة في ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجباته.

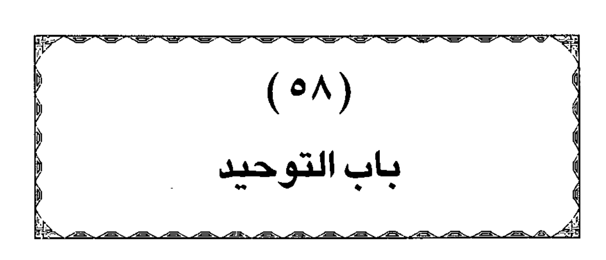
---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)؛ ومسلم (١٩٤).

فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقها غاية، وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها ـ كما يجب ـ سبيل؛ فالتوبة هي المعول والآخِيّة[1]. وقد عرفت ـ بهذا وبغيره ـ أنَّ الحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، ولولا تنسم روحها لحال اليأس بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين، هذا لو قام بما ينبغي عليه أن يقوم به لسيده من حقوقه، فكيف والغفلة والتقصير والتفريط والتهاون، وإيثار حظوظه في كثير من الأوقات على حقوق ربه لا يكاد يتخلص منها، ولا سيما السالك على درب الفناء والجمع؟ لأن ربه يطالبه بالعبودية، ونفسه تطالبه بالجمع والفناء، ولو حقق النظر مع نفسه وحاسبها حساباً صحيحاً لتبيَّن أن حَظَّه يريد، ولذتَه يطلب. نعم كل أحد يطلب ذلك، لكن الشأن في الفرق بين من صار حظه نفس مرضاة الله ومحابه، أحبت ذلك نفسه أو كرهته، وبين من حظه ما يريد من ربه، فالأول: حظه مراد ربه الديني الشرعي منه، وهذا حظه مراده من ربه. وبالله التوفيق.



(١) الأخيّة: واحدة الأواخي: وهي مثل عُروة تشدّ إليها الدّابة.



(٥٨)
باب التوحيد

«التوحيد»: أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لرسوله معاذ بن جبل رضي الله عنه ـ وقد بعثه إلى اليمن ـ: (إنَّكَ تأْتي قَوْماً أَهْلَ كِتَاب، فَلْيَكُن أَوَّل مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ عِبَادة اللهِ وَحْدَه، فإذا شَهِدُوا أَنْ لا إلـهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ محمداً رسول الله، فَأَخْبِرْهُم أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلواتٍ في اليومِ والليلة. . .) وذكر الحديث[1].

وقال ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهدوا أَنْ لا إلـهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ محمداً رسول الله)[2].

ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إلـه إلا الله؛ لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك ـ كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم ـ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)؛ ومسلم (١٩).

(٢) رواه البخاري (٢٥)؛ ومسلم (٢٢).

فالتوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لا إلـهَ إلاَّ الله: دَخَلَ الجنة)[1] فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

[التوحيد الذي دعت إليه الرسل]:

والتوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها، وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد.

بل نقول قولاً كلياً: إنَّ كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإنَّ القرآن:

إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري.

---

(١) رواه أبو داود (٣١١٦).

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمَّن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم؛ فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، و﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ توحيد، و﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، و﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

[شهادته سبحانه وتعالى لنفسه]:

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته، وأنبياؤه ورسله، قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ١٩].

فتضمَّنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلـٰهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية : أجلّ شهادة ، وأعظمها ، وأعدلها ، وأصدقها ، من أجلّ شاهدٍ بأجلِّ مشهود به . وعبارة السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان ، والإخبار . قال مجاهد : حَكَمَ ، وقضى . وقال الزجّاج : بَيَّنَ . وقالت طائفة : أعلم وأخبر .

وهذه الأقوال كلها حق لا تَنافي بينها ، فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله . وتتضمن إعلامه ، وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب .

فأول مراتبها : علم ، ومعرفة ، واعتقاد لصحة المشهود به ، وثبوته .

وثانيها : تَكَلُّمه بذلك ، ونطقه به ، وإن لم يُعلم به غيره ، بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها ، وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط تضمَّنت هذه المراتب الأربع : علم الله سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم : فإنَّ الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

وأما مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به ، فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بالشهادة ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] . فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ، ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار : فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل . وهذا شأن كل مُعلم لغيره بأمر ، تارةً يُعلمه بقوله وتارةً بفعله ،

ولهذا كان من جعل داراً مسجداً، وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذَّن بالصلاة فيها مُعْلِماً أنها وقف وإن لم يتلفظ به.

وكذلك شهادة الرب ـ جلَّ جلاله ـ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارةً وبفعله تارةً أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، ومما قد علم بالاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شهد لنفسه «بأنه لا إلـه إلا هو» وأخبر بذلك، وأمر عباده أن يشهدوا به، وشهادته سبحانه «أن لا إلـه إلا هو» معلومة من جهة كل من بلّغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه يدلّ بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير، قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إلـه إلا هو.

وأما المرتبة الرابعة ـ وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدلّ عليه وتتضمنه ـ فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل: ٥١]، والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إلـه إلا هو، فقد أخبر وبيّن وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس إلـه، وأن إلـهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح

الإلـٰهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلـٰهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلـٰهاً.

* * *

وفي ضمن هذه الشهادة الإلـٰهية الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم، فإنه ـ سبحانه ـ قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم ـ جلَّ وعلا ـ على أجلّ مشهود به، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة، كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق، فالحجة قامت بالرسل على الخلق، وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد.

وقد فسرت «شهادة أولي العلم» بالإقرار، وفسرت بالتَّبيين والإظهار، والصحيح أنها تتضمن الأمرين، فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨]، فأخبر أنه جعلهم عدولاً خياراً، ونوّه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة، فمن لم يقم بهذه الشهادة ـ علماً وعملاً، ومعرفةً وإقراراً، ودعوةً وتعليماً، وإرشاداً ـ فليس من شهداء الله، والله المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، اختلف المفسرون هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر «إن» وفتحها،

فالأكثرون على كسرها على الاستئناف، وفتحها الكسائي وحده، والوجه: هو الكسر؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها، وهذا أبلغ في التقرير، وأذهب في المدح والثناء.

[تفاوت أهل التوحيد]:

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم ـ علماً ومعرفةً وحالاً ـ تفاوتاً لا يحصيه إلا الله.

فأكمل الناس توحيداً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك.

وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأكملهم توحيداً: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما ـ علماً ومعرفةً وحالاً، ودعوة للخلق وجهاداً ـ فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه.

ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه ـ بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته ـ ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠]، فلا أكمل من توحيد من أُمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم.

ولما قاموا بحقيقته ـ علماً وعملاً ودعوةً وجهاداً ـ جعلهم الله أئمة للخلائق، يهدون بأمره، ويدعون إليه. وجعل الخلائق تبعاً لهم، يأتمّون بأمرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده، وخص بالسعادة والفلاح والهدى

أتباعهم، وبالشقاء والضلال مخالفيهم، وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: لا ينال عهدي بالإمامة مشرك.

ولهذا أوصى نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم.. وكان يُعَلِّم أصحابه، إذا أصبحوا أن يقولوا: (أَصْبَحْنَا عَلى فِطْرَةِ الإسلامِ، وكَلِمَةِ الإِخْلاَصِ، ودين نبينا محمد ﷺ، ومِلّةِ أَبينا إبراهيمَ، حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كانَ مِنَ المشركين)[1]، فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه، فهو من أسفه السفهاء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١].

فقسم ـ سبحانه ـ الخلائق قسمين: سفيهاً لا أسفه منه، ورشيداً. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك، والرشيد: من تبرّأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً، فكان قوله توحيداً، وعمله توحيداً، وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد.

[أدلة العامة من المسلمين]:

لا ريب أن أكثر الناس لا يحسنون الاستدلال، وهذا قدر زائد على وجود التوحيد في قلوبهم، فما كل من وجد شيئاً، وعَلِمه وتيقّنه، أحسن أن يستدلّ عليه ويقرره، ويدفع الشبه القادحة فيه، فهذا لون ووجوده لون،

(١) رواه أبو داود (٢٦٨٨).

ولكن لا بد ـ مع ذلك ـ من نوع استدلال قام عنده، وإن لم يكن على شروط الأدلة التي ينظمها أهل الكلام وغيرهم وترتيبها؛ فهذه ليست شرطاً في التوحيد ـ لا في معرفته والعلم به، ولا في القيام به عملاً وحالاً ـ فاستدلال كل أحد بحسبه، ولا يحصي أنواع الاستدلال ووجوهه ومراتبه إلا الله، فلكل قوم هاد.

ولكل علم صحيح ويقين دليل يوجبه، وشاهد يصح به، وقد لا يمكن صاحبه التعبير عنه عجزاً وعيّاً، وإن عبّر عنه فقد لا يمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم وألفاظهم، وكثيراً ما يكون الدليل الذي عرف به الحق أصحّ من كثير من أدلة المتكلمين ومقدماتها، وأبعد عن الشبه، وأقرب تحصيلاً للمقصود، وإيصالاً إلى المدلول عليه.

ومن استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيراً من أهل الإسلام ـ أو أكثرهم ـ أعظم توحيداً، وأكثر معرفة، وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلّمين، وأرباب النظر والجدال، ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التي يصحّ بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين.

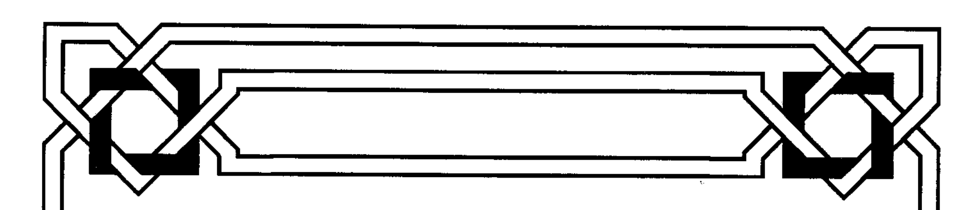
وهذه الآيات التي ندب الله عباده إلى النظر فيها، والاستدلال بها على توحيده، وثبوت صفاته وأفعاله، وصدق رسله هي آيات مشهودة بالحسِّ، معلومة بالعقل، مستقرة في الفطر، لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطُرُقهم البتة. وكل من له حسٌّ سليمٌ وعقلٌ يميز به يعرفها ويُقِرُّ بها، وينتقل من العلم بها إلى العلم بالمدلول. وفي القرآن ما يزيد على عشرات ألوف من هذه الآيات البيّنات، ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى المدلول أسرع انتقال وأقرَّ به.

وبالجملة: فما كل من علم شيئاً أمكنه أن يستدلّ عليه، ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه، يُحسن ترتيب الدليل وتقريره، والجواب عن المعارض.

و«الشواهد» التي ذكرها هي الأدلة، كالاستدلال بالمصنوع على الصانع، والمخلوق على الخالق، وهذه طريقة القرآن الذي لا توحيد أكمل من توحيده.

* * *





الباب الثالث

مختارات

«إنّها فصول ذات صلة بموضوع الكتاب جاءت ضمن استطرادات المؤلف، فرأيت أن أضعها في هذا الباب إتماماً للفائدة».

(١)
المصطلحات وبُعدها عن عامة الناس

اعلم أنَّ العبد أحوج إلى التوبة من الفناء، والاتصال[1]، وجمع الشواهد، وجمع الوجود، وجمع العين، وكيف يكون ذلك أعلى مقامات السالكين، وغاية مطلب المقربين، ولم يأتِ له ذكر في القرآن ولا في السنة. ولا يعرفه إلا النادر من الناس، ولا يتصوره أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه، ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة؟

فأين في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، أو كلام الصحابة ـ الذين نِسْبةُ معارف مَنْ بعدهم إلى معارفهم كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم ـ ما يدل على ذلك، أو يشير إليه؟ فصار المتأخرون ـ أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة، والمعاني المتشابهة ـ: أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين، وغاياتها من أعلم الخلق بالله بعد رسله؟! هذا من أعظم الباطل!!.

وهؤلاء في باب الإرادة والطلب والسلوك نظير أرباب الكلام من المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم في باب العلم والخبر عن الله وأسمائه وصفاته، فالطائفتان ـ بل وكثير من المصنفين في الفقه ـ من المتكلفين أشد التكلف، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صَ: ٨٦].

---

(١) جاء هذا الموضوع في: ٣/ ٤٣٦ طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق محمد حامد الفقي، وقد ذكرهُ المؤلف استطراداً في منزلة التوبة.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كانَ منكم مُستنّاً فليستن بمن قد مات، فإنّ الحيَّ لا يُؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أَبَرُّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

فلا تجد هذا التكلف الشديد، والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلاً، وإنما يوجد عند من عَدَل عن طريقهم. وإذا تأمله العارف وجده «كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل»، فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ. فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طحيناً.

فالمتكلمون في جعاجع الجواهر والأعراض والأكوان والألوان، والجوهر الفرد، والأحوال والحركة والسكون، والوجود والماهية والانحياز، والجهات والنسب والإضافات، والغيرين والخلافين، والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف، والعرض هل يُبقي زمانين؟ وما هو الزمان والمكان؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان، ويعترف بأنه لم يعرف الوجود، هل هو ماهية الشيء، أو زائد عليها؟ ويعترف أنه شاك في وجود الرب هل هو وجود محض، أو وجود مقارن للماهية؟ ويقول: الحق عندي الوقف في هذه المسألة.

ويقول أفضلهم ـ عند نفسه ـ عند الموت: أخرج من الدنيا وما عرفت إلا مسألة واحدة، وهي أن الممكن يفتقر إلى واجب، ثم يقول: الافتقار أمر عدمي، فأموت ولم أعرف شيئاً، وهذا أكثر من أن يذكر، كما قال بعض السلف: أكثر الناس شكاً عند الموت: أرباب الكلام.

وآخرون أعظم تكلفاً من هؤلاء، وأبعد شيء عن العلم النافع، وهم

أرباب الهيولى والصورة والاصطقصات، والأركان والعلل الأربعة، والجواهر العقلية، والمفارقات، والمجردات، والمقولات العشر، والكليات الخمس، والمختلطات والموجهات، والقضايا المسوارات، والقضايا المهملات، فهم أعظم الطوائف تكلفاً، وأقلهم تحصيلاً للعلم النافع والعمل الصالح.

وكذلك المتكلِّفون من أصحاب الإرادة والسلوك، وأرباب الحال والمقام، والوقت والمكان، والبادي والباذه والوارد، والخاطر والواقع، والقادح واللامع، والغيبة والحضور، والمحق والحق، والسكر، واللوائح والطوالع، والعطش والدهش، والتلبيس، والتمكين والتلوين، والاسم والرسم، والجمع وجمع الجمع، وجمع الشواهد، وجمع الوجود، والأثر، والكون، والبون، والاتصال والانفصال، والمسامرة والمشاهدة، والمعاينة، والتجلي، والتخلي، وأنا بلا أنا، وأنت بلا أنت، ونحن بلا نحن، وهو بلا هو. وكل ذلك أدنى إشارة إلى تكلف هؤلاء الطوائف وتنطعهم. وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه.

فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم، موقوفون على ما عندهم، خاضوا - بزعمهم - بحار العلم، وما ابتلَّتْ أقدامهم، وكدّوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم، وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم، فرحين بما عندهم من العلوم، راضين بما قيدوا به من الرسوم، فهم في وادٍ ورسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في واد، والله يعلم أنَّا لم نتجاوز فيهم القول، بل قصرنا فيما ينبغي لنا أن نقوله؛ فذكرنا غَيضاً من فيض، وقليلاً من كثير.

وهؤلاء كلهم داخلون تحت الرأي، الذي اتفق السلف على ذمه وذم أهله.

فهم أهل الرأي حقاً، الذين قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعْيَتْهُم الأحاديثُ أن يحفظوها، فقالوا بالرأي، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»، وقال أيضاً: «أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم أن يعوها، وتفلتت عليهم أن يرووها، فاشتغلوا عنها بالرأي».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «أي أرض تُقِلُّني؟ وأي سماء تُظِلني؟ إنْ قلتُ في كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم؟».

وقال ﷺ في الحديث الذي رويناه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (أَلاَ هَلَكَ المتنطِّعُونَ، أَلاَ هَلَكَ المتنطِّعون، ألاَ هَلَكَ المتنطِّعون)[1]. فإن لم تكن هذه الألفاظ والمعاني التي نجدها في كثير من كلام هؤلاء تنطّعاً فليس للتنطع حقيقة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المصطلحات ومسألة الحلول:

ومرادُ القوم بالاتصالِ والوصول: اتصالُ العبد بربه ووصوله إليه، لا بمعنى اتصالِ ذاتِ العبدِ بذاتِ الربِّ، كما تتصلُ الذاتان إحداهما بالأخرى، ولا بمعنى انضمامِ إحدى الذاتينِ إلى الأخرى والتصاقها بها، وإنما مرادُهم بالاتصال والوصول: إزالةُ النفس والخَلْق من طريقِ السير إلى الله، ولا تتوهم سوى ذلك، فإنه عين المحال.

فإن السالكَ لا يزالُ سائراً إلى الله تعالى حتى يموت، فلا يَنْقَطِعُ سيرُهُ إلا بالموت، فليس في هذه الحياة وصولٌ يفرغُ معه السيرُ وينتهي، وليسَ ثَمَّ اتصال حِسِّي بين ذات العبد وذاتِ الربِّ.

فالأول[2]: تَعْطيلٌ وإلحادٌ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) المراد به: فراغ السير وانتهاؤه إلى الوصول.

والثاني[1]: حلولٌ واتحادٌ.

وإنما حقيقة الأمرِ تنحيةُ النفسِ والخلقِ عن الطريقِ، فإن الوقوف مَعَهُما هو الانقطاع، وتنحيتُهُما هو الاتصالُ.

وأما الملاحدةُ القائلونَ بوحْدَةِ الوجودِ، فإنهم قالوا: العبدُ من أفعال الله، وأفعالُه من صفاتِه، وصفاته من ذاتِه، فأنتجَ لهم هذا التركيبُ: أنَّ العبدَ من ذات الرب، تعالى اللهُ وتقدسَ عما يقولون علواً كبيراً.

وموضع الغلط: أنَّ العبدَ من مفعولاتِ الربِّ تعالى، لا من أفعاله القائمة بذاته. ومفعولاته آثارُ أفعاله، وأفعالُه من صفاتِه القائمة بذاتِه، فذاته سبحانه مستلزمةٌ لصفاتِه وأفعاله، ومفعولاته منفصلةٌ عنهُ، تلك مخلوقةٌ محدثَةٌ، والربُّ تعالى هو الخالقُ بذاتِه وصفاتِه وأفعاله.

فإيّاكَ ثم إياك والألفاظ المُجْملة المُشتبهة التي وقع اصطلاحُ القوم عليها، فإنها أصلُ البلاء، وهي موردُ الصدّيق والزنديقِ.

فإذا سمعَ الضعيفُ المعرفَة والعلم بالله تعالى؛ لفظَ: «اتصالٍ وانفصالٍ، ومسامرةٍ، ومكالمةٍ، وأنه لا وجودَ في الحقيقةِ إلا وجودُ الله، وأن وجود الكائنات خيالٌ ووهمٌ، وهو بمنزلةِ وجُودِ الظِّلِّ القائمِ بغيره». فاسمع منه ما يملأ الآذان من حلولٍ واتحادٍ وشطحاتٍ.

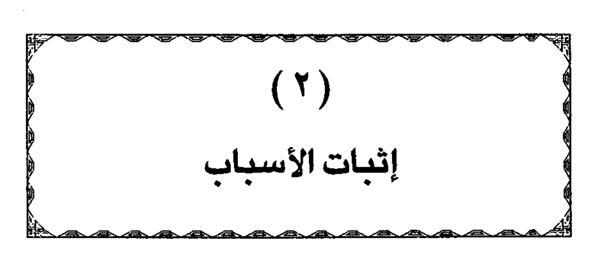
والعارفونَ من القومِ أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها، وأرادوا بها معاني صحيحة في أنفسهم، فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه، ونسبوهُم إلى إلحادهم وكفرهِم، واتخذوا كلماتهم المتشابهة تُرساً لهم وجُنة[2].

* * *

---

(١) المراد به: الاتصال الحسي بين العبد والرب، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

(٢) جاءت هذه الفقرة في: ٣/ ١٥٠ من مدارج السالكين.



(٢)
إثبات الأسباب

[ذهبت طائفة] إلى محو الأسباب، وعدم الالتفاف إليها والوقوف معها[١].

ونحن نقول: إنّ الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، والالتفاف إليها، وإنه لا دين إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به. فالحقيقة والشريعة: مبناهما على إثباتها، لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها، فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك، والله تعالى أمرنا بالوقوف معها، بمعنى أنَّا نثبتُ الحكم إذا وُجِدَت، وننفيه إذا عُدمت، ونستدلُّ بها على حكمه الكوني، فوقوفنا معها ـ بهذا الاعتبار ـ هو مقتضى الحقيقة والشريعة، وهل يمكن حيواناً أن يعيش في هذه الدنيا إلا بوقوفه مع الأسباب؟ فينتجع مساقط غيثها ومواقع قَطْرها، ويرعى في خصبها دون جدبها، ويسالمها ولا يحاربها، فكيف وتنفسه في الهواء بها، وتحركه بها، وسمعه وبصره بها، وغذاؤه بها، ودواؤه بها، وهداه بها، وسعادته وفلاحه بها؟ وضلاله وشقاؤه بالإعراض عنها وإلغائها. فأسعد الناس في الدارين: أقومهم بالأسباب الموصلة إلى مصالحهما، وأشقاهم في الدارين أشدهم تعطيلاً لأسبابها، فالأسباب محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والنجاح والخسران.

وبالأسباب عُرف الله، وبها عُبد الله، وبها أُطيع الله، وبها تقرب إليه

---

(١) جاء هذا الموضوع في: ٣/ ٤٠٧.

المتقربون، وبها نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته، وبها نصر حزبه ودينه وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتدٍ وغويّ.

فالوقوف معها والالتفاف إليها والنظر إليها هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً، ولا تكن ممن غلظ حجابه وكثف طبعه، فيقول: لا نقف معها وقوف من يعتقد أنها مستقلة بالإحداث والتأثير، وأنها أرباب من دون الله، فإن وجدت أحداً يزعم ذلك، يظن أنها أرباب، وآلهة مع الله مستقلة بالإيجاد، أو أنها عون لله يحتاج في فعله إليها، أو أنها شركاء له فشأنك به، فَمَزِّقْ أديمه، وتقرَّبْ إلى الله بعداوته ما استطعت، وإلا فما هذا النفي لما أثبته الله؟ والإلغاء لما اعتبره؟ والإهدار لما حققه؟ والحط والوضع لما نصبه؟ والمحو لما كتبه؟ والعزل لما ولاه؟ فإن زعمت أنّك تعزلها عن رتبة الإلـٰهية، فسبحان الله من ولاّها هذه الرتبة! حتى تجعل سعيك في عزلها عنها؟

ويا لله ما أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف! حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد إلا بإلغائها ومحوها، وإهدارها بالكلية، وأنه لم يجعل الله في المخلوقات قُوَى ولا طبائع، ولا غرائز لها تأثير موجبة ما. ولا في النار حرارة ولا إحراق، ولا في الدواء قوة مُذهبة للداء، ولا في الخبز قوة مشبعة، ولا في الماء قوة مُرْوية، ولا في العين قوة باصرة، ولا في الأنف قوة شامَّة، ولا في السم قوة قاتلة، ولا في الحديد قوة قاطعة؟ وإنَّ الله لم يفعل شيئاً بشيء، ولا فعل شيئاً لأجل شيء.

فهذا غاية توحيدهم الذي يحومون حوله، ويبالغون في تقريره.

فلعمر الله لقد أضحكوا عليهم العقلاء، وأشمتوا بهم الأعداء، ونهجوا لأعداء الرسل طريق إساءة الظن بهم، وجَنَوا على الإسلام والقرآن أعظم جناية، وقالوا: نحن أنصار الله ورسوله، الموكلون بكسر أعداء الإسلام وأعداء الرسل. ولعمر الله لقد كسروا الدين وسلطوا عليه المبطلين،

وقد قيل: «إياك ومصاحبة الجاهل، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك».

فَقِفْ مع الأسباب حيث أُمِرْتَ بالوقوف معها، وفارقها حيث أمرت بمفارقتها، كما فارقها الخليل وهو في تلك السفرة من المنجنيق، حيث عرض له جبريل أقوى الأسباب، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا[1].

ودُرْ معها حيث دارت، ناظراً إلى من أزِمّتها بيديه، والتفت إليها التفات العبد المأمور إلى تنفيذ ما أمر به، والتحديق نحوه، وارْعَها حق رعايتها، ولا تغب عنها ولا تَفْن عنها، بل انظر إليها وهي في رتبتها التي أنزلها الله إياها.

واعلم أن غيبتك بمسببها عنها نقصٌ في عبوديتك، بل الكمال أن تشهد المعبود، وتشهد قيامك بعبوديته، وتشهد أن قيامك به لا بك، ومنه لا منك، وبحوله وقوته لا بحولك وقوتك. ومتى خرجت عن ذلك، وقعت في انحرافين، لا بد لك من أحدهما: إما أن تغيب بها عن المقصود لذاته، لضعف نظرك وغفلتك، وقصور علمك ومعرفتك، وإما أن تغيب بالمقصود عنها بحيث لا تلتفت إليها.

والكمال أن يسلمك الله من الانحرافين، فتبقى عبداً ملاحظاً للعبودية، ناظراً إلى المعبود، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) قال الألباني في الضعيفة (٢١): لا أصل له في المرفوع.

(٣)
لوجدتني عنده

جاء في الحديث الصحيح:

(إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة:

عبدي استطعمتك فَلَم تَطعِمْني.

قالَ: يَا ربِّ كيف أُطْعِمُكَ، وأَنْتَ رَبُّ العَالمين؟

قال: استَطْعَمَكَ عَبْدِي فلانٌ فلَمْ تطعمْهُ، أما لَوْ أَطْعمْتَهُ لوَجَدْتَ ذَلِكَ عَنْدَي.

عبْدِي، اسْتسقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِني.

قالَ: يَاربِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ، وأَنتَ رَبُّ العَالمين؟

قالَ: اسْتَسْقَاك عَبْدِي فلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا لَوْ سقَيْتَهُ لوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدي.

عبْدي، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني.

قالَ: يَاربِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وأنتَ رَبُّ العَالمين؟

قالَ: مَرِضَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا لوْ عُدْتَهُ لوَجَدْتَني عِنْدهُ)[١].

فتأمل قوله في الإطعام والإسقاء: (لوجدت ذلك عندي)، وقوله في

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٩).

العيادة: (لوجدتني عنده)، ولم يقل: لوجدت ذلك عندي، إيذاناً بقربه من المريض، وأنه عنده، لذله وخضوعه، وإنكسار قلبه، وافتقاره إلى ربه، فأوجب ذلك وجود الله عنده، هذا وهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وهو عند عبده[1].

* * *

(١) جاء هذا الموضوع في: ٣/ ٤١١.

(٤)
حجب القلب عن الرب تعالى

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]

قال ابن عباس وغيرهُ: هو الذنبُ بعدَ الذنبِ يُغَطِّي القلبَ، حتَّى يصيرَ كالران عليه[١].

والحجب عشرةٌ:

الأول: حجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أَغلظها فلا يتهيأُ لصاحب هذا الحجاب أنْ يعرف اللهَ ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأُ للحجَرِ أَنْ يصعدَ إلى فوق.

الثاني: حجابُ الشِّركِ، وهو أَنْ يتعبَّدَ قلبه لغير اللهِ.

الثالث: حجاب البِدْعَةِ القوليّة، كحجابِ أَهلِ الأَهواءِ، والمقالاتِ الفاسدةِ على اختلافها.

الرابعُ: حجابُ البدْعَةِ العمليةِ، كحجاب أَهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامسُ: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادسُ: حجابُ أهل الكبائرِ الظاهرة، وحجابُهم أَرقّ من حجاب

(١) جاء هذا الموضوع في: ٣/ ٢٢٣ طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي.

إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أَقربُ إلى التوبةِ من كبائرِ أُولئك، فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجابُ أَهلِ الصغائرِ.

الثامنُ: حجابُ أَهلِ الفَضَلاتِ، والتوسع في المباحات.

التاسعُ: حجابُ أَهلِ الغفلةِ عن استحضارِ ما خُلِقوا له وأُريدَ منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشرُ: حجابُ المجتهدينَ السالكينَ، المشمِّرينَ في السَّيْرِ عن المقصود.

فهذه عشرة حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذه الحجب تنشأُ من أَربعةِ عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.

وهذه الأربعة العناصر، تُفسد القول والعمل والقصد والطريق، بحسب غَلَبتها وقلتها، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب، وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب، فبين القول والعمل وبين القلب مسافة، يسافر فيها العبد إلى قلبه، ليرى عجائب ما هنالك، وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون، فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه، وطلب النفوذ من هناك إلى الله؛ فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]، فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيداً في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله، وَجَمَّلَ به ظاهره وباطنه، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال، وصرف عنه سيِّئ

الأخلاق والأعمال، وأقام الله سبحانه من ذلك العلم للقلب جنداً، يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه، فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة، يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى، فإن الشيطان مع الهوى، لا يفارقه، ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه، ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى، وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وَثَبَتْ عليه النَّفْسُ، فأخذته وصيرته جنداً لها، فصالت به وعَلَتْ وطغت، فتراه أزهد ما يكون وأعبد ما يكون وأشده اجتهاداً، وهو أبعد ما يكون عن الله، وأصحاب الكبائر أقرب قلوباً إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السَّجَّاد العَبَّاد، الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود[1]؛ كيف أورثه طغيان عمله أَنْ أَنكَرَ على النبي ﷺ، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلُّوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى الشِّرّيب السِّكِّير الذي كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فيحدّه على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ومحبته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لَعْنَتِهِ[2].

فظهر بهذا أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.



(١) هو ذو الخويصرة. انظر: البخاري (٤٣٥١)؛ ومسلم (١٠٦٤).

(٢) جاء هذا في رواية البخاري (٦٧٨٠).

(٥)

مفسدات القلب

مفسدات القلب خمس هي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع والمنام[١].

اعلم أن القلب يسير إلى الله عزَّ وجلَّ والدار الآخرة، بنوره وحياته، وقوته وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتغوِّر عين بصيرته، وتثقل سمعه إن لم تَصمه وتُبْكِمْهُ ـ وتضعف قواه كلها. وتوهي صحته وتُفَتِّر عزيمته، وتوقف همته وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب ـ وما لجرح بميت إيلام ـ فهي عائقة له عن نيل كماله، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، محدثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتاً وتفريقاً وهماً وغماً وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم فماذا يبقى مِنْه لله والدار الآخرة؟.

---

(١) جاء هذا الموضوع في: ١/ ٤٥٣.

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة؟! وأنزلت من محنة وعطلت من منحة وأحلت من رزية وأوقعت في بلية؟! وهل آفة الناس إلا الناس؟! وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟! لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطَر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعضُّ المخالط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة والأعياد والحج، وتعلُّم العلم، والجهاد والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم، فالحذَر الحَذَر أن يوافقهم وليصبر على أذاهم، فإنهم لابدّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذىً يعقبه عِزٌّ ومحبة له، وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وَبُغْضٌ له، ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين.

فالصَّبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله تعالى، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

* * *

وأما التمني: فهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد

الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطنة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، فاعتاضت عنها بالأماني الذهنية، وكلٌّ بحسب حاله: من متمنٍّ للقدرة والسلطان، أو للضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصلها، وَالْتَذَّ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقرّبه من ربه ويدنيه من جواره. فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه وقال: (هُما في الأَجْر سَواء)[1].

* * *

وأما التعلق بغير الله: فهذا أعظم مفسداته على الإطلاق؛ فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن الله وأحجب له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى من تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله [عزَّ وجلَّ] بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلَّق به وصل، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٦)؛ وابن ماجه (٤٢٢٨).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

* * *

وأما الطعام المفسد للقلب فهو نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاتِه كالمحرمات، وهي نوعان مُحرَّمات لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرَّمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدي حدِّه، كالإسراف في الحلال والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها وقوَّى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور: (ما مَلأَ آدمي وعاءً شراً من بَطْنه، بحسب ابن آدم لُقيمات يُقِمن صُلْبَه، فإن كان لابدَّ فاعلاً فثُلُث لِطَعامه، وثُلُثٌ لِشرابه، وثلثٌ لنفسه)[1].

* * *

وأما كثرة النوم: فإنه يميت القلب ويثقل البدن، ويضيع الوقت

(١) رواه الترمذي (٢٣٨١)؛ وابن ماجه (٣٣٤).

ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جداً، ومنه الضارّ غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أَحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه وكثر ضرره. ولاسيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لِسَهران.

ومن المكروه عندهُم: النَّوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غَنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحِصّة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير.

* * *

(٦)
أسباب الإعراض عن الآخرة

فإن قلت[١]: ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خَطَر لها، وما الذي زَهَّدها فيها؟ وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصورها وشعورها؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل، وعمى هنالك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب في ذلك ضعف الإيمان، فإن الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

وبالجملة فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جُثوم الغفلة على القلب، فإن الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع، فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم، فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ، ولمن أحيا

---

(١) جاء هذا الموضوع في: ٣/ ٢٨٤.

الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما .

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه، وكما أن يقظة الحس على نوعين، فكذلك يقظة القلب على نوعين .

فالنوع الأوَّل من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية، ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتِّيه .

والنوع الثاني: أن يُقبِل على نفسه وقلبه وذاته، فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عوالي الأمور وسفسافها، فيؤثر الأعلى على الأدنى، ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما، ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما، ويتحلى بمكارم الأخلاق ومعالي الشِّيَم، فيكون ظاهره جميلاً، وباطنه أجمل من ظاهره، وسريرته خيراً من علانيته، فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما، فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما .

أحدهما: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا خَطَر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية التي لا قيمة لها .

فإن قلت: مَثِّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإني لا أفهمه .

قلت: وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته، وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء، فيتّقِد الثاني ويضيء غاية الإضاءة، ويتصل ضوؤه وينطفئ الأول، والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية، وقد توسط الموت بين الدارين، فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلا عليها، وباب لا يدخل إليها إلا منه، فهما حياتان في دارين بينهما موت؛ وكما أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها

كذلك مقتبسة من حياتها، فعلى قدر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار، وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذي يقتبس منه ذلك النور والحياة لا ينقطع، بل يضيء للعبد في البرزخ، وفي موقف القيامة وعلى الصراط، فلا يفارقه إلى دار الحيوان، يُطفأ نور الشمس وهذا النور لا يُطفَأ، وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل، هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني: يقظة تبعث على الحياة لا تدركها العبارة، ولا ينالها التوهم، ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه البتة، والذي يشار به إليها حياة المحب مع حبيبه، الذي لا قِوام لقلبه وروحه وحياته إلا به، ولا غنى له عنه طرفة عين، ولا قرة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه إلا به. فهو أحوج إليه من سمعه وبصره وقُوتِه بل من حياته، فإن حياته بدونه عذاب وآلام، وهموم وأحزان، فحياته موقوفة على قربه وحبه ومصاحبته، وعذاب حجابه عنه أعظم من العذاب الآخر، كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين، فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله: ﴿ ۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٥ - ١٦].

والمقصود: أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه.

فإن كُشف هذا الحجاب بالذكر، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد.

فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوب صغار تبعده عن الله.

فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مَقْت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته.

فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بِدَعٍ عملية يعذب العامل فيها نفسه، ولا تجدي عليه شيئاً.

فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية، تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول.

فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب شكٍّ وتكذيب، يقدح في أصول الإيمان الخمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، فلغلظ حجابه وكثافته، وظلمته وسواده، لا يرى حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان، يَعِدُه ويُمَنِّيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان، فأسره وسجنه، إن لم يهلكه، وتولى تدبير المملكة واستخدام جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بواب الغفلة، وقال: إياك أن تؤتى من قبلك، واتخذ حاجباً من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحداً يدخل عليّ إلا معك، فأمرُ هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فَسَدَ أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رِقَّة الإيمان، وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان ـ أن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طَيِّ هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التكلان.

* * *

(٧)
الثمار اليانعة

الخوف يثمر الورع والاستقامة وقصر الأمل .

وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد .

والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء .

والقناعة تثمر الرضاء .

والذكر يثمر حياة القلب .

والإيمان بالقدر يثمر التوكل .

ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة .

والورع يثمر الزهد أيضاً .

والتوبة تثمر المحبة أيضاً .

ودوام الذكر يثمرها .

والرضا يثمر الشكر .

والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات .

والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه .

والمعرفة تثمر حسن الخلق .

والفكر يثمر العزيمة .

والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة .

وإماتة النفس وإذلالها وكسرها : يوجب حياة القلب وعزه وجبره .

ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله تعالى ، واستكثار ما منه واستقلال ما منك من الطاعات ، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان .

وصحة البصيرة تثمر اليقين .

وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة .

وملاك ذلك كله أمران : أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة ، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها ، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله ، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته ، وتنزيلها على داء قلبك .

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى ، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ، ولا جوع ولا عطش ، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق البتة ، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم ، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها ، والله المستعان[1] .

* * *

---

(١) جاء هذا الفصل في : ٢/ ٢٨ .

الخاتمة

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور، ولا مُوَدَّع، ولا مستغنىً عنه ربنا.

ونسأله أن يُوزِعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجعل ما قصدنا له ـ في هذا الكتاب وفي غيره ـ خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارئ له، لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه، لك ثمرته وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صواب وحق فاقبله، ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال، لا إلى من قال. وقد ذمّ الله تعالى من يردُّ الحق إذا جاء به مَنْ يُبغضه، ويقبله إذا قاله مَنْ يحبه. قال بعض الصحابة: «اقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً، ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيباً»، وما وجدت فيه من خطأٍ فإن قائله لم يَألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال.

كما قيل:

والنَّقْصُ في أَصلِ الطبيعةِ كَامِنٌ   فَبَنُو الطبيعةِ نقصهم لا يُجحدُ

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلق ظَلوماً جَهولاً؟! ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته: النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعل الحق تبعاً للهوى: فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقال النبي ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تبَعَاً لما جِئْتُ بِهِ)[١]. فالعلم والعدل أصل كل خير، والظلم والجهل أصل كل شر، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يعدل بين الطوائف، ولا يتبع هوى أحد منهم، فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد، وعلى آله أجمعين.

* * *

(١) قال في فتح الباري: ١٣/ ٢٨٩: رجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

فهرس الأحاديث والآثار النبوية الشريفة

* * *

فهرس حرفي للمنازل

* * *

المحتوى

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني
منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

الباب الثالث
مختارات

* * *

مشروع
تقريب تراث الإمام ابن قيم الجوزية

صدر منه:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ ـ فضل العلم والعلماء.

٨ ـ الهدي النبوي في العبادات.

٩ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

١٠ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

١١ ـ الروح.
(الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت).

١٢ ـ طب القلوب.

١٣ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء).

١٤ ـ المهذب من مدارج السالكين.
(الناشر: دار القلم ـ دمشق).

* * *

كتب صدرت لمعدِّ الكتاب

في السنة المطهرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).

٤ ـ تحقيق مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض.

٥ ـ العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري.

في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).

٥ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٧ ـ هكذا فهم السلف.

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٩ ـ الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

١٠ ـ تهذيب الشفا، للقاضي عياض.

في الرقائق والأخلاق:

١ ـ مواعظ الصحابة.

٢ ـ المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).

٣ ـ تحقيق رسالة شرح المعرفة للمحاسبي.

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف. صدر منها (١٥) عدداً كان أولها مواعظ الإمام الحسن البصري.

موضوعات أخرى:

١ ـ الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).

٢ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٣ ـ دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:

ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

ـ ميادين الجمال.

ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٤ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٥ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٦ ـ الإسلام دين التيسير.

٧ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٨ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

تحت الطبع:

سيرة النبي ﷺ في بيته.

* * *